إيلاريا توتي

مثلُ ريحٍ طُرِّزَتْ بالأرضِ

ترجمة: أماني فوزي حبشي

مكتبة

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING | مرايا

مثلُ ريحٍ طُرِّزَتْ بالأرضِ

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

مكتبة
t.me/soramnqraa

الكاتب: إيلاريا توتي
عنوان الكتاب: مثلُ ريحٍ طُرِّزَتْ بالأرضِ
ترجمة: أماني فوزي حبشي

العنوان باللغة الأصلية: **Come Vento Cucito Alla Terra**

الكاتب: **Ilaria Tuti**

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-775-75-4

الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2023

2000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

Longanesi & C. © 2022 - Milano

Gruppo editoriale Mauri Spagnol

Pubblicato in accordo con Mala Testa Lit. AG. Milano

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takween.publishing@gmail.com

takweenkw

takween_publishing

TakweenPH

www.takweenkw.com

إيلاريا توتي

مكتبة
t.me/soramnqraa

مثلُ ريحٍ طُرِّزَتْ بالأرضِ

ترجمة

أماني فوزي حبشي

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
مرايا

إلى باولو...

الذي طرَّزَ لِحافَ جاسمين الأوَّل.

الحبُّ غُرزةٌ...

ليس ضِمادةً، وليس تُرسًا،

(بلى، فهو لا يستوجِبُ دفاعًا!)

غُرزةٌ طُرِّزتْ بها الريحُ بالأرضِ؛

وطرَّزَتني بكَ.

مارينا تسفيتايفا

مكتبة
t.me/soramnqraa

١

لندن، حي وايتشابل، ٢٢ أغسطس ١٩١٤

بدتْ شعلة عود الثقاب وكأنها تُظهر الشيطان. وإذا ظهر فلن يكون أوَّلَ مخلوق قادم من الجحيم مرَّ من هنا هذه الليلة. في السقيفة يظل الهواء ساكنًا وتتصاعد روائح العنف، ممزوجة بإنسانية متوحشة. ولا تهب من النافذة المفتوحة على مصراعيها أي نسمة هواء لتُبعد تلك الآثار. بدا وكأن خُطوات الشر قد تركت آثارًا أخرى، إذ كان هناك في الخارج -في الشارع- بكاءٌ مؤثر بالفعل، ونَوحٌ جنائزيٌّ بعيدٌ بعض الشيء.

أشعلت كيت فرن الكحول الصغير، وانتظرت أن غليان المياه لكي تُعقِّم الإبرة.

قابلتْ العديد من الشياطين المختلفين، إلى أن أدركتْ أن هناك بعض المخلوقات يعذبهم نوع من الجوع لا دخل له على الإطلاق بالغذاء. تراقبهم وهم يتدربون بإصرار، أكثر من الآخرين، على فنون البقاء على قيد الحياة، تَعلُّم ما لا يُقاس، ونسيان أي خطأ. يبنون الدروع بجزيئات العظام المتشابهة، ويتسلقون المنحدرات بقوة أسنانهم.

تنتمي الأرملة هاريس إلى ذلك النوع من المخلوقات.

شعرت كيت بعينيْ صاحبة المنزل الصغيرتين تتسلَّقانها. تجري على وجهها، أعلاه وأسفله، على ذراعيها، وتتسلقان ظهرها. نظرات سريعة مثل ذيلٍ يختفي بسرعة في حفرةٍ ما. لم تستطع العذوبة التي تُغطي بها العجوز نظرتها إخفاء الطبيعة الحقيقية التي تُحييها: الطَّبع الذي يتغذى على النفوس المُحطَّمة في وايتشابل.

مرَّرت كيت في ثقب الإبرة أرفعَ خيطٍ استطاعت العثور عليه في حقيبتها الجلدية. أشارت للأرملة أن تُقرِّب المصباح.

لم تستهن بالقشعريرة التي تجتاحها عندما تقترب منها المرأة. كانت أبيغيل هاريس تصطاد باستمرار وتعرف أكثر من الآخرين أن النجاة في الحياة لا تعتمد على القوة العضلية، بل القدرة على التكيف. بدأت عملية تحولها إلى شرنقة سوداء بعد موت زوجها، بسبب طَرقات الدائنين على الباب. تخلصت أبيغيل اليائسة من الجلد الذي وُلدت به، وحولت سقيفة المنزل إلى ماخور بما تبقى لديها من جنيهات إسترلينية.

تقبع العاهرة في ركن من أركان الحجرة لساعات، وتغوص في الأريكة. تنام وقد أسكرها البراندي رخيص الثمن الذي تصبه أبيغيل في حنجرتها. نظفت كيت الوجه من الفتات والدموع، وغطت العُري بملاءة نظيفة. على ذلك القماش المخملي، بجوار السَّرير المبعثر، يجلس الزبائن ليفكوا ويعيدوا عقد أربطة الأحذية والكِذْبات.

لم تكن تلك العاهرة المُصابة سوى صبية، ورَّطها الحظُّ بجَمال بدأ يظهر بالفعل، وبفقرٍ جعلها أسيرةً للرجال حتى الرَّمق الأخير.

في ذلك الجسد النحيل والمُعذَّب، بدا لكيت أنها ترى جسدَ المسيح الملفوف في الكفن.

أدارت برفق وجهها تجاه الضوء. يمتد الجرح على وجنتها من أذنها حتى فمها.

تركت الحرب لندن خاليةً من الرجال، وبدأت أبيغيل تبحث عن الزبائن بين حثالة الصعاليك. تكيفت مع الظروف الجديدة، على حساب فتياتها اللاتي كُنَّ يترددن على الماخور مقابل بعض الفكَّة، أو صحنٍ من الحساء، وكوب من الكحول لطردِ الغثيان.

غرست كيت الإبرة في الجلد، وبدأت في حياكة الحياة الممزَّقة من جديد. أخذت تخيط غُرَزًا صغيرة جدًّا، تعمل على ضم رُقع الهمجية مع الرحمة.

تميل السيدة هاريس بجسدها لتنظر، لا يوجد منظر يمكنه أن يتسبب لها في الاضطراب.

- هل ستعود كالسابق؟

- إذا لم يتلوث الجرح. لا بد أن تنظفوه لها بمحلول الماء والملح، وتَحْموه بضِمادات مُعقَّمة. أحتاج أن يكون المصباح أقرب. شُكرًا.

شدَّت كيت الخيط من جديد. أرادت أن تكون الغُرَزُ متقاربة، ضيقة، لتمنحَ الطفلة وجهًا مُشرقًا. يقولون إنها بارعة في ترميم أي وجه مُحطَّم.

لم تعترض أبيغيل على العمل الذي عليها القيام به. فهو يمثل إزعاجًا بسيطًا في مقابل ما يمكن أن يحدث. طردت الزبون العنيف وأرسلت

صبيًّا ليستدعي كيت «المرأة الإيطالية». هكذا كانوا يعرفونها في مستشفى شارع هارو.

رنَّ جرس المدخل بقوة في سكون الليل، دقتين قويتين.

ضمَّت صاحبة المنزل الوشاح إلى صدرها.

- والآنَ، مَن ذلك الشيطان الآخر الذي أتى للزيارة؟

خطرَ لكيت أنها تتفق مع هذا الوصف الذي قيلَ توًّا، ولكن على نحو مغاير لما قصدته السيدة.

وضعت أبيغيل المصباح بجوار الحوض، ورتَّبت خصلات شعرها الأبيض أسفل القبعة المصنوعة من الموسلين. تحسست جيب المريلة الثقيل. لم يترك انتفاخ القماش الشك حول مُحتواه.

- لو عاد سأرسله إلى الجحيم. حضرتك استمري، لا تتوقفي.

والإبرة بين أصابعها، تنظر إليها كيت وهي تترك الحجرة وتجذب الباب خلفها. فكرت، الشيطان موجود بالفعل في هذا المنزل، والآن هو في طريقه لنزول السلم مُمسكًا ملابسه بأطراف أصابعه السمينة. كان من الصعب التعرف عليه، حيث إنه لا يشبه على الإطلاق ذئبَ الحكايات.

همست لنفسها بغيظ: إنكِ أنتِ الشيطان، أيتها العجوز القاسية.

انتظرت بضع ثوانٍ، ولكن لم يصرخْ أحد، ولم تُطلق السيدة هاريس الرصاص.

مسحت كيت بذراعها على عينيها اللَّتينِ تحرقانها، شدت ظهرها المتألم، وعادت لتعمل.

تَبقَّت غرزة واحدة، وقطعة خيط مقطوعة لا بد من عقدها في نسيج حياةٍ.

تأوَّهت الشابة. كان جفناها منتفخين وشفتاها ترتعشان.

ربتت كيت بأناملها على وجنتها السليمة.

- لم يتبق سوى القليل، تشجعي.

رأتها تمد بصعوبة يدها تجاه الأرض حيث توجد وسادة. نجحت في لمس سطحها بالسبابة. تدحرجت دمعة حتى ذقنها وسقطت على الملاءة.

رأت كيت من قبل هذه الإيماءة، في إحدى مدن وطنها الأم الذي ظلت غريبة فيه، على التصوير الجصي في كنيسة لم يكن بها أي شيء متواضع، تصرخ إلى السماء بالقُدرة الغاضبة واليائسة للمخلوقات السَّاقطة: الإصبعُ الممتدَّة للإنسان بحثًا عن تلامسٍ مع الرب.

وكان الربُّ *هنا* على تلك الوسادة في هيئة طفل نائم، وقبضتاهُ كانتا مضمومتيْنِ على وجنتيْنِ مضرَّجتيْنِ بالحُمرة.

شعرت كيت بصدرها يكاد ينفجرُ من الحزن.

ماذا سيحدث لهما؟ إذا لم يكن في تلك الليلة، ففي الليالي التالية أو في ليالي الشِّتاء، أو فيما بعد ذلك بأعوام.

غسلتْ يديْها وأمسكتْ بالطفل بين ذراعيها. كان دفءُ تلك الحياة شديدة الهشاشة دفءَ قلبٍ غاضبٍ اعتادَ بالفعل على الصراع. لحُسن الحظِّ أنَّ تلكَ التَّعيسةَ أنجبتْ ذكرًا! ربَّما نجَّاهُ ذلك من بعض المآسي.

هدهدتِ الصَّغيرَ وقبَّلته، ولكنها ذكَّرت نفسها بألاَّ تتعلَّق به عاطفيًّا.

تُصلِح كيت ما يمكن إصلاحه، تُجري الجراحة وترحل، ولكن من المؤلم جدًّا ترك الضحايا، وإعادة تسليمهم مرة أخرى للمصير المأساوي المنتظَر.

تحركَ الطفل، وتجهَّم وجهه استعدادًا لبكاءٍ على وشكِ الانفجار.

انفصلت عنه كيت بسرعة. لم يولد أحد ليُنقِذ العالم ولا ليُنقَذ. ولا يمكن أن يقبعَ على النفس ذنبُ الأمل. إذا كان للقدر وجودٌ، فلن يكون سوى أن يبحث كلٌّ عن طريقِهِ.

وضعَته على صدر أمِّه. ساعدتها على الإمساك به وقمطتهما معًا بلِحافٍ حتى لا يضيعا عن بعضهما. وعقدت طرفه حتى لا يفقداه في الليل، كما اعتادت أن تفعل جدتها الإيطالية معها ومع أمها، عندما وُلدت كيت. ولكن، آنذاك، كانت الليلةُ هادئةً، والقمرُ بدرًا، والعالَم تشبَّع من الدِّماء، إلاَّ أنه في الغرب بدأتْ عاصفةٌ جديدة. معتمةٌ أكثر من الظلام نفسه، وتنير أحيانًا بوميض الصَّواعق.

ظهرت السيدة هاريس، مرة أخرى أمام الباب، وهي تجفِّف جبهتها بمنديل مُطَرَّز.

- ثمَّة سيدتان في حجرة الاستقبال. سيدتان حقًّا! في هذه الساعة، في منزلي.

لم تستطع إخفاء دهشتها:

- إنَّهما هنا من أجلك، ولكنهما قالتا أن تُنهي عملك على نحوٍ دقيق. شيء لا يُصدَّقُ: ستنتظرانك.

٢

نزلت كيت السلالم متثاقلةً تَجُرُّ ساقَها المتألمة. كان حوضها متيبِّسًا وعضلاتها مُتقلِّصة. يُصدِر الثِّقل المتنقل على الدرجات المصنوعة من خشب البلوط صريرًا. تتقدم بخطوات عجوز، على الرغم من صِغَر سنها.

انتظرت السيدتان أكثر من ساعة حتى انتهت من عملها، وكأن الوجود في ماخور بمنطقة وايتشابل المتعفنة ليلًا، وفي قلب لندن المظلم، شيءٌ طبيعيٌّ.

تساءلت كثيرًا ما الدافع الذي جعلهما تفعلان كلَّ هذا، وكأنهما تعرفان الشيءَ الذي دُعيت يداها لعمله.

في الواقع تعرفان هذا، وبمجرد أن ألقت كيت نظرةً واحدة عبر الباب الموارب تعرَّفتْ عليهما. تحدثت معهما مرةً واحدة، في فرصة كانت فرصة العمر.

تجلس فلورا موراي ولويزا غاريت أندرسون على أريكة السيدة هاريس المُزيَّنة بالزُّهور، في صالون صغير مُتهالك، ولكنه على الأقل

لا يفوح برائحة عطور الرجال اللاَّذعة، مثلما هو الحال في باقي المنزل. تتمتعان بجسديْن مُسَطَّحيْن وظهريْن مشدوديْن، تجلسانِ الواحدة بجوار الأخرى، ويُقال إن هذا حالهما منذ بضعة أعوام.

بحثت كيت في يديهما عمَّا يؤكِّد أفكارَها: بيضاءُ البشرةِ، خشنةٌ، وقويةٌ جدًّا إلى حدٍّ أن بإمكانها إغراقَ جسدٍ وإنقاذَ حياةٍ. ترتدي فلورا ولويزا خاتميْن متشابهيْن وعلى صدريهما شريطان مكتوب عليهما: "التَّصويت للمرأة".

ومثل كيت، فهما تنتميان إلى العالم نفسه، عالم الوسط. كمخلوقات هجينة، بدأت الصحف تتحدث عنهن بفضول مشوب بالقلق وتطلق عليهن، ببعض من السخرية، Lady doctors، السيدات الطبيبات.

فتحت الباب، وارتفعت أعيُنُ المرأتيْن نحوها وببعض النظرات السريعة استطاعت التعرف على طابع كلٍّ منهما، لويزا أكثر وداعة، أما فلورا فهي إسكتلندية جسورةٌ وانطوائية.

حاولتْ كيت أن تهندمَ مظهرها، نزعت مريلة العمل، وأسدلت كُمَّيْ القميص، وعقدتْ أزرار ياقته حتى الزر الأخير المصنوع من اللؤلؤ. كانت تتمنى أن يكفي هذا، إلاَّ أنها بدأت تشعر وكأنها عارية.

ابتسمتْ لويزا:

- كاترينا هيل، أخيرًا نستطيع التحدث مع حضرتك.

- كيت، من فضلك.

أشارت لها المرأة بالجلوس على مقعد السيدة هاريس وكأنَّها في منزلها.

- لقد تعبنا كثيرًا حتى نعثرَ عليكِ. فقد تركتِ عملك في مستشفى شارع هارو دون أن تعطي أي إشارةٍ عن نواياكِ.

وافقت كيت على المكان الممنوح لها. الجرح يجعل الحركة مؤلمة، وعقد كل الأزرار يُشعرها بقساوة النسيج.

- لقد قدَّمتُ استقالتي.

تسبب تقطيب الحاجبين في عبوس وجه لويزا الدقيق.

- كما هو واضح، لم يكن هذا سوى إهدارٍ لموهبةٍ. أستنتجُ إذن أن الحادث المؤسفَ الذي وقع لك هو سبب هذا القرار.

نظرت المرأتان إلى السَّاقِ التي أُجبرت كيت أن تفردها أسفل التنورة. كانت موضوعة في مواجهتهم، ولكن في كل الأحوال لن تسمح بأن يستخفَّا بالعُنف الذي تعرَّضت له.

- لم يكن مجردَ حادث، لقد تعرضتُ لاعتداءٍ. ولكنكما تعرفان هذا بالفعل فأنتما تديران المستشفى.

إذا اعتقدتْ أنها تضع حدًّا بين ما هو مسموح وما هو ممنوع النطق به، فهي مخطئة. لم تضطرب لويزا على الإطلاق.

- لستِ المرأة الأولى ولا الأخيرة التي تتعرض لاعتداءٍ يا دكتورة هيل. لا تَدَعي حادثًا فرديًّا قام به مجنونٌ يُدمِّرُ مسارَكِ.

- هذا المجنونُ هاجمني لأنني نصف إيطالية يا دكتورة أندرسون. هكذا يطلقون عليَّ في شارع هارو: الطبيبة الإيطالية. أثارت الحرب سخط القوميين ولا بدَّ أن الوضع سيزدادُ سوءًا.

أمسك زوج إحدى المرضى شَعرها وجرَّها على السلم إلى الأسفل حتَّى الشارع. حادث عنيف وحشي، ترك لها ذكرى كسْر في عظمة الفخذ.

أومأتْ لويزا غاريت أندرسون موافِقةً.

- ولكن إن لم أُخطئ، على حسب ما نُقل إلينا، فإنه هاجمك أيضًا لأنك امرأة. امرأة طبيبة.

دلَّكت كيت حوضها.

- هل هذا يُغَيِّر الوقائع؟

- يزيدها سوءًا.

انتزعت وخزةٌ أنفاس كيت. بحثتْ عن وضع يريحها.

- لماذا أتيتما إلى هنا؟

- نحن هنا لنُشرك حضرتك في مشروعٍ طَموح.

- أي مشروع؟

اقتربتْ لويزا أكثر، وجلستْ على حافة الأريكة.

- افتتاحُ وحدةٍ جراحية تديرها النساءُ فقط، من أجل الرجال في منطقة حربية.

لوهلةٍ شكَّتْ كيت أنها لم تسمع جيدًا، أو أن الطبيبة تحدَّثت بسرعة، ولكنها تعرف أنها سمعت جيدًا، وقادها تعبيرُ وجه المرأة لأن تصدق أنه لم يكن نوعًا من سُوء الفهم. لويزا غاريت أندرسون تُناهز الأربعين من العمر، أكبر من كيت بنحو عشرة أعوام، ومتخصصة في الجراحة. أما

فلورا موراي، فهي أكبر من زميلتها بخمسة أعوام، وتعمل طبيبة تخدير وأخصَّائية علاج طبيعي.

بدأت كيت تفهم.

كررتْ، لتحاولَ أن تمنح معنىً لهذا الفهم:

- وحدة طبية تديرها النساء. تديراها أنتما. لا ترغبان بمجرد المشاركة في المنظمة.

- بالتأكيد لا، نريد أن نفعل ما تأهلنا لعمله: الجراحة. نريد أن نحصل على الخبرة في ساحة المعركة. إنها فرصة فريدة، ليس فقط لنا، ولكن من أجل كل النساء الطبيبات في هذا البلد. ها هي مناطق عمل تُفتح لم تخطر من قبل على بال. لن تستمرَّ طويلًا. إذا تراجعنا وعُدنا إلى منازلنا، ستكون كل سنوات النضال التي خُضناها حتى الآن قد ضاعت سُدىً.

استطاعت كيت فقط أن تقول كلمة واحدة:

- مَن؟

- حتى الآنَ، يتألَّف الفريقُ من ثماني ممرضات، وأربع مساعدات وثلاث طبيبات- وسنصبح أربعًا إذا قررتِ الالتحاق بالحملة. تعرفين الزميلات، فهن تقريبًا في مثل عمرك: هيزيل كوتبرت، غريس جادج، وغيترود غازدر.

كانت تعرفهن، وكُنَّ طبيبات ماهرات، جرَّاحات، أخصَّائيات في الأشعة، وأخصَّائية باثولوجي.

نهضت كيت، فهي لا تستطيع أن تمكث جالسة أمام نظراتها

الحادة. أدارت كتفيْها، واضعةً يدها على صدرها، وكأنها تريد تهدئته. شعرت بقلبها يرتجف.

- جميعنا متخصصاتٌ في أمراض النساء والأطفال، وتُفكِّرنَ في معالجةِ الجُنود!

- حتى الآن، تلك كانت مجالات عملنا. ولكن، فقط لأنهم لم يسمحوا لنا بالحصول على الخبرة في مجالاتٍ أخرى.

لم تستطعْ كيت حتى أن تتخيل ما يعرضونه عليها. كان الأمرُ قاسيًا بالفعل، حيث العراقيل كثيرة لتستطيع التقدم والممارسة.

قالت: حضرتك من الجيل الثاني من النساء الطبيبات. فوالدة حضرتك، دكتورة أندرسون، هي أول طبيبة في بريطانيا العظمى، وأسست مدرسة لندن لطبِّ النساء.

- أسست المدرسة التي درستِ فيها بنفسك يا كيت، حتى تسمح لأخريات كثيرات بالدخول للمهنة بطريقة ممنهَجة، وليسُ فقط لَمن تسمح لهم ذلك عائلاتهم الغنية. ما زالت جامعتا كمبريدج وأكسفورد ترفضان فتح دراسة الطب أمام الطالبات، وليستا الجامعتيْن الوحيدتيْن في ذلك. فالجامعات الأخرى موقفها مشابه من حيث الجوهر. وأنتِ تعلمين جيدًا أنهم يسمحون بالتردد على الدروس، ولكن ليس بدخول الامتحان المؤهل النِّهائي. وحتى عندما نستطيع ذلك، لا يمكننا على الإطلاق التقدُّم مهنيًّا.

لم يكن في استطاعتهن سِوى علاج النساء والأطفال، وفي المستشفيات الخيرية الصَّغيرة مثل مستشفى شارع هارو. مجرد نشاط مسموح به، ليس

إلاَّ. عرَّفته جريدة «لانست» بأنه «غزو الأمازونيات». فمهنة الطب تُقسي القلب، ولا يمكن لقلب امرأة أن يقبل هذا. ماذا سوف يحدث للرجال إذا حدث هذا؟ في مواجهة نساء ذوات إرادة قوية ولا يَمِلن للطَّاعة، بالنسبة إليهم، وبالنسبة لمجتمع شكَّلوه بأنفسهم، ستكونُ كارثةً.

تحدَّثت لويزا بانفعالٍ، عيناها تلمعان لكنها مبتسمةٌ. أصبح كل جسدها مشدودًا مثل سهم انطلقَ بقوة ليُسقط إرادةَ كيت. ولكن كيت صدت ذلك الهجوم.

- دكتورة أندرسون، حضرتك جزء من سلالة، بينما أنا شخصٌ بمفردي.

لانتْ نبرة لويزا:

- جميعنا بمفردنا يا كيت. وخاصة أمام الاختيارات التي يمكنها أن تغير حيواتنا إلى الأبد.

حتَّى تلك اللحظة التزمت فلورا موراي الصَّمتَ، ولكن كيت تعرف رأيها منذ البداية. تشعر به يقبع فوقها، وكأنها يدٌ تتلمس وضع المادة قبل أن تُخضعها لأقصى ضغطٍ. عندما تحدثت صُدمتْ كيت من القساوة المعدنية لصوتِها.

- كاترينا هيل، هل أنت مُسجَّلةٌ بالفعل في السجلِّ الطبي؟ هل يمكننا أن ندعوك طبيبةً؟

اهتزت كيت من الإهانة المُغلَّفة بالشكِّ.

- بالتأكيد!

- هذا يكفينا. اسمعي، لن أسألك عما يحكيه مَن يعرفك بأنك تعيشين

مع زوجين مُسنَّين، نجار وخياطة تعمل للمسرح. الأشخاص الذين سألناهم عنك مقتنعين أنهما والداك -تريدينَ للناس أن يفهموا ذلك- ولكن نحن جميعًا هنا نعلم أنه إذا كانت تلك هي عائلتك لما تمكنتِ من الالتحاق بالدِّراسة الضَّرورية لمزاولة المهنة.

انتظرتْ، وعيناها فاتحتا اللون تُحدِّقانِ في عينيها. كيت لم تَزُرْ إسكتلندا قط، ولكنها تخيلت أن يكون ثلج مرتفعات هايلاندز بهذه الشفافية.

تمتمت: ليسا، ليسا والديَّ.

- أعرف هذا، فالسيدة لا بد وأن.تكون إيطالية، ولكنني أعرف أنها من ويلز.

- أنا لا أعيش مع عائلتي يا دكتورة موراي. يبدو لي أنني أكَّدْت هذا.

- ولن أسألك عن خاتم الزواج الذي تضعينه في إصبعك، ولا عن الزوج الذي لم يَرَهُ أحدٌ قطُّ. أنا والدكتورة أندرسون مقتنعتان أن الزواج لا يمكن أن يصحبنا في مستقبلنا المهني كطبيباتٍ: إذا كان ذلك الرجل قد اختفى، فهذا ليس ذنبكِ.

لم تعرف كيت إذا كان عليها أن تضحك أم تبكي من تلك الجلافة. فتَّشت تلك المرأة في حياتها، في جروح لا تزال مفتوحةً. ولم تنتهِ حتى الآن.

- أما فيما يتعلق بالدم الإيطالي يا دكتورة هيل، فهو لم ولن يشكل أيَّ عائق، بغضِّ النظر عن القرار الذي سيتخذه وطنُك الأمُّ تجاه

الاشتراك في الصِّراع من عدمه، ومع أي جانب سيكون. نحن النساء لم يَدعُنا أحدٌ قطُّ لنقرر في شأن الحرب، نحن مدعوَّاتٌ فقط لإصلاح ما تسببه من أضرار.

ثم أشارتْ لساق كيت:

- ما سبق وحدث لك لن يتكرَّرَ. تأكدي من هذا.

شعرتْ كيت بأنَّها ترتجف.

- مَن قال إنك تتحدثين بوضوحٍ يا دكتورة موراي، قلل من حقيقةِ الأمر.

لم تُجب الأخرى على ابتسامتها الساخرة.

- نحن هنا لأن إمكانياتك ثمينة. لأن يديك ثمينتان، نحن نحتاج شخصًا مثلك.

- أنا متأكدة أنكما لن تشعرا بالإهانة إذا تحدثت أنا أيضًا بوضوحٍ: هل أنتما متأكدتان أن لديكما التصريحات اللاَّزمة؟ لقد رسمتما إطارًا رائعًا للظروف النسائية في هذا البلد، كيف يمكنكما أن تقولا فجأةً إنَّ كلَّ إعاقة، وكلَّ شكٍّ مُشوِّه للسُّمعة سيكون وراءَ ظهورنا؟

- يؤسفني أن أقول إنَّ لا شيءَ وراء ظهورنا: نحن مدعواتٌ لنثبت كل كلمة قيلت دفاعًا عنَّا، وكوني متأكدةً أن لا أحدَ في مناصب القيادة سيعملُ على تسهيلِ مأموريتِنا.

- مَن سمحَ بهذه الحملة؟

نظرت المرأتان لبعضِهما للحظة.

- نظرًا لما قضيناه في الصِّراعات مع السفرغيت، لم نجد أن الطَّرْقَ على الباب الرئيس للحكومة ملائمًا. لن يفتح لنا أحدٌ.

- إذن، لجأتما إلى الشؤون الحربية.

- حاولت ذلك بالفعل الدكتورة إيلسي إنجليس. قيل لها: سيدتي العزيزة، اذهبي إلى المنزل واجلسي واستريحي!

- مَن إذن؟ من قَبِل بهذا؟

قَطَعَ صوت الرَّعد لحظة الإجابة، وكأنها دُعابة في مسرحية تراجيدية تُعرَض ليلًا. يا لها من دِقة، فكرت كيت، والضباب الأسود فوق رأسها، وداخلها أيضًا. والشكُّ يعمل كبرقٍ يغشي البصر.

كانت لويزا هي مَن أجاب:

- لقد أجابنا بحماس سفير فرنسا في لندن. سيكون مشفانا هو المستشفى الإنكليزيَّ الأول على أرضٍ فرنسية. منحتنا هيئة الصليب الأحمر في باريس أسبوعين لنُعدَّ أنفسنا: أَسِرَّة، أغطية، كلوروفورم، مؤن وأدوات جراحية. استطاعت رفيقات السفرغيت جمْع مبلغٍ أكثر من كافٍ لشراء كلِّ المطلوب، ألفا جنيهٍ إسترلينيٍّ. لن نكون رسميًّا جزءًا من الجيش، ولكنني أؤكد لك أن النظام سيكون نفسه، والمرتب سيكون جيدًا. إذن هل ترغبين في أن تكوني جزء من الدابليو إتش سي؟

- الدابليو إتش سي WHC ؟

- فيلق مستشفى النساء Woman's Hospital Corps. لا ينقصنا غير وجودك.

التصقت كيت بظهرِ المقعد. فرنسا. يريدون أن يعبروا البحر ليحطوا في ساحة معركة. هل يمكن ألاَّ ينتابهن أي خوف؟ ألا يرتعدن من مجرد الفكرة، كما ترتعد هي الآن؟

- إذن ما رأيك يا دكتورة هيل؟

تنفَّست كيت بعمق.

- كنتما حريصتينِ جدًّا ألا تذكرا اسمها، يا زميلتيَّ، ولكن أنا متأكدة أنكما تعرفان أن لي ابنةً صغيرة السن.

- ستربحين من أجل مستقبلها، والذي بالتأكيد سيكون أكثر كرامة من ذلك الذي لا يمكنك منحه لها وأنت تُرقِّعينَ العاهراتِ في ضواحي لندن.

قالت لويزا هذا دون حدة، وبلا أي نبرة إدانة ولا احتقار. كان ذلك واقع الأمر وتُدرك كيت هذا تمامًا، ولكن لم يغير هذا شيئًا في جوهر الوضع.

- لا يمكنني تركها. والإجابة لا بُدَّ أن تكون «لا».

عندما نطقت بالمقطع الأخير، شعرتْ بضيق من الصعب تحديده. كأنَّ نصلًا حادًّا غُرس عميقًا في روحها، أو ربَّما جُرحًا في رؤيتِها لنفسِها، ولابنتها التي لم يُسمح لها، قطُّ، بالحلم.

نهضتْ المرأتانِ في تناغمٍ تامٍّ.

حيَّتها فلورا بإشارة من رأسها وخرجت من الحُجرة. سمعتها كيت وهي تتبادل بعض كلمات مجاملة مع السيدة هاريس.

مدت لها لويزا يدها:

- يمكنك العثور علينا في رقم ٦٠ في بيدفورد غاردنز في الأيام القادمة. إذا لم تصلنا أخبارك، أتمنى على الأقل أن أراكِ في محطة فيكتوريا يوم الرحيل. سيكون معنا زيًّا مُعدًّا لكِ أيضًا.

شدَّتْ كيت على يدها:

- أشكركُما، ولكنني لن أستطيع.

نظرتْ إليها المرأة.

- أنتِ تتألمين بعضَ الشيء، يمكنني رؤية ذلك. وهذا يؤلمني. لم أخطئ، فأنت تحبين عملك. فكِّري في إمكانية العودة لممارسة المهنة في مستشفى شارع هارو. هناك احتياج كبير، الآن أكثر من أي وقت سابق.

اصطحبتهما كيت إلى المدخل، واستندت على حلق الباب، ونظرت إليهما وهما تختفيان داخل السيارة التي تنتظرهما. أدار السائق محرِّكَ السيارة وقاد ببطء على امتداد الشارع الضيق، ولكن لم تكد العجلات تدور بعضَ الدورات، حتى فُتح الباب ونزلت منه فلورا موراي، تغرس كعبيها في مياه المجاري. لم يرمش لها جفن، وصلت إلى كيت بخطوات عسكرية. بدأت بعض الأمطار الفاترة تهطل ولم تهتم الدكتورة بأن تبعدها عن وجهها، نظرت كيت بين قطرات المطر التي كانت تتساقط على رموشها الذهبية، وطرفُ ثوبها مشبعٌ بالمياه.

- هل الأمر يخيفنا؟ هذا ما أردتِ السؤال عنه منذ قليل، أليس كذلك؟ *بالتأكيد*. هل يتطلب الأمر تضحية؟

فَردت ذراعيها، واقتربت منها خطوة:

- منذ متى لم تُطلب منا نحن النساء التضحية؟ قُبض على لويزا عقب مظاهرات الميدان منذ عامين. قضت تقريبًا شهرين من الأشغال الشاقة في سجن هولواي. هل سبق وذهبت إلى هناك؟

- لا.

- لقد ذهبتُ إلى هناك، لعلاج ومواساة السيدات المُحتَجَزات، ورأيت حيوات مُمَزَّقة. إحداهن أطعموها بالقوة مئتين واثنين وثلاثين مرة. أنت تعرفين جيدًا ما يفعله هذا للرئتين. رأيت الجروحَ. رأيت الآثار التي خلَّفتها الأظافر. في النهاية أطلقوا سراحها، ولكن ليس قبل الاعتداء عليها، خدروها بالبروميد، واغتصبوها أكثر من مرة، فقط لأنها أرادت أن تحصل على اعتبارها كإنسانة ذات كرامة وحقوق مساوية للرجل. وما الذي يفعله الآن رئيس الوزراء؟ يقدم لنا العفو عن أولئك النساء في مقابل استعدادنا لعمل دعاية مُؤيِّدة للخطط التي قررتها الحكومة. اسألي نفسك إذا كان هذا هو المستقبل الذي تتمنيه لابنتك.

وهمَّت بالرحيل، ولكن شعرت كيت برغبة في أن توقفَها، وكأن حرية الرد الذي طالبتها به الأخرى تركها مضطربةً.

أمسكت حَلقِ الباب بيديها، في محاولةٍ منها لتستند على حافةٍ جديدة، أو لأن تتركها بالتدريج.

- إنك تعلنينَ حربًا يا دكتورة موراي!

التفتت فلورا، وعلى وجهها ابتسامة لم تُعجِب كيت.

- ولكن بالتأكيد يا عزيزتي. ألا تسمعين أصوات المدافع؟ إنها ترعد منذ أعوام. في الميادين، وعلى صفحات الجرائد التي يطلقون علينا فيها «مُصابات بالهيستريا»، من المستشفيات النفسية التي يستمرون في حبس أخواتنا الأكثر جسارة فيها. ألا تسمعين صرخاتهن؟ إنَّها صرخات الحرب، حرب الحقوق. لا بد أن يستمرَّ البعضُ منَّا في الحرب. إذا لم يكن علينا نحن -اليومَ، الآنَ- عمل هذا، سيكون على بناتنا، وعلى ابنتك آنَّا أيضًا، عمل ذلك غدًا.

٣

ساحة المعركة في مونس، بلجيكا، ٢٢ أغسطس ١٩١٤

تتسبَّبُ رياح الشمال في أن تصفق طبقات الخيمة الرسمية، تهبُّ على المعسكر وتعذب الجنود بذكرياتٍ وآمال؛ إذْ أحضرت معها رائحة ملح الشاطئ. تدفعهم للتفكير في رحلة بحرية قاموا بها، ولكن هذه المرة على نحوٍ مختلف، حيثُ أعادتْهم إلى التفكير في دوفر، وصخورِها، لم يودعوها وداعًا أخيرًا، ولكنهم على وعدٍ بعودةٍ لا أملَ فيها.

شعرَ بغضب شديد تتشابك فيه، أيضًا، أفكاره التي يحتاج إلى تجميعها. جعَّد ألكسندر الورقة التي كان يكتبها وألقى بها في المجمرة. تآكلتِ الحافاتُ ثم اندلعت النار فجأة واشتعلت بسرعة. كانت المحاولة الخامسة التي تحترق.

وفي المدخل أطلَّ أحد الجنود، كان صامويل كُنواي. وجهه النحيف مصبوغٌ باللون القاتم، ورقبته ويداه أيضًا. تُحدِّق عيناه الفاتحتان بعصبية. هو أيضًا جندي مشاة خبير، ويعرف ألكسندر قبل بداية القتال بفترة.

- لقد أُسرِجَ الحصانُ، سَيِّدي النَّقيب، نحن مستعدون.

نهض ألكسندر.

- سألحق بكم.

حدَّق لحظةً أخرى في الرسالة التي حاول، بلا جدوى، الإجابة عليها منذ ساعات، يتريث في تركيب الحروف والمعاني التي تُعذبه منذ أن وقع نظره عليها. في تلك الأسطر دعته خطيبته «بطلًا». وهو لقب يتطلب تضحيةً كبرى ليكون جديرًا به. فجميعُ الأبطالِ قضوا في ساحة المعركة. يقود ألكسندر معركةً لم تُطفأ كلها، وسرعان ما ستشتعل فيها النيران. تبدو الرؤى الرومانسية لكارولين، في ذلك المكان، تافهةً.

تستدعي الكلماتُ صورًا. لكنه لم يكن متأكدًا من أن المناظر التي تحيط به، والتي حاليًا تسكنه أيضًا، يسهل تخيُّلُها على مَن تحبه.

طوى الورقة، ووضعها في جيب المعطف، وأطفأ شعلة المصباح. وأطفأ أيضًا أي فكرة أخرى بينما يضع البندقية على ظهره ويخرج في الظلام.

كانت الجبهةُ الغربية فوَّهةً تفتح الأرض من بحر الشمال حتى جبال الألب. في الساعات الليلية تغلي مجدَّدًا. شق ألكسندر طريقه بين الجنود الذين يحفرون مدافنَ ومراحيضَ، ويراكمون المؤن والذخيرة، وهم يدفعون بعربات تحمل أكياسَ الرمل ولفائف الأسلاك الشَّائكة. يُؤدُّونَ، أثناء مروره، التحية العسكرية، أيديهم وملابسهم متسخة وعلى وجوههم آثار التعب الشديد.

يكمن افتراض رهيب في إيقاع العمل المتسارع هذا، فهم يستعدون للمكوث في هذا المكان.

انحنى ألكسندر ليلتقطَ من على الأرض صورةً كاد أن يدوسها، صورة يغطيها الوحل. صورة امرأة تحمل بين ذراعيها طفلًا رضيعًا

وتلتصق طفلةٌ أسنُّ منه بقليلٍ بتنورة أمِّها. لم يكن أيًّا منهم يبتسم. بدوا وكأنهم ينظرون إليه هو، وقد كانوا تعساء.

أعطاها بسرعة إلى صمويل:

- اعثر على صاحبها، لا بد وأنه يبحث عنها.

- بالتأكيد.

- تغيير الحراس؟

- انتهى. هل تريد الاستمرار؟ يمكننا أن نؤجل تسليم الخدمات الليلية إلى ما بعد الجولة الاستطلاعية.

لم يكن للتأجيل معنىً. ربما ينتظره الموت على بعد بضع خطوات من هنا، وكان بشعًا أن تكون هذه الفكرة أمرًا عاديًّا...

- لنستكمل.

تفتيش الفِرق يعني الغوص حتى الكاحلين في الوحل الذي تغذيه أمطار الصيف المتأخرة، والتأكد من أن أزرار السُّترات معقودةٌ حتى أسفل العنق، وأن الياقات نظيفةٌ والأحذية مُفرَّشَة، وأن تكون الأَسِرَّة مُرتبة وحقائبَ الظهر مُعدَّة، بينما العالم كلُّه يُدمَّر من حولنا. يشعر ألكسندر بالألم والغضب، عندما يدخل في الخنادق الرَّطبة، حيث كل شيء يوحي بالإنسانية الضائعة.

وصلتْ إلى الضباط مثله رسالةٌ من لندن. القيادة العليا البريطانية توصي ألا تكون أماكن إقامة الجنود مريحةً جدًّا. تريدُ وزارة الشُّؤونِ الحربية شهداءَ غاضبينَ، وغيورين.

لم تكن الأضواء الهمجية التي تُضاء ليلًا في خنادق الصفوف الأمامية مصدرها فقط مصابيح المعسكر. كانت الأنفاس التي تحترق من الغريزة الصرفة، لتنجو من خلال نسيان كل شيء اختبرتْهُ في حيوات سابقة، ذلك الجانب الآخر من النفس، الذي هدأ حتى هذه اللحظة، واستيقظ الآن ليشحذ أسنانه، ويسنُّ أظفاره، ويتعرف على زمجرة وحش إنساني آخر يسكن الحُفرَ المظلمة، ودويِّ انفجارٍ على وشك الوقوع. يشير إلى المكان الذي يُغرس فيه نصلُ الخنجر بطريقة أفضل، وهو المكان الذي فيه أحشاء شابٍّ مثله. نجا ألكسندر وآلاف الجنود مثله بسبب ذاكرةٍ بدائية.

حدَّق في حارس مراقبة، يقف على دَرج القصف، ومعدته ملتصقة بحامية الصدر. يعرف كل الرجال الذين يعملون تحت إمرتِهِ، ولكن لم يكن قد رأى تلك الهيئة من قبلُ. توقَّف بجوار الشَّاب. وبالقرب منه، بدا له الوجهُ الذي يبرز من تحت واقيةِ الخوذة وجهَ مراهقٍ.

- متى وصلتَ أيها الجنديُّ؟

أدَّى الصبي التحية العسكرية على الفور.

- هذه الظهيرة يا سيدي. من كاليه.

- ما اسمك؟

- أندرو غراي يا سيدي.

- كم عمرك يا أندرو؟

تردد الفتى فترة التقاط نفسه:

- تسعة عشر عامًا يا سيدي.

تفحَّصهُ ألكسندر. كانت رموشه طويلةً كرموش طفلٍ، وأنفه مرتفعًا، ربما يشبه أنفَ أمِّه، إذ لا يمكنه تخيله إلاَّ على وجه امرأةٍ، أو طفلٍ، أنف رقيق للغاية.

أمسك بذراعه، وتجاهل فزعه. كان مثل الإمساك بعظمة. عبارة عن مرفقين وركبتين، يبدو أندرو كفتىً مراهق. علَّمه الوضعَ الصحيحَ الذي عليه أن يحتفظ به، ذلك الذي يُمَكِّنه من أن يشعرَ بجسده حتى بعد ثلاث ساعاتٍ.

- اطلب الشاي الساخن بالسكر كلَّ ساعة. من حقك.

- نعم يا سيدي.

تركه ألكسندر خلفه، ولكنه نادى صمويل بجواره.

- ضعْ عينك عليه، غدًا، عندما تحين اللَّحظة.

انتهيا من التفتيش، ولكن لم يعودا إلى خيام الضباط.

ثمَّة رجلان ينتظرانهما على حصانين في الخلف. أوليفر جونز وسيسيل نيلسون، أفضل قناصيْن لدى ألكسندر، الأول يضع سيجارةً بين شفتيه واثنتين خلف أذنيه، والثاني شعره أحمر وجسده ممتلئ جدًّا حدَّ أنه فقد أزرارَ سُترته العسكرية أكثرَ من مرة. قيلَ إنه من رابع المستحيلات، تقريبًا، العثور على واحدة بمقاسه في كلِّ الكومنولث.

صعد ألكسندر على ظهر جواد أسودَ بلونِ القار، استعاره من سلاح الفرسان، وقاد حملة الاستطلاع حتى القناة التي تعبر مونس. كانت إحدى الضفَّتينِ تحت سيطرة الجيشِ الملكيِّ، والأُخرى بدتْ مهجورةً، ولكنَّ وحداتِ النَّسر الألماني قد استولتْ عليها مؤخَّرًا، وكستها ظِلًّا.

فجرًا، وعلى بُعد أميالٍ قليلة من هناك، هَزمت قوات الإمبراطورية الألمانية الجيشَ الخامسَ الفرنسيَّ، بقيادة الجنرال لانريزاك، في معركة شارلروا.

قائد الوحدة لم يدُر كثيرًا حول الكلمات عندما أطْلَع ألكسندر على خطة اليوم التالي:

- لمْ يبقَ أمام لانريزاك سِوى أن يطلبَ منا الوصول إلى قناة مونس- كونديه ونمكث في الموقع. لا بد أن نقاوم لمدة أربع وعشرين ساعة، الوقت الكافي لنسمح للجانب الفرنسي بأن ينسحب حتى سان فاست. لا بد أن نقاوم فقط.

كرر ذلك، وفي المرة الثانية التي كرر فيها ذلك، كانت نظرته مثبتة على خرائط الحرب فوق الطاولة -التي كانت مكتب معلِّم في مدرسةٍ حُطمت نوافذُها- تلك النظرة المحدِّقة بشدة، وغير القادرة على تحديد ما تشيرُ إليه، الغارقة بالأفكار في عالم داخلي تعم فيه الفوضى.

من سان- فآست، إذا أراد لنا الرَّبُ، سوف يُعاد تشكيل حملة فرنسية لتحاول إيقاف التقدم البحري للعدو من جديد. إذا وصل جيش القيصر إلى الساحل، ستصبح بريطانيا العظمى هدفًا سهلًا للغاية.

- ماذا عنا؟ ماذا سيحدث لنا بعد أن نقاوم؟

أراد ألكسندر أن يسأله. لم تكن هناك إجابة مباشرة. لمعرفة الرد لا بد من النجاة لمدة أربعٍ وعشرين ساعة، زمن لا نهائي يقضونه بتلك القلة العددية. قبلها بساعة أرسلت لهم القيادة المركزية التحديثات التكتيكية الأخيرة. تُقدَّر كثافة جنود الأعداء بحوالي ثماني عشرة ألفَ

وحدةٍ لكلِّ ألف ميل. ثمانية عشر ألفًا. اضطر ألكسندر لإعادة القراءة ليتأكد أنه لم يخطئ. لا يتعدى عدد الإنكليز في كل أنحاء فرنسا وبلجيكا ثمانين ألفًا. الفرنسيون موجودون بأعداد أكبر، ولكنَّ معظمَهم غيرُ متمرِّسين.

نخسَ الحصان ليصعد إلى الهضبة المطلة على القناة، من النقطة التي يشكل الخليج عندها مطْلعًا. سيكون من الصعب جدًّا الدفاع عن ساحة معركةٍ تمتدُّ في المناطق التي يسيطر عليها العدو. الأمر يقلقه، ولكنه يتوجس خيفة أكثر من الجسور الأربعة التي تمر فوق مجرى المياه في منطقة النتوء. وتلك الأشجار، أشجار الصنوبر التي تخفي عن الأنظار جزءًا من الشَّاطئ المقابل، توتِّرُه أكثر من أي شيءٍ. كان عليهم قطعها، ولكنَّ شيئًا ما يخبره أنْ لا وقتَ لديه.

لحقَا به صمويل وأوليفر. يتفحَّصُ صمويل الظَّلامَ، مرفقاه على السَّرْج ويداه معقودتان. يبدو وكأن لديه كل الوقت المتاح في العالم، وكل الهدوء أيضًا. أطفأ أوليفر السيجارة، ووضعها خلف أذنه، فوق الأخرى، لتكون في متناول يده بمجرد أن يعودوا إلى منطقة آمنة ولا يتسبب أي ضوء خافت في إرسال إشارةٍ ما. كان يمسك باللجام بقوة، مستعدًّا للهروب أو للمطاردة. مات أخوه أمس أثناء دورية بالدراجة. عندما تلقَّى الخبر، أشعل أوليفر سيجارتين، واحدة له والأخرى لروح هاري. هكذا قال. لم يذرف دمعةً، ولم يطلق أي لعنة غاضبة، ولكن ألكسندر رأى يده ترتعش وهو يشعلُ عودَ الثقاب، المرة الأولى والوحيدة، منذ أن عرفه، قبل ثلاثة أعوام.

نظر صمويل بتعبٍ إلى الساعة. كانت الثانية بعد منتصف الليل تقريبًا.

- نحن هنا. لا بد أن سيسيل ضلَّ طريقه كالعادة. لديه حسٌّ اتجاهات سيءٌ للغاية.

من الجهة اليمنى، أسفلهم، حيث الضفة، تألَّقَ وميض يُغشي البصر أضاءَ الليل وارتفعت كرة من النيران في الهواء مكوِّنةً قوسًا تامًّا لترسو على الضفة المقابلة. أنارت الإشارة المضيئة مساحةً كبيرة من الأرض. لم يتحرك ظلٌّ واحدٌ تحت ذلك الضوء المفاجئ وبدا بالفعل أن العدو بعيدٌ.

بعدها ببضع دقائق، لمعتْ ومضة أخرى، وجاءت هذه المرة من الجهة اليسرى، ومن جديد سقطت دون أن تضيء وجودَ آخرينَ سوى تلك المباني المهجورة وحجارة الجسور.

بركلة من كعبه، اقترب صمويل بحصانه من حصان ألكسندر.

- ما رأيك سَيِّدي النَّقيب؟

لم يكن الصدق جزءًا من المهارات القليلة أو الضرورية لأي قائد، وخاصة في ليلة معركة تُعلن مسبقًا بأنها خاسرةٌ، ولكن لم يكن صمويل وأوليفر بالنسبة إليه مجرد ضابطيْن تابعيْن لوحدته.

ربت ألكسندر على رقبة الحصان، مثلما كان يفعل مع الأفكار المتوحشة التي توتره.

- يعتقدون أنهم خبثاء. إنهم هناك في مكان ما.

بصق أوليفر على الأرض.

- قال أحدهم إنه سمعهم يغنون، قبل بدء المعركة *Deutshalnd uber alles*. لا يعرفون أن يرددوا أي شيء سوى نشيدهم الاستبدادي الملعون.

ترك ألكسندر نظرته لتتوه في الظلام، وكأنه يرغب في القبض على الصورة الموجودة في ذهنه. ألمانيا فوق كل شيء. في تلك الأيام، في تلك الأراضي، يوجد شعبٌ يتقدم وهو يدوس الجثث، جثث أبنائه وأبناء آخرين بائسين.

كان ألكسندر قد سمع القصص التي تصف أبيات الأناشيد التي يغنيها الألمان قبل رعود المدافع، والتي تعلن أزيز القذائف والقصف. فِرَق من الصبية بلا خبرة، أموات بالفعل وهم لا يعلمون. قصص تصل من أراضي المعارك الأخرى، ولكنها تقبع مثل أشباحٍ أيضًا في مزاج رجاله.

وصل سيسيل إلى الهضبة، يبدو ضخمًا حتى بالنسبة للحصان. توقف الحيوان لاهثًا.

- إذن، كيف كان أدائي؟

أشار صمويل للشعلتين. بدأتا تنطفئان في ومضات متشككة.

- لم تكن أفضل رمياتك.

ارتفع سيسيل على عنق الحصان وأغمض عينيه. كان عضوًا في فريق الرغبي القومي لويلز، وركل لتوه الشعلات المربوطة بآخر كرتين لدى القوات المُعسكرة في مونس.

- هل تمزح؟ إنها من أفضل تصويباتي.

بصق أوليفر من جديد وغرس كعبيه في جانبيْ الحصان ليكمل دورةَ التفتيش.

- ليستْ قريبةً منها حتَّى! أنت مَدين لي بسيجارة.

نخس صمويل أيضًا الحصانَ، ولكنه أوضح شيئًا ما قبلها:

- غدًا ستذهب بمفردك لتستعيدهما.

سمع ألكسندر سيسيل يجيب، وأحد الحصانيْن يئن بصوت منخفض، ولكن لم يحرك حصانه ولم يتبعهم. استمر في قياس الليل بحواسه. لم يكن الخوف هو ما عزَّزها، بل هي المسؤولية التي يشعر بها نحو تلك الحيوات التي لا بد وأن يحفزها على المعركة بعد قليل.

هناكَ شخص ما من الجهة الأخرى. ليس على بُعد بضعة أميال شمالًا ولا على الطريق المؤدي إلى مونس من شارلروا. بل *هناك*، على بُعد خطوات منهم، ربما بين تلك الأشجار التي كان لا بد من قطعها، يوجد شخص ما، يقف هناك باحثًا في الظلام، مثلما يفعل ألكسندر فاحصًا متاهاتِ الشاطئ. أو ربما -إذا نظر جيدًا- لن يجد سواه، فاحصًا ما بداخله، يُساءل نفسه أمام ظلِّه. كم من الرجال قتلَ بالفعل، وكم من آخرين سيضطر لقتلهم ليظلَّ حيًّا. كم من الحيوات لا بد أن يحصدها ليدْعونَهُ بطلًا، وليشعر بأنه ملعون.

سؤال واحد عثر له على إجابةٍ فورية.

واحدة. حياة واحدة تكفي عملية قتل واحدة تكفي لتلوِّثَ النَّفسَ.

كان يعبر أرضًا تُلطخ، تدخل في الخياشيم، تترسب أسفل الأظافر، سوداء أكثر من تلك الإنكليزية، أو ربما ملعونة فحسب. الأسود هو

لون دم الميت، ذلك اللون الذي يظهر في اليوم التالي، باردًا وقاتمًا، اللونُ الذي يكشفه الفجرُ على الأراضي المغطاة بالجُثث.

أخذ ألكسندر يعبث بثقبٍ في سُترته، عندَ رسغه الأيسر. في صباح يومِهِ الأول للحرب، وبينما يصوب ليطلق النار، مزقت رصاصة ألمانية القماش ولم تمس جسدَهُ.

لو لم يسعفه الحظ يومذاك لاخترقتِ الرَّصاصةُ جسدَهُ، ولدُفِن بجوارِ مئات القلوب الأخرى، أو لَتُرِك في العراء طوال الليل، ولَمَا انتشله أحدٌ من تلك البقعة، من السهل، تلك التي يتصاعد منها الدخان ولم تعد تنتمي لأحد.

لا وجود للزِّي الأسطوري للبطل الذي تحلم به كارولين، مجرد قطعة من القماش، أشرطة وأزرار موضوعة داخل صندوق. ينتظر مسيرات احتفالية ومناسبات رسمية ربما لن تأتي أبدًا، أو لن تكون لها أي أهمية بالنسبة إليه. لا يزال زمن الأبطال بعيدًا. يلمعُ فقط بعد قرونٍ، ما يوجد حاليًا مجردُ ضباب، أوساخٌ ورائحةٌ عطنة.

- سَيِّدي النَّقيب؟

كان صمويل ينتظره. تردد ألكسندر بضعَ ثوانٍ أخرى. كان يريد أن يترك علامة على وجوده الصامت في الظلام، بطريقةٍ تصل بها رسالته واضحة إلى نظيره، المتصنِّت، على الجانب الآخر، بصمة مقاومة لن تستسلم قبل الأوان. ثم شدَّ اللجامَ وعاد إلى رجالهِ.

٤

لندن

على الرغم من الساعة المتأخرة، فإنَّ نوافذَ ورشة جوزيف وويليلمينا مور لا تزال مُضاءةً. من خلال الستائر، يبدو ظِلُّ النجار قُبالةَ الضوءِ متحركًا إلى الأمام وإلى الخلف، وذراعاهُ مشدودتينِ، وجسدُه منكبًّا. ومن خلال ظلِّه لم يكن من الصعب رؤية المقشطة التي يقبضُ عليها بيديْه اللَّتينِ لا تزالانِ قويتينِ.

ترجَّلت كيت عن دراجتها وطرقت على الباب، ثلاث طرقات سريعة.

فتحت لها ويليلمينا. التنورة الطويلة بها رُقَع أكثر من الغُرز، ولكن الحائكةَ كانتْ بارعةً بالفعل، ودقيقةً، إذْ أخفتها كلها بتطريزٍ أنيق. مع كل حركة لجانبيها يسحب النسيج البرادة الهاربة من المكنسة، ويعلقُ بعضه بها. سيعثرون عليه في اليوم التالي، أو اليوم الذي يليه في إحدى زوايا المنزل الخفية، حيث تفوح رائحة الخشب من كل ركن فيه، رائحة الجزء الداخليِّ الأملس.

- بحق السماء يا كيت، قلقنا عليكِ.

تَنَحَّت جانبًا لتترك لها الطريق كي تَعبُرَ هي والدراجة.

- أمرٌ طارئ.

وضعت المرأة يدها على حنجرتها.

- هل تحرش بك أحد؟

- لا شيءَ من هذا القبيل.

- لا بد أن تتوقفي عن قبول ذلك النوع من الطلبات. خاصةً في وايتشابل. إنْ عاجلًا أم آجلًا سيعترض أحدُهم طريقَك، ولن يكون لقاءً محبَّبًا.

اعترض أحدهم بالفعل طريق كيت، حتى وإن لم يكن بالطريقة التي تخيلتها ويليلمينا.

- يا زوجتي العزيزة، لا تحاصريها بمخاوفك. إنَّها مُتعَبة.

وضع جوزيف المقشطة على طاولة العمل، واقتربَ بخطواتٍ صغيرة من كيت التي تعلمت التعرُّفَ على الليالي التي لا ينجحُ فيها كلاهما بالنوم، مصدرينَ تكات كعقارب الساعة على الأرضية. بالنسبة إليهِ، فقد كان الزمن يعذِّبه، أرقُ التَّقدمِ في السنِّ، واحتياج مَن لا يريدُ تضييعَ إغماضةِ عينٍ ممَّا تبقَّى له من الأيام. أمَّا هي، فتطاردها فكرة اتخذت منحنىً غيرَ متوقَّع نحو المجهول.

- بمخاوفي يا جوزيف؟ بل بالتعقل. أرى ضرورة توقف كيت عن ذلك. النقود التي تكسبها لا تستحق هذه المخاطرة.

- جميعُنا يعرف ذلك يا مينا، جميعنا يعرف ذلك.

غمزَ الرجل بعينه لكيت، أخذ الدراجة برشاقةٍ أنهكتْها الأيام، وعلَّقها على خطاف مُثبَّت في الجدار.

أخذت مينا الحقيبة من على كتفها، وساروا معًا بطوال الردهة التي تصل بين الورشة والسكن الخاص. وضعتها على المُتَكأ حيث تخزن قطعَ القماش، ذخيرتُها الوحيدة. أضاءوا نورَ المطبخ حيث ثلاثةُ صحون من الفخَّار في انتظارهم على حصيرة من الكريتون الأزرق. أمسكت مينا بإبريق الشاي وتحسست الجزء المنتفخ بكفيْها.

- ما زال فاترًا. أفضلُ من لا شيء.

غسلتْ كيت يديْها في الحوض المُلحق بالمطبخ، دعكتها بالصابون والليفة الخشنة صاعدة إلى المرفق ومنظفة أسفل أظافرها. كانت نظيفةً، إلا أنَّها لم تستطعْ أن تتوقف. فهي تعود إلى المنزل، وتظل النساء اللاتي ساعدتهن في دماغها، يلتهمنَهُ ببطءٍ.

هل ستكون الحرب أيضًا بهذه الطريقة؟ تخيطُ الجنود وتعيدهم مرةً أخرى على أقدامهم، ما يعني فقدانهم على الجبهة التي ألقت إليها بهم لتوها محطَّمين على أراضٍ بلا صاحب. تتحدث الصحف عن أسلحة جديدة، عن جروح لم يرها أحدٌ من قبلُ في تاريخ الإنسانية.

أخذتْ تدعك بقوة أكبر، عندما أدركت أنها بتفكيرها هذا كأنها قررت فعلًا، إلا أنها لا يمكنها أن تقرر. فأيادي النساء دائمًا ما تكون مُقيَّدةً، حتى عندما لا تُرى تلك الأربطة. كانت أربطة الحب، والواجب، التقاليد والاحتياج.

جعلها جوزيف تلتفت:

- ستدمرين يديك الثمينتينِ للغاية.

وضعهما في منشفة نظيفة وجففهما. يفهم كل منهما الآخر بمجرد نظرة. حتى في تلك اللحظة بدا وكأن جوزيف يتحدث معها عن شيءٍ آخر، وهو يقدم لها عبر الصَّمت إجابةً على سؤال لا تقوى هي على طرحه حتى على نفسها.

أخذت كيت المظروفَ من جيب ردائها وأعطته إياه. كانت النقود التي أعطتها لها السيدة هاريس مقابل خدمتها دُسَّتْ في حياءِ المظروفِ ناصع البياض. مبلغ لا يمكن وصفهُ بالسَّخيِّ، ولكنه كافٍ ويسمحُ لها ولابنتها ولمينا وجوزيف بأن يقاوموا لفترةٍ أخرى؛ دون أن يضطرُّوا لتسول البطاطس والحليب من الجيران. سيوفر لهم أيامًا من الهدنة.

دفعتها ويليلمينا نحو المقعد، وسكبتْ لها فنجانًا من الشَّاي. كشف شحوب السائل عن الشح الناتج عن الحاجة. فهم لا يستطيعون أن يسمحوا لأنفسهم بالسكَّر. فالحرب لا تزال في بدايتها.

- عُرض عليَّ عملٌ.

أدركت كيت أنها قالت هذا فقط عندما اختتم صوتها الكلمة الأخيرة.

جلس جوزيف أمامها. لم يلمس الفنجان.

- يبدو أنك لا تعتبرينه شيئًا جيدًا من الطريقة التي قلتِ بها الخبر.

- ليس في لندن.

- في ساري؟

- لا.

- لا تقولي لي في كنت. لديَّ بعض الأقارب هناك.

- لا يا جوزيف.

ويليلمينا أيضًا قررت أن تجلس، فقد أدركت أن الأمر مهم.

- إذًا في إسكتلندا...

- فرنسا.

كانت كمن أطلقَ قذيفةً من مدفع.

ضَعُف صوتُ مينا:

- ولكن توجد حربٌ في فرنسا. هذه هي الحقيقية، وليست مجرد تلك المكتوبة على صفحات الجرائد.

أخفت كيت الاضطراب فيها وراء حافة الفنجان. لم يكن للمشروب مذاق، شيء يشبه الماء المغلي. وضعته مكانه وأخذت تنظر إلى مقبضه المشطوف.

- في الواقع هم يحتاجون لأطباء هناك يا مينا. ولكن الأمر يتعلق فقط ببضعة أسابيع. ستة كأقصى تقدير.

- ولكنك تساعدين على إنجاب الأطفال، وتعالجين النساء.

قالتها وكأنها تسد مجرى نهر ما: تزرع كلمات لتحتويه، لتقبض على ما يمكنه الإفلات منها، وتملأ مساحات لا تملكها. شعرتْ كيت بالمجرى يتضخم، وبالأمواج تتلاطم حتى تصعد لحنجرتها، وتفيضَ.

- أنا طبيبٌ جرَّاحٌ!

رأت الاضطراب يحلُّ محلَّ الخوف على وجهيْهما. بدا وكأنهما يُدركان هذا الآنَ فقط، في تلك اللحظة. في الواقع، كان الاعتياد هو ما يشوِّهُ قيمةَ التَّصرفاتِ والأشياءِ، والأشخاص أيضًا. تسلقت الموجة التي شعرت بها ترفعها إلى حيث لم تتوقع أن تصل قبلَ لحظةٍ مضت.

- لن أكون بمفردي. نحن نساء حصلن على المؤهل. أقسمنا بأن نعتني بالحياة الإنسانية، وأن نضعها في صدارة أي حسابات أخرى. تنقصُنا الممارسة، في بعض التخصُّصات، ولكن سنحصلُ عليها، سنفعل. وليس ثمَّةَ أفضل من اللحظة الحالية لتُمنح لنا.

جَحَظَت عينا ويليلمينا:

- تُمنح ممَّن؟

- من العداوات. في لحظة الاحتياج يمكن للنساء التقدم.

نهضت ويليلمينا على قدميها، متوترةً.

- ألاَ يمكن أن ترضي بما لديك بالفعل؟ ليست أوقاتًا مضمونة.

نهضتْ كيت أيضًا.

- أرضى؟ يمكنني بالتأكيد، ولكن من أجل مَن؟ من أجل نفسي أم من أجل ابنتي؟ بأي حقٍّ يجب أن أقول لها إنَّ مستقبلها سيكون مُقيَّدًا لأنَّ أمها لم تكن لديها الشجاعة لتكافح؟

- تكافح؟ أنت تريدين الذهاب إلى الحرب!

تذكَّرت كيت كلمات فلورا.

- أجل إنها حرب في سبيل الحقوق.

- إنها حربٌ، بها قنابل!

- على بعضنا القتال أيضًا.

- وماذا عن آنَّا؟ فعمرها خمسة أعوام فقط.

كان يكفي ذكر ذلك الاسم لتنسحب الموجة، وأفرغَ التيار الرجعي كيت من كلِّ حماس.

تركت نفسها تسقط على المقعد.

- لا أعرفُ، لماذا قلت لكما هذا. أنا... بطبيعة الحال لن أترك آنَّا.

أغلقتْ عينيها للحظة، ووضعت يدها لتسندَ جبهتها.

- لا أعلم لماذا قلته لكما.

رن فنجانٌ على الصحن الصغير. كان جوزيف يرتشف الشاي، ويبتسم. نظرته قلقة، ولكنه يبتسم.

- ربما لأنك تشعرين أنه يجب عليك الذهاب.

اعترضت ويليلمينا، ولكنه طلب منها أن تجلس. ووضع جوزيف الفنجان، وعقد أصابعه على الطاولة.

- إذا جلست مع ابنتك يا كيت، أو عهدتِ بها لآخرين لتتبعي المستقبل الذي ترينه لكليكما، سيكون دائمًا هناك مَن لا يفهم، ومَن سيقول إنك ترتكبين خطأً. أحيانًا القرار المتعلق بحياة كاملة لا يُختصر في مع مَن يجب الذهاب، أو لماذا يجب عمل هذا، ولكن في من سنتركه. أنت تظنين أنك بلا عائلة، ولكننا عائلتك. آنَّا ستكون في أيدٍ أمينة.

نظرت كيت إلى ويليلمينا. كانت عيناها تلمعان.

- أريد فقط أن أحميك يا عزيزتي كيت.

سترغب هي أيضًا في عمل هذا. شعرت كيت بقلبها يدق بعنف، وأنفاسها توسع حنجرتها، ثم تخنقها حتَّى تقطعَ نَفَسَها.

هل قررت؟ حقًّا؟ تخرج الكلمات منها في همسٍ، ولكن تبدو حاسمة:

- لا يمكننا دائمًا أن نحمي أنفسنا من الحياة.

تنام آنَّا على السَّرير الذي تتقاسمانه. أصبحت تنام معظم الوقت دون كيت، إلاَّ أنها حتى بضعة أسابيع مضت كانت بحاجة لضربات قلب أمها لتستسلم بسلامٍ للنعاس. تعلَّمت فضيلة أن تفعل ما هو ضروري، كبُرت.

تمددت كيت بجوارها ومررت إصبعها على جانب وجهِها. ورثت آنَّا ملامحها ولونَ بشرةِ أبيها الفاتح، وقُدِّر لها أن تعيش حياةً مشرَّدةً.

استكانت بين يديها. شعرت بأنفاسها على صدرها المنفعل، لدى آنَّا القدرة على تهدئة الشيطان الذي يسكنُها.

لم تكن كيت تعلم ما الذي يجب عليها بعد أن تحميها من العالم الخارجي. كانت تشعر بالصعوبات تنمو حولها وكأنَّها عشب سام، تحيط بها دائمًا على أعتاب تلك المدينة.

الآن قال لها أحدهم إنها لكي تمنحها إمكانات أفضل عليها تركها، ولن يعودَ أي شيء مثل السابق، لأنَّ الشكَّ الذي بُذرَ قد تجذَّرَ بالفعل.

عاد مشهدُ العاهرة مع ابنها الصغير ليعذِّبَها. تعرَّفت فيه على الصبية

التي يمكن لآنَّا أن تتحول إليها في أسوأ الظروف، ولكنه ليس أمرًا مستبعَدًا تمامًا.

على كيت أن تحميها، لن يحملَ آخرُ مسؤولية إنقاذ ابنتها.

وضعت ذراعها على خصرها ونظرت إلى يديها. هل يمكنهما بالفعل انتزاع إنسان من براثن الموت بالقوة نفسها التي يملكها ذَكَر؟ وهل ستتمكن من أن تحفظ قلبها في أمان، وأن تعيده سليمًا لتلك الطفلة التي تنتظرها، دون أن يقسو يومًا بعد آخرَ ليظل على قيد الحياة؟

كانت جدتها الإيطالية تقول لها: يدا المرأة مثل يديْ الرب. يدان قادرتان على سد الجوع من لا شيء، وعلى إشباع الاحتياج، والدفاع بلا سلاح. يدان قادرتان على رفع العالم إذا لزمَ الأمرُ.

يدان ترتجفان فقط بجوار ابنتها، ثابتتان أثناء أي عملية وضع، عند خياطة جرح، وأثناء أي عملية جراحية.

لستِ خارقة، ذكَّرتْ نفسَها.

رفعت قميص نومها وكشفت عن الألم الذي يتصاعد من مفصلها ويصل حتى فخذها. تتراوح ألوان الكدمة بين الأزرق والبنفسجي، حتى الأخضر المائل إلى الأصفر. سحبها المعتدي وهو ينعتها بـ«الإيطالية الحقيرة». إن مسقط رأس كيت يبتاع الوقت ليقرر الجانب الذي يرغب بالانضمام إليه في الحرب، ومن يكشف بأنه ينحدرُ من هناك سيتحمَّلُ عواقبَ هذا.

لم تشعر بنفسها وحيدةً وهشَّةً، قطُّ، مثلما شعرت في تلك اللحظات البشعة.

رفعت فجأة نظرها إلى المكتب. على الضوء الهلالي القادم من المصباح، كان سطح المكتب مكتظًّا بالخطابات. خطابات كتبت مسوَّداتها، وخطابات انتهت من كتابتها، ولم ترسلها قطُّ. تلك التي عادت إلى مُرسِلها دون أن تُفتح، تحتفظُ بها داخل علبة من الصفيح، معقودة معًا في شريط أسودَ، لتُذكِّر نفسها بجزءٍ مات من حياتها، مع الأحلام والوعود التي حركت قلبها. كانت تحذيرًا لكيلا تثابر، ولكنها لا تفيد كثيرًا. استمرت كيت في ملء الأوراق بكلمات تجد باستمرار صعوبةً في العثور عليها. كل منها تحتوي على اسم يبدو بأنه لا يرغب في أن يُستدعى، ولا أنْ يُجذبَ إلى الخلف، أو لعلَّه ينتمي الآنَ إلى عالم الأشباح. فيليب.

أرادتْ أن تكون لديها القوة لتلعنه، ذلك الاسم، إلاَّ أنها ما زالت تهمسُ به في بعض الليالي.

بعض الليالي، وليس الليلة.

مدَّت يدها نحو المصباح، يلمع خاتم الزواج في إصبعها. حدَّقت فيه كيت ثم أسدلت الظلام على الذكريات وعلى الغضب.

٥

مستنقعات جوند، فرنسا، ٦ سبتمبر ١٩١٤

«أمل»، كلمة خطَّتها يدٌ مجهولة على جانب العربة. الصَّلاة الأخيرة لمتشكك، وبالتأكيد ليست الشعور العام. عملية السَّحب التي يقومُ بها اثنا عشر حصانًا بدت وكأنها تجر نعشًا يمكن أن يكون مُخصَّصًا لكل الرجال الذين ينفخون ويدفعون لتحريرها من الوحل. إلاَّ أن العربة كانت تحمل مدفعًا للقنابل المضادة للطائرات إلى ساحة القتال، وزنه عشرة آلاف رطلٍ من الصلب والحديد.

كان فجرًا مُظلمًا، تخيله ألكسندر مماثلًا لقتامة تلك الظهيرة التي صُلب فيها المسيح. ترسم السُّحب أعينًا سُودًا، لإله يطل على طريق الآلام. يسائلها ألكسندر، ولكنها لم تمنحه إجابة بعدُ حول الجنون الإنساني.

تخرج العربة من الأمام، وهي تنفث مياهًا ملوَّثةً. أصبح تعفن المياه مثل أنفاس الكثيرين، ولم يعد يسبب الضِّيق.

تترك بعض الفِرَق الفرنسية المعسكر متجهة نحو الغرب، لتذهب وتُدَعِّم القوات حول باريس من خلال تكوين خط دفاع ثانٍ ومحاولة المستحيل. في رسالته المسائية، أمرهم قائدهم بأن يحافظوا بكل قواهم

على المواقع المُكتَسَبة، وأن يموتوا عِوضًا عن الاستسلام. كتب هذا بينما كانوا لا يزالون يجمعون المصابين وجثث المعركة الأولى التي صبغت مياه المارن بالأحمر.

كان ألكسندر قد سمع بالفعل تلك الكلمات- الموت عوضًا عن الاستسلام- بل وردَّدها أيضًا. كانت تَعْبُر خطَّ القيادة من عميد إلى لواء ومن فريق إلى قائد وهكذا كانوا يأخذون القوة من تلك الصيحة عندما يصلون إلى الرُّقباء والعرفاء وصولًا إلى الجنود، قبل الصفارة التي تُلقي بهم في المعركة. فتية مسلَّحون بالبنادق أمام مدافع رشاشة تطلِق ستمئة طلقة في الدقيقة.

مرَّر له صمويل نصف سيجارة، اقتسماها في صمت، حتى سحب الملازم النَّفَس الأخير وألقى بعقبها في بئر.

- ما رأيك سَيِّدي النَّقيب؟ فهم ينقلون العديد من الرجال والمدافع.

لم يكن الصديق يسأله إذا كانوا سينجون، أو إلى متى، ولكن إذا كان الأموات الفرنسيين والإنكليز سيكونون كافين لوقف التقدم الألماني. سأله ذلك كصديق، لأنه لا يستطيع طرح هذا السؤال كضابط. وهو، كصديق أراد تأخير الهجوم المُتوقَّع بعد قليلٍ قدْرَ المُستطاع، وأنْ يقول له بألاَّ يخاطرَ، وأن يختار الجانبيْن للتقدم وألاَّ يتقدَّمَ من الوسط، لأنَّ الفريتس يُسقطون قنابلهم هناك. ولكنه لم يستطع.

أجابه: سنقاوم، مثلما فعلنا في مونس.

ضحك صمويل: كما فعلنا في مونس؟ لقد نجونا بمعجزةٍ بعد مونس.

بل إنَّ أحدهم بدأ بالتحدث أيضًا عن التدخل الإلهي. استطاعوا الاحتفاظ بموقعهم ليس فقط للأربع والعشرين ساعةً المطلوبة، وإنَّما لاثنتيْ عشرة ساعةً إضافيةً. وكلفهم هذا الجهد هوس الدماء الأخوية، حيث كانوا يسيرون فوق الجثث. وفي النهاية وصلت الرسالة بما فيها ما نجم عن المعركة: أكثر قليلًا من أربعة آلاف جندي إنكليزي صدُّوا واحدًا وعشرين ألفَ جنديٍّ ألمانيٍّ. لم يكن للموتى مكان في الحسبان، لأنه لم يتوقف أي من الضباط بعدُ ليدوِّن كلمات «فُقد» أو «قُتل»، بجوار الأسماء التي لم تستجب لنداء إحصاء الحضور. لم يفعل ذلك سوى ألكسندر. وكانت كلُّ لحظة تَعْقُب الصمت الذي يتبع الاسم المنادَى عليهِ، بصوتٍ مرتفع، مثل طعنةٍ في صدره.

سأله صمويل: هل رأيت تلك الومضات؟

كان يشير إلى الصواعق الزُّرق التي يُقال إنها حمتهم أثناء الانسحاب، وسحقت قوى الأعداء حتى جعلت من المستحيل عليهم أن ينطلقوا في مطاردةٍ سريعة.

نظر ألكسندر مرة أخرى نحوَ السماء، التي لا ينزل منها العون، فقط الأمطار.

- الومضات الوحيدة التي رأيتها هي شعلات الإضاءة، ولعنْتُها في كلِّ مرة.

كانت تضيء ساحةً من الجثث الممزَّقة، من الحيوانات المهووسة والرجال اليائسينَ. أجل تلك التي كانت تسقط من السماء مثل الملائكة المشتعلة، ببطء.

- وأنت، هل رأيتها؟

- لم أكن أفكر سوى في الرحيل. أن أطلق النار، أجمعَ ما أستطيع جمعه، وأرحلَ بعيدًا.

وبيدهم التي لا تزال مُلطَّخة بدماء رفاقهم، أشعلوا سيجارةً أخرى، قبل أن يهدوا ما تبقَّى معهم للفرنسيين الراحلين. يشير الرجال السائرون إليهم بالتحية، ومن حين لآخر بعبارةٍ لا يفهمونها، ولكن كان يجيب عليها صمويل بترحابٍ، من المؤكَّد كانت أمنيات بالتوفيق.

كانا ينظران إليهم وهم يسيرون في الاتجاه المعاكس لخط الجبهة الذي خطوه للتو.

وصلت قوات المشاة البريطانية قبلها بأيام قليلة من قرية فراموري، وانضمت لقوات الجيش الفرنسي وتمركزت عندَ المارن. حتى تلك اللحظة كان طولُ الانسحابِ من مونس مئتي ميلٍ، استمرَّ لمدة أسبوعين، ويُقدَّرُ له الاستمرار بعد المعركة الوشيكة.

أتى مُلازمٌ يستدعيه حيث حانت ساعة الاستعداد. فكر: جاء دورنا لنذهب ونجرب حظنا مع الموت. ساروا في الطرق الخلفية ووصلوا إلى الخنادق في الصفوف الأمامية. كانت مناطقُ متفرقةً، ولكن متجاورة لصدِّ أيِّ محاولة هجومٍ من أيِّ ثغرةٍ، من أي فتحات أو طرق جانبية، عبارة عن مجارٍ رطبةٍ يسيرون فيها تقريبًا الواحد فوق الآخر، متلاصقين بين أكياسِ الرمال والرجال القابعين بين البنادق وحقائب الظهر، واضعين على رُكبهم أوراقَ خطاباتٍ، لم تُكتبْ بعدُ. كان على القادة، مثل ألكسندر الرقابة على محتواها، في حالة إذا ما احتوت على

معلومات سرية -مثل الجهات القادمة، أوامر الهجوم المتوقَّعة، أسماء الرؤساء المخيفين-، ولكنه يترك بكل سرور المهمة للفريق. يخافون ترك ألسنة الصِبية منفلتةً، وليس أكثر، تلك الرغبة الإنسانية في المشاركة. حُذِفتْ لأكثر من مرةٍ، تلك كانت عقوبة الروح الانهزامية التي تقمعها الرُّتبُ العليا وتعدها نوعًا من الخيانة. لا يمكن السماح بأي شك، أو تردد. أمام صفارة الملازم المسؤول لا يجب التردد. بعدَ قليلٍ، سيطلبُ منهم ألكسندر أن يطلقوا الإشارة، وسيضعُ صمويل الصفارة بين شفتيه.

العديد من أولئك الجنود، القابضين على أقلام الرصاص والجاف، لن يتمكنوا من العودة ليختموا عباراتهم، ويضعوا توقيعَ النهاية. وفي أفضل الأحوال، سينهيها رفاق السلاح لهم، ويرسلوا للأسرة أو للخطيبة النَّبأ المشؤوم.

لم يكتب ألكسندر خطابه. أدرك هذا، ولكن لم يستمر شعوره بالذنب أكثر من ثانية واحدة، نظرًا لإمكانية موته قبل الفجر القادم.

وصلوا إلى الموقع المُعيَّن لفرقتهم. أمامهم دقائقُ قليلة لساعة الهجوم المُحدَّدة. أعدَّ صمويل الرجال المُختارين لموجة الهجوم الأولى. كانوا الأكثر خبرة، أولئك الذين لن يتراجعوا أمام طلقات المدفع الأولى، ويجذبون بشجاعتهم الآخرين أيضًا. أما هو فسينضم إلى الهجوم الثاني في الساحة المفتوحة، محفزًا الشباب الأصغر سنًّا على تحدي أمطار الرصاصات والقصف.

- في أزواج!

انتظر جندي متشبثًا بالمتراس، وركبته تضغط على الجزء المقوى والبندقية ثابتة في يده. بقفزة سيكون فيما وراءه بالفعل، في الأرض الحرام. وأسفله سيجثم رفيقه، مستعدًّا ليتبعه خلال دقيقة.

تسلَّق ألكسندرُ سُلَّمًا صغيرًا وتفحَّص ساحة المعركة عبر المنظار المُقرِّبِ، حريصًا على ألا يظهر شبرٌ من شَعره.

فكَّرَ: إنه الجحيم! هذا المكان خالٍ من الألوان، يغطيه الضباب، وتَعبُره روائح كريهةٌ وغربان، وجيوش من الفئران التي تتبع الرجال من مرحلة لأخرى. مشهد ممتد لجثث على مرمى البصر.

عصفت الرياح وجلبتْ بَتْلاتٍ حُمرًا أمام عينيه. في مجاري المياه تنمو زهور الخشخاش، ترتجف كأنها الأملُ. أحيانًا تملأ تلالًا بأكملها مثل الحُفر الجماعية، تتغذى الجذور على الدماء، ما زالت تُزهر على الأسطح التي تدفئها الشمس. كان ألكسندر قد جمعَ بعض البَتْلات واحتفظ بها في مذكراته، ليتذكر تضحياتِ الكثيرين.

أمام دمار كل مبدأ وكل إيمان، يشعر بعظامه ترتجف، ولكنه لم يكن مجرد شعور، حيث نزع اهتزاز بعيد ومستمر منذ ساعات النوم والكلام من الإنكليز والفرنسيين. فوراء الصف الأول الألماني كان يتصاعد تهديدٌ خفيٌّ حتى الآن، صوتُ تقدُّم قوات الدعم. يُحرك العدو الأسلحةَ على مرْكبات بمحركات، يستخدم وسائل دفع آلية لمدافع الهاون ويفكك الأفواه النارية ويقسِّمها على خمس عربات ليحركها بسهولة أكثر. كان العدو منظَّمًا، عديمَ الرحمة، قاتلًا، بينما يصرون هم على دفع حيوانات وسط المستنقعات.

إذا كان كل هذا يمثل المستقبل، وواقعيًّا هو كذلك بالفعل، إذن فإنَّ مصير الإنسانية يسير في طريق بعيد تمام البعد عن السعادة: حيث إن آلية الموت تعني تحويله إلى صناعة.

أمسك صمويل بسُلَّم صغير ولحق به.

- ثلاث دقائق سَيِّدي النَّقيب.

لم يستطع ألكسندر أن يبعد نظرَه.

- أي عالم سيتبقَّى عندما ننتهي من هذه الحرب يا صمويل؟

- سنبني واحدًا جديدًا.

- سنبني الإنسان؟ والإنسانية؟

- لو اضْطُّررنا لذلك.

وأخيرًا أبعد ألكسندر المنظار.

- إنَّهم يمحون جيلًا بأكمله. كل يوم - لم يكمل العبارة وسأل: ولكن لماذا هو هنا؟

التفت صمويل:

- مَن؟

قفز ألكسندر لأسفل:

- ذلك الفتى. قلتُ يجب أن نبعده عن الصُّفوف الأمامية.

كان يمكنه التعرف على هذا الجندي الذي له وجه المراهق حتى إذا غطى وجهه بوحل المستنقع. لقد راقبه في كلِّ خطوة من المسير، ومع كل ضربة مدفع انطلقت. علَّمه أن يطلق النار، ولكنه أكثر من مرة جذبه

من ياقته وأبعده إلى جهة الأمان، حيث يجب أن يكون فتىً مثله. إلاَّ أن أندرو، الآنَ، يستعدُّ للانضمام إلى الموجة الأولى. لم تكن أمامه أي فرصة لينجو في الخمس دقائق القادمة.

شقَّ ألكسندر طريقه وسط الرجال وصمويل خلفه.

- دقيقةٌ واحدة، يا سَيِّدي النَّقيب، وبعدها يجب أن تعطي الإشارةَ.

- لا بد أن أُخرجه من هنا.

- لا يمكنك هذا. لقد قرر الفريقُ هارتمان أمره. على الشاب أن يتقوَّى.

التفتَ ألكسندر ومسكه من ياقته.

- كنتَ تعلم ولم تقل لي شيئًا؟ لا يمكنه أن يشتد وهو مدفون.

- ولا يمكنك أن تحميه إلى الأبد يا ألكسندر. أنت قائده ولست أباه.

تركه ألكسندر واخترق طريقه ليتقدم.

- لم يبلغ بعدُ التاسعة عشرة، ولا حتى الثامنة عشرة، لقد كذب.

- مثل كثيرين ليلتحقَ بالجيش.

- هل يبدو لك كالآخرين، متعطِّشًا للمعركة، يحركه الحماسُ الوطني؟ ليس لديَّ أدنى فكرة لماذا أتى إلى هنا.

نظر صمويل حوله، وقال:

- أرجوك، لا تدع أحدهم يسمعك.

يساور ألكسندر الشك في أن أندرو وُرِّطَ في الحرب لأنه يرغب في

إثبات شيء لا يشعر به في الواقع، ربما لأبيه نفسه. وهو يعرف عن ذلك الأمر، يعرف عن توقعات الآخرين وكيف يمكن لثقلها أن يسحق.

- لا بد أن تصفر يا ألكسندر.

- أعرفُ ذلك.

ترك صمويل خلفه. فقد وصل تقريبًا. أصبح على بُعد خطوات قليلة من الفتى. يراه مستندًا على حاجز الخندق في وضع خاطئ تمامًا، ولم يهتم أحدٌ أن يعدله له. فسوف ينقلب بمجرد أن يحاول اجتيازه، وبينما يحاول النهوض سيجري الآخرون فوقه، بالبندقية التي ستفلت من يده، والرعب الذي سيقتله ليواجه ألمًا، وسينزع عنه الإصرار الضروري للاستمرار.

انطلقت الصفارة. نادى ألكسندر على اسمه، وبدا له أنه يكاد يلمسه، ولكن بعدها بثانية كان أندرو قد اختفى وراء الخندق، يدفعه غضبُ رفاقه.

تسلق ألكسندر ليرى. رآه يسقط، وينهض مرة أخرى بمعجزةٍ، ويستمر في الجري والتعثر من جديد. بندقيته معلَّقة أمامه والحزام على رقبته. وسط القنابل المتساقطة التي تُفجر سطح الأرض والرجال، بدا له أضعف من أي وقت. إرساله إلى المذبحة إهانة للرب.

اقبض على سلاحك، فكَّر، فلتقبض على بندقيتك ولا تتوقف.

إذا كانت سنوات تدريبه العسكري وأسابيع الحرب قد علَّمته شيئًا، فهو أنه لا بد من التحرك للبقاء على قيد الحياة.

إلاَّ أن أندرو أبطأ من خطوته حتى توقَّف. وقف ثابتًا وربما بلَّل

البول الآنَ سرواله. أخذ يرتعش، بينما ترتفع النيرانُ من كلِّ مكانٍ حوله، وصرخاتُ الألم. يتقدم الضباب أمامه مثل جدار، ويبتلعُ رفاقه.

صعد صمويل أيضًا على السُّلم.

- كان لا بد أن أطلق الإشارة، لم أستطع سوى ذلك.

ثبَّت ألكسندر البيريه على رأسه.

- يريد الفريقُ أن يلقِّنَه درسًا؟ لا بد أن يكون هنا ليشاهده، سيشاهد كيف يموت طفلٌ.

لم ينتظر انطلاق الموجة الثانية. حمل بندقيته وقفز وراء الحاجز.

٦

سبق لألكسندر أن رأى ضبابًا كثيفًا في حياته، ولكن بدا الأمرُ مختلفًا على تلك البقعة من الأرض. كان الضباب يخفي فخاخًا تمزق البطن، ورجالًا مُصرِّين على تحويل من يرونه إلى أشلاء بمجرد أن يلمحوه.

ركضَ نحو أندرو قبل أن يغيبَ عن نظره، متفاديًا الحُفَر التي خلَّفتها انفجارات القنابل والبنادق، مستفيدًا من قدرته على التوازن، أخذ يقفز فوقَ مَن سقطوا، وأولئك الذين تمزقوا، ولكن ما زالوا يستطيعون الزحف إلى الخلف للتوجه إلى خندق الاتصال. كانت مدفعية العدو تلقي عليهم بالحديد والنار، وجدار الضباب الأبيض ينبض بومضات حُمرٍ. تنضح المستنقعات بدماء إنكليزية وفرنسية. يشعر ألكسندر بطعمها في فمه.

عندما يصلُ إلى رجال الموجة الأولى تكون الرؤية شبه منعدمة. ينهضُ عرِّيف ويدفعه إلى الأمام ثم يشعر بشيء ما يمسك بقدمه. يعرف الجرحى أنهم ربما يمكثون في ذلك المكان المعلَّق، موضوع الحرب، لأيام، قبل أن ينقذهم أحد، ويوقفون مَن لا يزال واقفًا على قدميه. التَّحرر من تلك القبضة كان عذابًا، حيث يعني التحرر من قطعةٍ من نفس آدمية. ولكن المكوث كان بلا جدوى ويحمل الكثير من المخاطرة.

كان ألكسندر يشعر بأن قلبه قد قسا، واصطبغَ بالظلال مع أولى رشقاتِ المدفع الرشاش. لقد عرفَ منذ أنْ قَتَل في المرة الأولى بأنَّ السَّواد قد لفَّه إلى الأبد.

في ذلك الليمبو المُكدَّس بنفوسٍ ضائعة، يُولِّد التضامن أملًا بين القوات، ولكنه يخبو في لحظة عندما تكفي نظرة واحدة لتقييم الأضرار وإدراك أنه لا يمكن إصلاحها. مَن يحرص على أن يقدِّم نفسه للجميع مصيره الموت، إن آجلًا أم عاجلًا. لا بد من التفكير العملي للبقاء على قيد الحياة.

إلاَّ أنه في بعض المرات من الضروري التخلي عن الوحش الذي أصبح عليه المرء، أن يهدئه، يتركه في الانتظار. فقط ليوهِم نفسه بأن هذا التغير يمكن رده، وليس تلوثًا أبديًّا؟

تحرر ألكسندر من القبضة التي أمسكت بساقه، فتح بسرعة عبوة الإسعاف وانحنى على الجريح. ضغط بلفة الضِّمادات على بطنه وجعله يضغط عليها بيده.

- اضغط بقوة. سرعان ما سيصل المسعفون.

- متى؟ متى؟

لم ينظر له ألكسندر في عينيه. فهو يعرف متى، ولكنه يسأل في كل الأحوال. وكأن الإجابة يمكنها أن تتغير. بعد الموجة الثانية، عندما تصمت المدفعية الألمانية، بعد السكون الذي يقطعه الأنين والصراخ، بعد الضباب. بعد ساعات أو أيام. ماذا يمكن أن يقول له؟

أغرق الدم الضِّمادات.

نهض ألكسندر من جديد.

- حظًّا سعيدًا!

وتجاهل الصرخات اليائسة، والتي سرعان ما تحولتْ إلى صياح غاضب ثم إلى لعنات.

يجب التقدم بأي ثمن، مَن سيعود إلى الخلف قبل الأوان ستكون في استقباله رصاصةٌ من مسدس الضابط. وإن كان سعيد الحظ، ربما يربح بعض الساعات أو الأيام، ثم يُحاكَمُ عسكريًّا، وتكون النتيجةُ واحدةً في النهاية.

قذيفة هاون قريبة تهزُّ الأرض. أسفل الأقدام ترتفع مياه المستنقع في موجةٍ، بينما تهاجم بقايا الرصاص المنصهر والعظام ألكسندر. يجثو على ركبتيْه ويحمي رأسه بذراعيْه، واضعًا البندقية فوقها. سيعذبه صخب الانفجار طويلًا، سيعود الدويُّ إلى أذنيْه بصفير مفاجئ وطنين. نهض مرة أخرى، واستعاد اتجاهه.

تلاشى أندرو من أمام ناظره. ووصلت صفارة إشارة الموجة الثانية.

بعد قليل ستهاجمه من الخلف موجة رفاق السلاح والمسلَّحين بالسنج، في ذلك الضباب، وبين القنابل اليدوية.

صرخ ألكسندر باسم أندرو، بينما يُقلِّبُ الجثث ويوقف مَن يتقدم لينظرَ إلى وجهه.

- أندرو غراي!

قال له أحدهم: هناك، بالقرب من جيفة الحصان.

كان هو، وجه نحيف يتطلع في الظلام إلى بطن الحصان الممزق، ولا يستطيع أن يفهم السبب. سبق وأن رأى ألكسندر الشيء نفسه يحدث أيضًا لجنود متمرِّسين، ولِمَن يبدون أكثر قسوة: يستمرون رغم فَقْد رفيق، ولكن ينهارون أمام آلام حيوانٍ.

كان أندرو ينظر إلى نفسه والدموع تنهمرُ من عينيه، ينظر إلى مَن كان عليه وإلى مَن دُفع لأن يصبحه.

أمسكه ألكسندر من حزامه وجرَّه خلفه.

- تقدَّم!

تُرى كم وزنه؟ كان مجرد كومة صغيرة، صبي ذو ذقن حادة لم تنبت بعد.

لم يكن الخطُّ الألمانيُّ بعيدًا، سرعان ما تصفر أيضًا رصاصات الرشاشات، ثم أنَّ جيش القيصرِ لم يتوقف عن استخدام المدفعية الثقيلة.

صمتتْ المدفعية الإنكليزية، وأرسل القادةُ الرجالَ إلى الأمام، لأن المدافع لا يمكنها أن تحتل ساحة المعركة ذات الأسلاك الشائكة، وهي بالكاد تحدث أضرارًا لمواقع العدو. وقد جرَّبوا هذا بالفعل، لا بد من التضحية الإنسانية للوصول إلى السياج الشبكي.

وبعد ذلك؟

بعد ذلك عليهم المقاومة. لا يمكن لأحد أن يقول لهم شيئًا آخرَ، ولا أن يخبرهم -على سبيل المثال- كيف يمكنهم المقاومة.

كان يوجد بالفعل الكثيرون، من أولئك المساكين، من الفرنسيين

والإنكليز مُعلَّقين على تلك الأسلاك الشائكة. يتركهم الألمان معلَّقين هناك ليخضرَّ لونُهم، كتحذيرٍ لِمَن يحاول مرة أخرى.

لا يخشون رائحة الموت ولا العدوى. كانوا هم الموت وبتلك الأجساد المعروضة يعلنون عن ذلك.

فجأةً توقف القصفُ وهسيس الرصاص. أفزع الصمت غير المتوقَّع حتى المُحتضَرين، توقَّف الجميع عن التنفس.

جثم ألكسندر، ودفع أندرو نحو الأرض.

إنهم يعدون شيئًا ما -ليس المدافع الرشاشة- ما زال الوقت مبكرًا جدًّا على استخدامها.

الشاب المنكمش ملتصقًا بقدمه في حالة ذهول. كيف يمكنه حمايته، إذا لم يكن هو نفسه يعرف ما عليه مواجهته؟

في نهاية ساحة المعركة، اشتعلَ الضباب. خط طويل من اللهب امتد بانتظام وعنف وكأنهم يشهدون طقسًا وثنيًّا قديمًا.

شعر ألكسندر بجسده يتشنج، وصاح: قنابل نيران!

بعد برهة ستمطر عليهم نيرانًا، محوِّلة كل كائن حي إلى رماد.

بحثَ سريعًا عن وهدةٍ، وألقى بنفسه في عمقها مع أندرو. بدأ المستنقع بالفعل ابتلاع الحفرة وملأها بالمياه، ستنقذهم تلك الفترة ليبدأوا بعدها في القلق من تهديدٍ جديد.

أمر ألكسندر نفسه بالهدوء، كما يفعل دائمًا أمام الموت.

اشتعلتِ الأرضُ الحرامُ بكُرات نارية، كانت تنفجر في شرارات

وجمرات تلتصق بالأجسام، وتنشر دخان لا يمكن تنفُّسه. وقعت قنبلة بجوار حافة الحفرة. حفرتها حركة الهواء داخل الجدار الطيني، أمسك ألكسندر بالصبي وغمره بالمياه على قدر ما استطاع.

استمر صخب الانفجار طويلًا، زمنًا لا يمكن لإنسان أن يدركَ قياسه، لأنه يتمدَّد بفعل الخوف ويتقلَّص بالأمل.

في النهاية انتهى الانفجارُ، وهذه المرة وعدَ الصمت بأن يستمرَّ بعض الوقت.

غطى ألكسندر فم أندرو بيده ليوقف نحيبه، وأشار له بأن يصمتَ.

فالأمر لم ينتهِ بعدُ، بل بدأ لتوِّه، ولكنه لم يستطع أن يُصرِّح له بذلك.

يجب الذهاب إلى الجهة الأخرى والانضمام إلى القوات الرابضة خلفهم، ولكن العثور على الاتجاه الصحيح لاتِّباعه أصعبُ وأبعدُ من تفكير صبيٍّ بلا خبرة. نظر ألكسندر إلى بوصلته، فوجدها مكسورة. رفع عينيه ليبحث على الأقل عن انعكاس الشمس فيما وراء السياج، ولكن الشمس بدت وكأنَّها قد سقطت هي أيضًا على الأرض، أسقطتها قنابل الهاون. كتمَ لعنةً.

بين أعمدة الدخان والضباب، والأرض المُقتلعة، تغيَّر شكل السَّهل. كانا يخاطران بأن يقفزا فيما وراء خطوط العدو لئلاَّ يُعلَّقا على نصل بندقية ألمانية.

ارتفع صوت غناء.

«Deutschland.. Deutschland über alles.. Über alles in der Welt»

كانت أغنية الألمان، والتي سمع عنها كثيرًا. ذلك النشيد الاستعماريُّ بدا وكأنه يأتي من كل الاتجاهات. ترتفع أبياته وتتطاير منتشرةً بصوت مكتوم فوقَ الجثث البارزة التي لا تزال تشتعل.

أغنية لئيمةٌ، تُنَغِّمها جوقة من أصوات البِيضِ. كانوا ألمانًا في ريعان الشباب، صِبية أعمارهم ستة عشر عامًا انضموا طواعيةً في المدارس والنوادي الرياضية، بفضل حملة دعائية قاتلة. يقولون إن رفاقهم الأكثر خبرةً يرسلونهم في المقدمة، يسمونهم «لحم الذبيحة».

ولكن ذلك اللَّحمَ البريء مُسلَّحٌ، ويتقدم وهو يطعن كل الأجساد التي يقابلها في طريقهِ.

التف ألكسندر ببطء حول نفسه، وهو يبحث بحواسه عن اتجاه يبدو أكثر أمانًا من اتجاهات أخرى. سلَّح هو أيضًا بندقيته بحربة، وأخرج المسدس من جرابه.

ارتفعت أغنية جديدة كأنها تجيب على الأولى، وهذه المرة كانت قويةً جدًّا بحيث لا يمكن أن يُضيِّع المرء أثرها، تنطلق بأعلى الصوت والكفاءة لتخيف العدو، إلا أنها كانت تأتي من الصفوف الأولى للقوات الإنكليزية:

«Pack up your troubles in your old kit bag
And smile.. smile.. smile
While you've a Lucifer to light your fag
Smile boys.. that›s the style
What›s the use of worrying
It never was worthwhile

So pack up your troubles in your old kit bag
And smile.. smile.. smile»[1].

أعاد ألكسندر مسدسه مرة أخرى إلى مكانه، وساعد أندرو على الصعود. زحفًا خارج الحفرة واستمرَّا متَّبعين صوت الغناء. انطلقت شعلة مضيئة فوق رأسيْهما لتؤكد على الرسالة. رفاقهما في الأمام يرشدونهما للطريق.

توجد قطعة أرض مرتفعة لا بد من اجتيازها وربما جعلتهما هدفًا سهلًا.

حذَّر أندرو: لا بد أن نجري هناك في الأعلى.

وساعده لينهض أثناء الجري.

على القمة، عندما تيقن ألكسندر أن الصوت الجهور الذي يقود الجوقة هو صوت أوليفر، أمسكت به ذراعا قناص وأخذته نحو الأمان، ووجد نفسه يحدِّق في وجه سيسيل البشوش.

رفع الجنديُّ أندرو، أيضًا، بلا أي تعب... وسلَّمه لصمويل الذي فحص جسده:

- يبدو كاملًا.

رفع أوليفر السِّدادة عن قنينة ويسكي صغيرة، ومررها لقائدهِ:

- هل تفكر في عمل كل شيء بمفردك سَيِّدي النَّقيب؟

---

(١) ضع كل مشاكلك في حقيبة ظهرك القديمة وابتسم، ابتسم، ابتسم. وإذا أشعل لك الشيطان سيجارةً، فابتسم فهذا هو أسلوب الحياة. بماذا يفيد القلق؟ لا يفيد في شيء، إذن ضع مشاكلك في حقيبتك القديمة وابتسم، ابتسم، ابتسم.

٧

لندن، محطة فيكتوريا، لندن، ١٥ سبتمبر ١٩١٤

وصلت كيت إلى تلك المحطة، وهي شابة لتتبع حلمها الذي سيضع لاحقًا بين يديْها المشارط والحيوات الإنسانية، ومن تلك المحطة نفسها سترحل خلال لحظاتٍ، لتذهب نحو تحدٍّ، ربما هو الأكثر طموحًا، والذي سيحول الاستثناءَ إلى قاعدة.

تتقدَّم بين الحقائب والعتَّالينَ، النساء والرجال الذين وصلوا لتوِّهم والمستعدين للرحيل -مَن يدري- على أي رصيف من أرصفة الحياة. كثيرون منهم وصلوا كلاجئين من بلجيكا المحتلَّة، والآخرون جنودٌ يتَّجهون إلى الجبهة. بعضهم يبدو أنه لم يبلغ بعدُ التاسعة عشرة المطلوبة للالتحاق بالحرب في فرنسا، ويبدون متحمسين مثل التلاميذ في أول يومِ مَدرسةٍ، حليقي الشَّواربِ ووجْناتهم مشتعلة بحماس الشباب. ربما هي أول ليلةٍ لهم خارج منازلهم.

تمنت كيت أن تكون ليلة عابرة، وهي تشرد بنظرها نحو اللافتات المعلَّقة على لوح الإعلانات، تقول: «دعوة للالتحاقِ بالجيش، مَلِككم وبلدكم بحاجة إليكم».

كانت هذه هي أغنية الاستدعاء التي أطلقها لورد كيتشنر، بطل حرب البوير. كان يجنِّدُ جيشًا قوامه من المواطنين المراهقين، ويَعِد بما لا يمكن تحقيقه على أرض الواقع: انتهاء الحرب قبل أعياد الميلاد.

تسبب ذلك في حماس بدا كالجنون. تتقدم كيت تدفعها الأجساد المجهولة، بينما تضم آنًا إلى صدرها، وتلُف آنًا ساقيْها حول خصرها. يمكنها أن تشعر بدموع الصغيرة وهي تبلل عنقها، وقلبها الصغير المفزوع صدىً لقلبها. إذا أمكن للمرء أن يُقَسِّم نفسه إلى اثنين، ستفعل كيت هذا، ولكان التمزقُ أقلَّ إيلامًا من الفراق.

مرَّ حوالي شهر على تلك الليلة الملعونة والساحرة في وايتشابل، وكانت الاستعدادات أطول من المتوقَّع. ومثل كل التعويذات السحرية، كانت الكلمات التي نطقتها فلورا ولويزا مصنوعة أيضًا من الظلال. الرحلة التي وعدت بها تلك الكلمات لها تركيبة الغموض، وفي الغموض يكمن الخطر، وفي الخطر يحدث التغيير. لم تكن كيت واثقة أنها تريد أن تتغيَّرَ مرةً أخرى.

ضمَّت ابنتها بقوة أكبر. كل تغيير يحمل في طيَّاته خيانةً ما، يحمل توقعاتٍ، وآمالًا، وعودًا وروابطَ. سرعان ما سيكون عليها أن تنتزع ابنتها من بين ذراعيها وأن ترحل دون أن تلتفت إلى الوراء.

أصبحت خطواتها مترددةً، والحشد تيَّار معادٍ، ولكنَّها وصلتْ بالفعل إلى الرصيف. هناك حيثُ ينتظر القطار، وبه العربة التي تشغلُها الأدوات الخاصة بالمستشفى، وهو ينفث دخانه الأسود والبخار، وداخل بطنه الحديديِّ يشتعلُ الفحمُ.

بجوارهما بدأت تحتشد نساء شابات، لم يكن صعبًا عليها التعرف عليهن، فهن يرتدين الزي نفسه الذي ترتديه كيت، تنورة مريحة وقصيرة فوق الكاحل. لم يكن قليلًا عدد المارة الذين استرقوا النظر إلى الطرف الأسفل من التنورة الذي يكشف الحذاء. السُّترة تليق عليها، طويلة حتى الردفين، يشدها حزام، وتُعقدُ بصفٍّ من الأزرار على الجهة اليسرى.

تتحسَّستْ كيت الشرائطَ الحُمرَ التي تُزين كتفيْها، والتي تميزها عن الممرضات اللاتي يحملنَ شرائطَ زُرقًا، بينما كانت شرائطُ المساعِدات بِيضًا. وفق خطة فلورا ولويزا، تساعد هيئتهن العسكرية في الإشارة إلى دورهن في الخطوط الخلفية لساحات المعركة، ولكن، والأهم، ليربحنَ احترامًا لا يمكن حتى الآن تخيله، من جهة الرجال الذين لم يحدث لهم حتى الآن أن وضعوا ثقتهم في نسوةٍ طبيباتٍ. وكان المعطف -المتناسق مع الزِّي- مطويًّا في الحقيبة.

حيَّتها إحداهنَّ. كانت تعرفهن، تقابلن من قبلُ أثناء عملها في مستشفى شارع هارو، هيزيل وغيرترود وغريس، جميعُهن طبيبات في عمرها. تجاوزنها بخطوات سريعة، يتبعهن العتَّالونَ حاملينَ حقائبهن، صعدنَ القطار دون أن يلتفتن إلى الوراء. لم يكن يصحبهن أحد، لا زوج ولا خطيب ولا والدانِ. ربما اكتفيْن بلحظاتِ الوداع على بوابة محطة فيكتوريا. شيءٌ واحد كانت كيت متأكدةً منه، لم يكن لديهن أولاد يتركونهم في الانتظار.

التفتت للخلف.

- لا يمكنني هذا.

وضع جوزيف حقيبة صديقته على الأرض. وقد التزم الصمت، منذ أن خرجوا قاصدين المحطة.

- بالتأكيد يمكنك هذا، تشجَّعي.

بجواره، تقدمت مينا لتأخذ آنًّا معها، ولكن لم تكن كيت مستعدةً، وربما لن تصبح مستعدة أبدًا. ذلك الرصيف مثل مَدْرجٍ، وأدركتْ بأنها لا تملك جناحيْنِ لتنطلق.

تراجعت للوراء وهي تضم ابنتها بقوة.

- لنعد إلى المنزل.

تقدمتها مينا وهي تضع منديلًا من الدانتيلا على فمها، عيناها حمراوان. سمعتها كيت طوال الليل تنتحب. لم ينم أحدٌ في ذلك المنزل.

- أوه يا كيت، لا تتخلّي عن كلِّ شيء الآنَ.

- قلتِ لي ألاَّ أذهبَ، كان لا بد أن أُصغي إليكِ.

وللحظة رأتها كيت تبحث بنظرها عن زوجها. فهمت أن جوزيف هو صاحب ذلك التغيُّر المفاجئ. تخيلته وهو يواسيها، وفي الوقت نفسه يحذرها من أن تؤثِّر على مصيرٍ لا يخصُّها.

ابتسمَ وهو يشجِّعُها، وكتمت مينا نشيجها. تنفستْ بعمق وتحدثتْ بهدوء.

- قلت هذا فقط بدافع الخوف، لكنني الآنَ أدرك هذا. لا يمكن أن ندع الخوفَ يقرر حيواتنا، ولا حيوات الآخرين.

طبعتْ كيت شفتيْها على رأس الصغيرة.

- ربما أفعل ذلك بعد بضعة أعوام، عندما لا تكون هي بحاجة إليَّ، كما هي الآن.

اقتربتْ مينا.

- بعض القطارات يا عزيزتي، لا تمر على حيواتنا سوى مرة واحدة، أعرف هذا جيدًا.

ربتت على ذراعها، حتى وصلت إلى ذراع الطفلة. وفكت برقَّة الرباط الذي يوحدهما.

- إذا لم ترحلي الآن، لن ترحلي أبدًا. وإذا لم تركِ آنَّا وأنت تذهبين الآن، لن تعرف أبدًا أي نوعٍ من النساء كانت أمُّها.

قال جوزيف: ليست سوى ستة أسابيع. سنعُد الأيام على التقويم ونكتب لكِ خطاباتٍ مليئةً بالرسوم، كل أسبوع، أليس كذلك يا آنَّا؟

تزحلقت الفتاة ونزلت على الأرض، وقبضتْ أصابعها بعنادٍ على تنورة أمها.

فوقهما، بين الأعلام الزُّرق والحُمر للمملكة المتحدة، المُعلَّقة في سقف المبنى، تشير الساعةُ إلى أنه لم يبقَ على الرحيل سوى دقائق قليلة.

انحنت كيت، وجففت وجه طفلتها، كان ذقنها يرتعش مثل قلبها.

- ستة رسوم يا حبيبتي. فقط ستة رسوم رائعة وسأعودُ إليكِ.

تحدثت معها بالإيطالية، ولم تستطع أن تتجاهل النظرات العدائية لزوجين يقفان بالقرب منهما.

توقفت آنَّا أخيرًا عن التحديق في حذائها.

- ماما، لا ترحلي!

كان توسُّلًا، قالته ورموشها مُتوَّجة بقطرات التعاسة، وشفتها مثنية للأسفل. انفجرت كيت في البكاء وحضنتها. إذا لم يكن لكل ذلك الألم معنىً، وإذا لم يكن لذلك التمزق فرصة لأن يُحاك من جديد، ولتلك المسافة أن تُعبَر مرة أخرى، ستشعر عندئذ أنها تستحق أقسى أنواع العقاب من أجل كل ذلك الألم الذي تسببت فيه لَمَن عليها أن تحميها من كلِّ شرٍّ.

لطالما كانتا، هما الاثنتان، معًا. الواحدة من أجل الأخرى كل يوم في السنوات الخمس الماضية. ذلك الفراغ المُتوقَّع مرعبٌ.

تعرف أن زميلاتها يراقبْنها من خلف النوافذ الصغيرة. هيزيل، ذات العينين الزرقاوين العميقتين، وخصلات شعرها السُّود السميكة التي تغطيها بإيشارب. وغيرترود، ذات الوجه الدقيق والحاد كوجه قزم. وغريس، التي تحتفظ برونقها حتى بعد مناوبةٍ متعِبة للغاية.

رفعت كيت نظرتها والتقت بنظرة أخرى بين الحشد. تقف فلورا موراي منتصبةً وسط الرصيف، طويلة القامة ونحيفة وهادئة، كأنها قاضٍ أمام متهم.

تساءلتْ كيت إذا كان الضعف الذي أظهرته لتوِّها يمكن أن يكون تهمةً، وإذا كانت دموع أمٍّ تُعتبر هشاشةً لا تتناسب مع المهمَّة التي لا بد من القيام بها، بل وسببًا يعوقها عن الرحيل.

نهضت، ووجهها مبلَّلٌ بالدُّموع ويدها تقبض على يد صغيرتها.

بين دموعها قررت كيت أن تمكثَ وحيدةً في مدينة لا تعرفها. بين

دموعها أنجبت في حجرة رطبة وباردة، وحيدة مرة أخرى. ووحيدة بين دموعها استطاعت أن تخيطَ جرحَها.

لو كانَ للقوة والعناد شكلٌ ومذاقٌ، لاتخذا شكل الماء والملح، ولو أن هناك كلمةً صاحبتْها كلَّ حياتها، فهي «الأمل».

٨

باريس، ١٧ سبتمبر ١٩١٤

استمرت الرحلة من لندن إلى باريس أكثر من يومٍ. ساعات من اليقظة، من المناظر الطبيعية التي غيَّرت مزاج كيت، أحيانًا تمزقه رياح تجسِّد الخوف، وأحيانًا تنيره فجأة أشعة الشمس، عندئذ تبتعد ظلال الشك، ولكنها لا تُهزم قطُّ.

مُجبرَةً على الزي الذي لا تشعر بأنها تنتمي إليه، وقابعةً على المقعد الخشبي، غير المريح على الإطلاق، لجأتْ كيت إلى الرسم الذي أهدته لها آنَّا قبل الرحيل. استدارت حافاتُها لكثرة ما فردتْها. رسمتها واقفةً في مواجهة شمس ساطعة، تقبض على سمَّاعتها وحقيبتها الطبيتين. بَدَتا جائزتيْنِ مرفوعتيْن نحو السَّماء. يظهر كاحلاها على غير العادة عند طرف التنورة، بينما كعباها مغروسان في الأرض. بدت وكأنها تقول، لن أتزحزحَ عن هذا الموقع.

تراها ابنتها وكأنها محاربة مُسلَّحة بالعِلم. أضحكتها وأثَّرت فيها، ثم شعرتْ بالحزن، لأنها لا تشعر بكلِّ تلك الشجاعة.

بمجرد أن وصلن إلى السَّاحل، صعدت نساء الحملة على متن

سفينة تنبعث منها رائحة السمك الذي كان عليها. عبَرن المانش ونزلن إلى ميناء كاليه، يسحبن حقائبهن. ومن هناك، استقلنَ قطارًا للوصول إلى العاصمةِ. رأينَ بأعينهن آثار الحرب الدائرة من خلف نوافذ القطار. المدن الساحلية الصغيرة غزاها الجرحى المستلقين فوق نقّالات على جانبيْ الطرقات، نقّالات يشغلها اثنان أحيانًا في انتظار الدور الذي يبدو وكأنه لن يحين. يتحرك حولها أطباء منشغلون وممرضات وجوههنَّ مُجهَدة. وأحيانًا تُعبِّر وجوههنَّ عن شعورٍ بالضياع.

نهضت فلورا موراي من مكانها في العربة لتنظر، حدقتاها شظيتان زجاجيتان، لكنهما على وجهٍ معذَّب. بدتْ غاضبةً:

- لا أصدق ما أراه. عربات إسعاف تجرُّها الخيول. لقد رفضَ الجيش شراء عرباتٍ بمحركات.

ثم التفتت إلى لويزا: الجزء الأكبر من الجرحى لن يصلوا إلى أماكن الإسعاف في الوقت المناسب.

لاحظت لويزا نظرة كيت.

شرحت: القيادة العليا وصفت ذلك بالرفاهية الزائدة. وكأن أولئك الصِّبية لا بد وأن يتألَّموا أكثر مما يجب ليؤدوا واجباتهم. ولكن بهذه الطريقة لا يمكن لسلسلة الإجلاء أن تعمل.

جلست فلورا مرة أخرى، وعدَّلت تنورتها بحركة جافة.

- كيف يمكنها أن تعمل، على ظهر فرس؟

أطلت غريس من المقعد الأمامي، بشعرها المجعَّد الأشقر وقد غلبَ جفنيها النعاسُ. ما زالت هيزيل وغيرترود نائمتين.

- في باريس سيكون الأمر مختلفًا. أليس كذلك؟ لا بد وأن تتوفر بها وسائل حديثة.

تنهدت فلورا، وأجابت وهي تنظر إلى كيت:

- لا تتوقعوا شيئًا سهلًا، بهذه الطريقة ستكون مواجهة المشكلات أقلَّ تعقيدًا.

لاحظتْ كيت أنها لم تقل «أبسط»، وإنَّما «أقل تعقيدًا». و«مواجهة»، لا تعني بالضرورة إمكانية الحل. كان اتساق تلك المرأة مثيرًا للإعجاب أيضًا في طريقة اختيارها لكلماتها: محسوبة، حريصة، ولكن بعيدة عن الإحباط؛ مثلها تمامًا.

وصلنَ إلى محطة سان لازار وقد نامت باريس منذ بضع ساعات.

حملن حقائبهن مرة أخرى وهنَّ منهَكات. عاملت فلورا بعنف حارس عربة المعدات عندما اكتشفت أن نصف الحمولة لم تصل إلى دوفر، ولكن حتى هي بدت مُنهَكَة أكثر مما ينبغي فخرجت عن شعورها، ولكنها في النهاية تماسكت. الصبر، قالت للجميع، هذه ستكون بالتأكيد أولى العقبات، ولذلك من الأفضل محاولة حلها دون إهدار الكثير من الطاقة.

كانت المدينة في حالة حظر. لم يكن هناك مندوب من الصليب الأحمر الفرنسي في انتظارهن، ولا سيارة أجرة يمكنهن تأجيرها.

ألقت هيزيل بنفسها على الرصيف، تبعتها غيرترود وجلستا كل منهما تستند على ظهر الأخرى.

- قدماي متورمتان. لم آكل سوى بعض المقرمشات منذ عشرين

ساعة. لا أستطيع التفكير بأن عليَّ السير خطوة واحدة. على الأقل هذه الليلة. وأحتاج إلى التبول، على الأقل منذ أن وصلنا إلى كاليه.

سخرت منها غيرترود:

- هذه الليلة ستنام أخصَّائية الأشعة ذات العينين الزرقاوين على مُلاءة حريرية فقط. ولا بد من إحضار المبولة الفضية، على الفور!

تحركت هيزيل فأسقطتها على الرصيف المتسخ.

- أريد فقط أن أنزع ذلك الحذاء وأمدد قدميَّ المسكينتيْن، وأنا أشرب الشاي. أعتقد أنني أستحق هذا.

تسير فلورا ذهابًا وإيابًا.

قالت وهي تفكر: عزيزتي، جميعنا نستحق هذا.

وعلى بعد خطوات، كانت لويزا تتحدث مع المساعدات. غالانثا، وماردي وأولغا، وهنَّ أيضًا في الثلاثينيات، أجسامهن قوية، معتادات على الحمل والرفع، ونفوسهن قادرة على المقاومة أكثر. ماردي وأولغا، مثل فلورا، يمكنُ لهنَّ الاعتماد على ميراثهنَّ من الدِّماء الإسكتلندية.

اقتربت غريس من كيت، بعد أن ضبطت خصلاتها بتمرير أصابعها، وأعادت ربط كعكة شعرها من جديد بدبابيس شَعر أخرى. بل وعثرت أيضًا على الحماس لتزيد أحمر الشفاه.

قالت لها، وكأنها تخمن أفكار كيت من اتجاه نظرتها: كانت جافة. لا أطيق الشفاه الجافة.

بعد منع الملكة فيكتوريا مساحيق التجميل، أصبح أحمر الشفاه رمزًا

للحرية النسائية أثناء كفاح مناضلات السفرغيت. العديدات منهن يرتدين الشرائط المميزة للحركة، مثل فلورا ولويزا، أخريات يحملن الابتسامات الملونة.

تبدو غريس كأنها مَلاك، بتلك السحابة الذهبية التي تُؤطِّر وجهها الصغير، إلاَّ أنها جرَّاحة جهاز هضمي خبيرة، قضت الأعوام السبعة الأخيرة تزيل الأورام في مقابل مكافآتٍ عبثية.

سألتها، وهي تنظر للورقة التي تبرز من جيب زِيِّها: هذا الرسم، رسمته ابنتك؟

لمست كيت الورقة، وكأنها تطمئن لوجودها، هي على الأقل، في أمان.

- أجل.

- عادوتِ النظرَ إليها كثيرًا خلالَ الرِّحلة.

تساءلت كيت إذا بدت ضعيفة للغاية بذلك التصرف.

- ليس الأمرُ سهلًا.

ابتسمت غريس وكأنَّها تشجعها. لم تكن هناك غرابة في ملحوظتها.

- أتخيَّل أنه ليس كذلك. كم عمرها؟

- خمسة أعوام. واسمها آنًا.

- هل مكثتْ مع أبيها؟

غطت كيت بحركة تلقائية خاتم الزواج بيدها، وتحركت نظرة غريس.

- آسفة، لم أقصد التطفل.

سُمع صخب جهةَ شباك التذاكر. كانت لويزا ومعها المساعدات يدفعنَ، كل واحدةٍ منهن، بعربة حقائب، ويتبعهن مَن يجب أن يكون ضابطًا فرنسيًّا أو ناظرَ المحطة. لم يبد الرجلُ سعيدًا بوجودهن، ولا بالمبادرة التي قمنَ بها.

صاحت أولغا بانتصار: حصلنا عليها!

نهضن جميعًا. حتى الممرضات اللاتي ظللن حتى تلك اللحظة مبتعدات، اقتربن وبدأن يضعن الصناديق والحقائب على العربات. بعد الانتهاء من حظر التجول سيفكرن في المعدات والمؤن.

حاول الرجل مرة أخرى أن يغلق الطريق، ولكنه كان وحيدًا أمام ست عشرة امرأةً مُتعَبة.

- لتكن لديك رحمة!

صرفته هيزيل بجفاء، وهي تمر أمامه، بالنسبة لهن جميعًا كانت المسألة مغلَقة.

مغلَقة مثل الفندق الذي كان سيستضيفهنَّ تلك الليلة.

بعد أن دفعن العربات، وعليها الحقائب، كانت أجسادهن المتهالكة على مسافة بضعة مبانٍ من البناية التي بدت لهن مظلمة بالكامل، مثلما كانت باريس مظلمة. حدَّقنَ فيها. كانت رمزًا للخوف، بلافتاتها المُطفَأة، ونوافذها السُّود، ورمزًا للحياة التي تختبئ حتى لا يلحظها أحد. نجح العدو تقريبًا في الوصول على الأبواب، وحاول اختراقها، واستطاعوا إيقافه بمعجزة، «معجزة مارن». نجت باريس، ولكن حتى متى؟

تساءلتْ كيت مرة أخرى إذا كان هذا مكانها بالفعل. الإشارات التي وصلت إليها في الساعات الأخيرة بدت وكأنها تشجعها على الانسحاب السَّريع.

ولكن في تلك الأزمنة الانسحاب هو ما يمكن أن يقوم به الجنود اليائسون، وليس لِمَن عليه واجب أن يساعدهم للوقوف مرة أخرى على أقدامهم. لا يمكن تسليم مهمة الأمل لآخرين. لا بد أن تكون هي الأمل، أن تقاوم وتدافع، أن تنجح وتتقدم إلى الأمام، أن تُشمِّر عن ساعديْها وتطرقَ على الأبواب المغلَقة، لتفتحها.

ولكن، على كلٍّ حال، خشيت كيت أن تعود إليها فكرة الهروب إذا مرَّت عليهم دقيقة أخرى في هذا الوضع.

لذلك صعدت سلالم المدخل، وبدأت تطرق، تطرق، وتصرخ.

٩

بلجيكا، ١٧ سبتمبر ١٩١٤

يمسك ألكسندر بين أصابعه المُسودَّة بصفحة من جريدة. تقلبها الرياح وتضربها. كانت الرياح عاتية في ذلك اليوم، ولكن لم يتضايق أحدٌ، حيث ساعد ذلك على التنفس بسهولة.

أحدهم نزع الصفحة ليمررها على القوات. يتحدث المقال عن «معجزة مارن»، عن عدو هُزم ودفعه الجنود الفرنسيين والإنكليز- الذين كانوا مُصرِّين على إبعاده - إلى ما وراء الدول التي غزاها.

تفوحُ أطراف الورقة برائحة الحريق، مثل رائحة ألكسندر، وآلاف الأحياء الآخرين، هناك، على ضفتيْ فياندرز، وفي قلب فرنسا حتى البلقان.

معجزة. كانت المرة الثانية التي يُستدعى فيها التدخل الإلهي لوصف المقاومة العنيدة والمجنونة. كانت المرة الأولى في مونس، بعد مذبحة.

رفع ألكسندر عينيه عن الورقة، ومِرفقاه منغرسان في ركبتيْه. أصواتٌ تهمس في ميدان البلدة المجهولة التي يعبُرها مع فرقته، ليست فقط أصوات الرياح، ولكنها أيضًا أصوات الحريق الذي يلتهم مكتبة

الجامعة بما فيها من مخطوطات لا تُقدَّر قيمتُها بثمن. يُدمِّر الألمان في طريقهم الأشياء والأشخاص.

لا يوجد أي خارق في عملية الدفاع التي أنقذت باريس من براثن النسر الاستعماري. لم تكن هناك أي معجزة، ولكن مذبحة لإنقاذ آخر قلعة للحرية على تلك الأرض. فقد تَدَخَّل بين النصر والهزيمة عشرات الآلاف من الضَّحايا.

ترك الورقة، وراقبها وهي تلتف بين الشعلات، حتى حجارة العصور الوسطى التي تفجرها درجة الحرارة. سقطت عتبة علوية، فأطلقتْ شرارًا.

يمارس العدو الترويع. يُبيد المدنيين والمسنِّينَ، النساء والأطفال. يُدمر كل تاريخ لا ينتمي إليه. كانت خطته العسكرية السَّحقَ لكسرِ إرادة النَّاجين.

لم يفهم العدو أن رفض ذلك الرعب هو بالضبط ما يقويهم. إنه رفض قادر على إعادة الموتى ودفعهم لمواجهة جيوش القيصر.

أصبح الأمرُ شخصيًّا بالنسبة لكلِّ واحدٍ منهم.

عندما ضاعت الورقة عن نظره، نهض وحمل حقيبته على ظهره لينضمَّ إلى رجاله في الصف الذي عاد للتحرك. صفٌّ يتحرك الآنَ كأنَّما هو مخلوق واحد.

مكتبة
t.me/soramnqraa

١٠

باريس ١٧ سبتمبر ١٩١٤

على أرضٍ لم تسر عليها قطُّ، سِوى لعبورها، وفي حرب لا تخصُّ غير نصفِها الإنكليزي، حلمت كيت بإيطاليا. حلمت بالجبال أواخرَ الصيف، مغطّاةً بأشجار الصنوبر الذهبية، والقرى القديمة الصغيرة، حيث يتحدث الناس لغة الفعل، ويبدون أصحاب عِلم وصمتٍ منذ زمن بعيد. من فوق بعض القمم في الأيام المشرقة يمكن رؤية خطِّ المياهِ اللاَّمعِ. بحر طيب، شفاف ومُعطَّر. حلمتْ بالوادي الذي رعى طفولتها وأيام شبابها الأولى، وشعرت برائحة البلسم في باقات العشب البرِّية المجموعة من الحقول، ورأت من جديد ذلك العالم بعينيْ الطفلة.

عندما استيقظت كان وجهها مبلَّلًا بالدموع. مَن يدري لماذا عادت أرض مولدها إلى ذهنها، ولماذا شَعرت بكل هذا الألم.

لم تكن تعرف كم بقيَ بداخلها من تلك الأصول، ربما أكثر ممَّا ينبغي، ربما القليلُ جدًّا فتركها نصف فارغة، وفي ذلك الفراغ نمت أعشابٌ برِّية ذوات جذور قصيرة.

ارتدت ملابسها بسرعة، وجمعت شعرها في ضفيرة، ولفَّته حول

عنقها. لم يكن الزي مُجعَّدًا للغاية، اخْتِير هذا النَّسيج بالذات لمقاومته. والآن حان الوقت لتظهر قدرة كيت على المقاومة.

قبَّلتْ رسمَ آنَّا، طوتها في أحد جيوبها، ونزلت إلى القاعة.

تناولت كل نساء الحملة الإفطار في دقائق قليلة، وجمعن الحقائب الشخصية من الغرف التي استخدمنها لساعات قليلة وكُنَّ على استعداد لترك الفندق.

كان محل الوصول الأخير هو فندق كلاريج -شرحت فلورا- صادرته الحكومة الفرنسية وسلَّمته لهيئة الصليب الأحمر لتحويله إلى مستشفى... مستشفاهم.

ولكن لا بد من الوصول إلى هناك. وعلى ما يبدو فإنَّ التحرك في شوارع باريسَ بوسيلة غير أقدامهم، كان مستحيلًا في تلك الأيام.

شرح لهم موظف استقبال الفندق: لقد صادروا سيارات الأجرة يا مدام موراي، صادروا ألفًا ومئتي سيارة أجرة لنقل الجنود إلى المارن.

- ولكنهم انتصروا في معركة المارن منذ خمسة أيام.

- أجل. صادروها الآن ليعيدوا الجرحى إلى هنا. ولكن لا تقلقوا، حجزت لكم واحدًا.

- واحدًا؟ لا بد وأن يقوم بأكثر من رحلة. ومتى يصل إلينا، فنحن مستعجِلات. ألَا يمكن أن تتعجل حضوره من فضلك؟

انحنى الموظف على طاولة الاستقبال:

- لن أسمحَ لنفسي أبدًا أن أتعجل مدام ديكورسيل.

انحنتْ فلورا أيضًا.

- امرأة؟

- حسْب ما أكدوه عليَّ، فهي قادرة على القيادة مثلها مثل أي رجل. ستصل لا تخشَي شيئًا. ولكن إذا لم ترغبن في الانتظار.

أشار إلى باب الخروج: أنصحكن بالتِّرام أو مترو الأنفاق.

التفتت فلورا لتُقيِّم رأي زميلاتها. تمنَّت كيت ألاَّ يمنعها حماسُها من أن تلاحظ العيون الحُمر والوجوه المتعَبة. فلم تنم أي منهن سوى ساعات قليلة، وأمامهن عملٌ كثير. لا يمكن أن تطلب منهن أن يشدوا الحقائب من جديد من مكان لآخر في مدينة مجهولة بالنسبة إليهن.

- لننتظر.

دخلت مدام ديكورسيل بعدها بقليل.

- تاكسي لفريق موراي-أندرسون!

تحدثت بالإنكليزية بصوت حاد. كانت امرأة قوية بوجه عريض، لون بشرتها شديد البياض. شعرُها الكستنائي مضموم أسفل البيريه ذات الواقي الذي يستخدمه سائقو سيارات الأجرة. ترتدي معطفًا طويلًا مزدوجَ الصدر، بصفَّيْن من الأزرار الذهبية تبدو وكأنها لُمِّعتْ للتَّو. حول كتفيْها تضع ياقة من الفراء تصل حتَّى كعبيْها فتمنحها مظهرًا أقوى.

قدَّمت فلورا ولويزا نفسيْهما، وقدَّمتا النساء الواقفات خلفهما بالاسم والمهنة واحدةً تلو الأخرى.

نظرت إليهن مدام ديكورسيل بفضول متحمس.

- طبيباتُ حرب؟ للرجال؟ هذا شيء جديد بالنسبة لي، لم أرَ مثله قطُّ!

- وبالنسبة إلينا الشيء نفسه مع حضرتك يا مدام. لم نرَ من قبلُ سيدةً تقود سيارة أجرة.

نفخت ديكورسيل صدرها:

- أنا أول امرأة تحصل على رخصة القيادة في باريس منذ سبعة أعوام.

وضعت القفاز الجلدي على أصابعها ثم أمسكت بالحقائب، وضعت اثنتين أسفل ذراعيها، واستطاعت أن تقبض على اثنتين أُخريين.

- لنذهب في مجموعات من أربعة يا سيداتي. ينتظركن يومٌ مزدحم على ما أعتقد.

عندما جاء دور كيت كانت معها غريس وهيزيل وغيرترود. ابتسمت مدام ديكورسيل:

- حمولة الطبيبات.

وضعت الحقائب على سقف السيارة. حاول نادل أن يساعدها لكنها أبعدته. اتخذت مكانها على مقعد القيادة، ولكنها اهتمت بأن تفتح الزجاج الذي كان يفصلُها عن المقعد الخلفي. تقود السيارة بسرعة وهي تحكي بفرحٍ صاخبٍ. تروي بفخر تاريخ الآثار والطرق، وهي تستدير بالكاد نحو الراكبات. تُفقَد بعض كلماتها في الهواء ومن صخب المدينة، ولكن حماسها يطغى على كل شيء.

بدتْ باريس رائعةً بالفعل، الآن وقد غادرها اللَّيل، وها هي يقبِّلها الضوء، فيظهر بلاطها ونحاسها ذهبي اللون. شوارعها وطرقاتها الواسعة ومقاهيها الأنيقة في كل ركن من أركانها. مبانيها لامعة ورفيعة المستوى، بأسطحها ذوات السقوف المنحدرة والجو الرومانسي الذي يدفع للتفكير في الفنانين والشعراء، ولكن على مستويات رفيعة. كانت مدينةً حديثة، إلا أن الحياة تبدو وقد هجرتها. متاجرُ كثيرة مغلَقة، مساكنُ عديدة خلتْ ونوافذُها موصَدة. انتقلت الحكومة إلى بوردو، ومن كل جهة، ومن كل شارع أو ميدان نعبره يمكننا أن نرى برج إيفل، يطلُّ كئيبًا وعاجزًا على المدينة الفارغة.

قالت مدام ديكورسيل لهم: الكنائسُ فقط هي المُزدحمة. وفي الطرقات نرى عددَ الأرامل يزداد، مسدلاتٍ حجابَ الحِداد على وجوههنَّ.

- وصلنا. طريق الشانزيليزيه يا سيداتي! للأسف لدينا الآن حظر التجول، وإلاَّ في المساء كنتن سترونه متلألئًا. الإضاءة الكهربائية على طول الطريق حتى قوس النصر.

توقف التاكسي أمام مبنىً أنيق، يبدو حديثًا، أو مُعْتَنًى به بطريقة رائعة. أحصت كيت الطوابق، وكانت سبعة.

الكلاريج. منزلُها الجديد لمدة ستة أسابيع قادمة، مستشفى الحرب. من الخارج كان لا يزال فندق الأرستقراطيين والطبقة البرجوازية الراقية، التي تخيلها أصحابه.

نزلت هيزيل وغيرترود أولًا.

همست هيزيل:

- يا لكرم السماء، قفزة نوعية هائلة مقارنةً بمستشفى شارع هارو.

مررت لها كيت الحقيبة.

- تقريبًا، كاد مستشفى شارع هارو أن يسقط على رؤوسنا.

حدث هذا أثناء عملية جراحية، حيث انفصلت بعض بلاطات صالة العمليات، وتهشَّمت على الأرض. كانت الأموال التي جمعتها مجموعة السفرغيت تكفي بالكاد لشراء الأدوية والأدوات وأشياء لراحة المرضى وأطفالهم.

لم يفت على مدام ديكورسيل ملاحظة طريقتها في النطق.

- لدى حضرتك لهجة لا أعرفها، مع أنني تعرفت على العديد من اللهجات الإنكليزية بالفعل، وخاصة في الفترة الأخيرة. ليست لهجة لندن بالتأكيد. هل حضرتك من نيوكاسل؟

- لا.

- ربما يوركشاير؟

تعجَّلت كيت في النزول وأسرعت غريس لمساعدتها، وهي تسأل المدام عمَّا إذا واجهت مقاومةً رجاليةً في عملها.

نظرتْ إليها المرأة بتعاطف.

- الحصول على الرخصة لم يكن شيئًا، يا طبيباتي العزيزات، المعضلة الحقيقية كانت بعد ذلك، وما زالت موجودة. يوجد رجالٌ يرفضون ركوب السيارة عندما يرون امرأة خلفَ المقود، وآخرون يشعرون بأن من حقهم أن يسخروا من الأمر إلى حد الإهانة.

أحيانًا أجيب بطريقتهم، وأحيانًا أخرى لا أهتم بذلك، لأن الأمر يتعلق برجال صغار. وأحيانًا أخرى، وهي المرات المسلية بالفعل، أتركهم يسيرون.

ثم غمزت:

- ولكنني لست بمفردي في هذه المعركة، وأنتن أيضًا، حتى إذا شعرتن بذلك. فنحن كثيرات، وعددنا في ازدياد. حظًّا سعيدًا يا صبايا.

١١

استقبلهم فندق الكلاريج بجمال سلالمه الرُّخامية ناصعة البياض، إذْ نُظف بعناية شديدة حتى بدا شديد اللمعان. وزاده لمعانًا -من جهة أخرى- التشطيب الذهبي، والمصاريع الخشبية والمرايا التي في البهو، والثُّريَّات الكريستالية.

دُهشتْ كيت، فقبل هذه اللحظة، ولأعوام خلت لم تكن معتادةً على رونق مثل هذا. يفتقد المكان الأبسطة والستائر المخملية على النوافذ. الصَّالات التي تظهر من الأبواب المزدوجة -التي تُركت مفتوحة- جميعها فارغة، ولكن، بحق السماء، كانت جميعها تتلألأ من النظافة.

ولكن حكى تعبير الضيق على وجه فلورا قصةً أخرى. انضمت إليهن وهي تهبط السلالم الرئيسة بسرعة، وكأنها تتزحلق على الدرجات العريضة.

تُمسك بين يديْها بملفٍ قاسٍ وتدوِّن بغضبٍ. أعلنتْ بجفاء:

- ما زالت المياه الساخنة غير متوفرة، ولم يُشغِّلوا التدفئةَ المركزية. الممرات طويلةٌ جدًّا وكئيبة. لا بد من العثور على طريقة لإنعاشها

بعض الشيء. كيف يمكن التفكير بشفاء إنسان في مكانٍ بلا إضاءة؟

عندئذ فقط لاحظت كيت بقايا الجبس في أركان البهو. لا بد وأنهم أتمُّوا العملَ في عجالة وسخط. لا يمكن التفكير في إحضار جرحى إلى هنا دون تنظيف وتعقيم المكان بالكامل.

وضعت فلورا القلم في جيبها وضمَّت الملف إلى صدرها.

- ينتظرنا عملٌ قاسٍ يا زميلاتي، قبل أن نبدأ في التفكير في إنقاذ حياة البشر.

ثم أمسكت بغريس من مرفقها وجعلتها تستدير. كان كل ظهرها أبيض من الدهان: وانتبهنَ أين تَسْتَنِدْنَ. ما زال دهان الجدران ندِيًّا. لقد سلَّموا لنا مكانًا بدهان حديث، وبالمرَّةِ وضعوا علينا ألوانًا!

سيُقشَّر في خلال بضعة أيام وذلك إذا جف دون أن يتعفن.

فحصت فلورا ولويزا كلَّ جزء من المبنى، ودوَّنتا قائمةً من الأعمال العاجلة التي لا بد من القيام بها، وخطةً لتحويل ذلك الجحر الثمين - غير المناسب - إلى مستشفىً قادرٍ على أداء وظيفته.

مُنحنَ جميعًا الوقت اللازم فقط لتنظيم حقائبهن في الغرف المخصَّصة لهن، ثمَّ تسلَّحن بالمقشَّات وأقمشة التنظيف والدِّلاء. كانت الساعة التاسعة صباحًا.

لم يظهر أحد من الصليب الأحمر الفرنسي للتعرف عليهن. ولم تكن فلورا موراي متحمسةً لهذا. في نهاية الأمر لقد وصلوا إلى باريس تحت حماية، وفي مسؤولية تلك المؤسسة الإنسانية.

يدوِّي صوت منفعل في أرجاء القاعات الخالية. يظهر رجل عند مدخل الدَّرَج، يطلُّ من بئر السلم الرخامي. كان الرجل مبعثَرًا واستمر في الصياح محركًا يده باتجاههم. صدمه الضوء المنبعث من النوافذ في كل الارتفاعات على جانبي وجهه، وأبرز وجهًا في ظاهره شابًّا ولكن على جانبيْه استقرت علامات ثِقل تَعَب معين، ليس تعب نوم متقطع، ولكن علامة شباب نضج بالكامل. كان نحيفًا، شاحبًا، يلتف بروب من الساتان، لم يعتنِ بارتدائه، إذْ ألقاه على كتفيْه فقط، فكان عند انفعاله ينزلق بعيدًا ويكشف عن صدر نحيف. كان غريبًا، غريبًا وعدوانيًّا.

عندما رآهن ساكنات ينظرن إليه، تراجع الرجل. رفع ذقنه المُزيَّن ببعض الشُّعيرات. وقال بالفرنسية:

- هل أنتن عاملات النظافة الجديدات؟

التفتت غريس نحو كيت وهي تكتم ابتسامة، والتي لم تكن محبَّبة في تلك اللحظة. أجابته لويزا بالفرنسية، والتي أتقنتها جيدًا في باريس كما سبق وحكت لهن، عندما كانت شابة تحلم بأن تصبح طبيبة.

- لا، لسن عاملات النظافة يا سيد...؟

هبط السلالم ببطء، مانحًا لنفسه القوة ليملأ عينيه بكل التفاصيل. وأخذ يتفحصهن بارتياب أكبر، وهو يبرم شاربيه. وعندما وصل إلى البهو انحنى انحناءة بسيطة برأسه.

- أنا «مسيو» أمور(١). موظف الاستقبال. وأنتنَّ؟

---

(١) Amour بالفرنسية معناها (حُب).

عندما سمعت كُنيته، انفجرت غريس ضاحكة، فأمامهن يقف رجل شبه عارٍ، يرتدي سروالًا مخطَّطًا، وخُفَّيْنِ بنفسجيينِ من القطيفة. تفوح منه رائحة عطر قوية، ويقول إن اسمه «حُب».

أعطت فلورا المكنسة لغريس، وتقدمت بعض الخطوات نحو السيد أمور.

- أنا الدكتورة فلورا موراي، وهؤلاء زميلاتي. وصلنا البارحة من لندن لنديرِ المستشفى الذي تحوَّل إليها هذا الفندق.

بدت الدهشة على ملامح الرجل، وبدأ يتحدث بالإنكليزية:

- آه، أجل. بالتأكيد. الطبيبات. سبق وأعلمتني بهذا مدام سوزان بيروز من الصليب الأحمر. ولكنكن وصلتن مبكرًا.

- لا. أعلنّا عن حضورنا اليوم بالتحديد، السابع عشر من سبتمبر.

- هل اليوم السابع عشر؟

- أخشى ذلك يا سيد أمور.

- آوه. حسنًا.

- كما ترى، بدأنا بالعمل على الفور. إذا أردت أن تذهب لترتدي ملابسك، يمكننا أن نقوم بجولة في الفندق لتأخذ ملحوظاتٍ بالتعديلات الضرورية.

- تعديلات؟

- أجل، الضرورية، كما قلت، ليتناسب المبنى مع وظيفته الجديدة.

- انظري يا مدام، فأنا لست مجرد موظف استقبال فندق كلاريج،

ولكنني أيضًا الشخص الموثوق فيه، الذي اختاره أصحاب الفندق ليتأكدوا بأن المبنى لن يتأذى بأي حال، بسبب وظيفته الجديدة، وأحب أن أضيف: المؤقتة جدًّا.

أمسكته فلورا من ذراعه وسارا معًا بعض الخطوات:

- سيِّد أمور، أنا متأكدة بأن الحرب ستأخذ تحفظك في الاعتبار، وستكون مؤقتة في أقرب فرصة، ولكن حاليًا، وكما قررت الحكومة الفرنسية، سيتحول هذا الفندق إلى مستشفى، وأنا سأفعل كل ما في وسعي لأجعله كذلك.

توقفت. وحدَّقت فيه مثلما يحدِّق كلب صيد في فريسته:

- هل اتفقنا؟

نظر الرجل لفلورا كمَن نُوِّم مغناطيسيًّا. وفهمت فلورا ذلك قبولًا منه.

- حسنًا. والآن، إذا أردت أن تذهب لتبدل ملابسك، سأنتظرك لنقوم بتلك الجولة.

أومأ السيِّد أمور:

- بالتأكيد.

ارتدى روب النوم، وربط الحزام وقال إنه مستعد.

انحنت غريس نحو كيت وهمست:

- يعتقد أنه يحرجنا بصدر الطائر هذا...

تنحنحت فلورا.

- دكتورة هيل، من فضلك، تعالي معنا. وأنتِ أيضًا يا أولغا.

تقدمت المساعِدة، وبجوار موظف الاستقبال، بدت وكأنها دمية ماتروشكا كبيرة، يمكنها أن تحتويه.

ويبدو أن فلورا أيضًا لاحظت هذا. رأت كيت على وجهها انعكاس تعبير يمكنه أن يعني: احترس، أيها الرجل الصغير، لأنك لن تستطيع بالتأكيد أن توقفني.

ولم تتوقف في الواقع. وأعلنت له على الفور التغيير المطلوب، بلا لف أو دوران.

- الصالات الأربع للفندق، والطابق الأرضي، مناسبة لأن تصبح عنابر. نحن تقريبًا مُستعدات لننقل الأسِرَّة إليها.

بدا مذهولًا.

- عن أي أسِرَّة تتحدثين؟

- عن أسِرَّة الفندق بطبيعة الحال. لقد أحضرنا معنا تلك التي يمكن تركيبها، ولكن كل وحدة منها ثمينة للغاية. تفضل، اتبعوني.

- مدام موراي، هذا *فندقي*. يجب أن أتقدمكم أنا.

نظرت إليه فلورا بالكاد، وتظاهرت بابتسامة، رأتها كيت «قاطعة».

- لم يعد فندقًا يا سيِّد أمور. كما هو واضح، سنأخذ أيضًا المراتب وملاءات الأسِرَّة.

- يا إلهي. إنها من القطن المصري. غالية الثمن جدًّا.

أظهرت فلورا حماسًا:

- هذا ممتاز، ممتاز بالفعل.

- ولكن يا دكتورة، هل رأيتِ من قبلُ جنديًا يصل من الجبهة.

واجهته فلورا. احتفظت بصوتها مهذَّبًا، ولكن عينيها، كلها شظايا زجاجية، كانت تقول شيئًا مختلفًا.

- صدقني يا سيِّد، رأيتُ ما هو أسوأ بكثير في حواري لندن. حتى أعْنَد بقع الدماء يمكن غسلها، وسينجو قطنك الثمين. آه، سنحتاج أيضًا إلى قوى عاملة إضافية لنتمكن من نقل الأثاث الثقيل، وحضرتك تبدو في أحسن حالاتك.

- في الحقيقة يا دكتورة موراي، أعاني من آلام صباحية في ظهري تسبب لي الضيق. يمكنني أن أقول تعجزني، تقريبًا حتى منتصف الظهيرة.

- إلى هذا الحد! إذا كانت تظهر بعد نوم الليل هذا معناه أن مصدرها العضلات. يا لك من محظوظ، ستعيدك أولغا إلى حالتك الأصلية بتدليك مُنشِّط.

ألقى الرجل نظرة على عضلات الإسكتلندية التي تركتها مكشوفة. وارتعشت شواربه.

- أخشى أنني سأضطر لرفض هذا العرض. لا يسمح لي طبيبي الخاص بأي تدخلات خارجية. ولكنني أشكرك على المبادرة الكريمة.

- كما تحب. هل نكمل؟

مرَّرت فلورا لكيت الملف، وانتهزت الفرصة لتحرك شفتيها في حركة جعلتها تجحظ عينيها.

- حجرات زينة السيدات التي تطل على الصالونات، ستكون غرفَ العمليات.

- ولكن يا دكتورة موراي، تلك جواهر هندسية.

- أحواض واسعة، وبلاط على الأرضية وعلى الجدران. سهلة التنظيف والتعقيم، لا نطلب أكثر من هذا. ومن أجل الإضاءة يمكننا أن نستخدم المصابيح الأخرى من صالة التدخين.

- لا تُدعى صالة التدخين ولكن «فوموار». وليس بلاطًا، ولكنه موزاييك غالي الثمن جدًّا.

نظر السيِّد أمور بحبٍّ مدمر إلى الأرابيسك المعشَّق بالصَّدف: كل قطعة صغيرة منها قُطِّعت ووُضعت يدويًّا.

- ونحن نشعر بالامتنان لهذا.

استمرت تلك المناوشات في الطوابق السبعة كلها، ولكن كان واضحًا منذ وقوفهم في البهو بأن السيدات قد فزن بالمعركة. وفي الطابق السابع، حذرهم السيِّد أمور بنبرة جادة:

- لن تجدوه خاليًا.

تبادلت فلورا وكيت النظرات في دهشة، فلم يبلغهما أحد عن وجود ضيوف آخرين. عندما فتحوا الأبواب، لم تجدا أي كلمات. الهواء الفاسد، والنظرات التي قابلاها، وحالة الاحتياج. تنحنح موظف الاستقبال:

- لاجئون من بلجيكا.

لم تستطع كيت أن تصدق ما تراه. تترك الحرب وراءها ما لا يُتصوَّر. سيداتٌ ومعهن أطفال، بعضهم ملتصقون بصدورهن، ومسنِّون، يجد معظمهم صعوبة في الوقوف على قدميه.

سألت: ألم يفكر أحد في أن يمنحهم مساعدة منذ أن أتوا إلى هنا.

- بالتأكيد. ثلاث وجبات في اليوم يا دكتورة.

ولكن الوجبات ليست كافية. كانت هي وفلورا ومَن معهما معتادات على شمِّ رائحة العَوَز والمرض. لا بد وأن يخضع هؤلاء للكشف الطبي، وعليَّ معالجتهم، وإذا استدعى الأمر عليَّ مواساتهم أيضًا.

وجَّهت فلورا كلامها لكيت: دكتورة هيل، دوِّني هذا من فضلك.

وأُضيف سطر آخر من العمل، ووُضع قبل كل ما سبق.

صعد أحدهم السلالم في خطوات سريعة. كانت لويزا.

- لدينا زيارة، لا بد وأن تنزلي يا فلورا.

من الطريقة التي نظرت بها لزميلتها وصديقتها، والطريقة التي بادلتها بها فلورا النظر، أدركت كيت بأنها تشهد أمامها طريقةَ تواصلٍ غير مرئية، لم ترها من قبل سوى بين أشخاص معتادين على مشاركة يومهم بالكامل، حيث لا يحتجن لكثير من الكلمات ليتفاهما ويدْعم أحدهما الآخر.

فحصت الخاتميْن المتشابهيْن اللامعيْن في إصبعيهما.

توجد تعريفات عديدة يمكنها أن تطلَق على هذا النوع من التضامن بأشكال معروفة، ولكن «اقتران وثيق» هو الأقرب من وجهة نظرها.

عندما كادوا ينزلون أوقفت فلورا موظف الاستقبال بعد بضعة سلالم.

- سنتصرف بمفردنا، لا تتعب نفسك.

- ولكن يجب استقبال الضيف.

ألقتْ فلورا نظرة سريعة على الروب. كان مفتوحًا عند خصريه. أغلقته له، كما يُفعل مع الأطفال.

- أنا متأكدة أن الضيف، أيًّا كان، يمكنه أن يستغنى عن رؤية سروالك يا سيِّد أمور.

١٢

كانت سوزان بيروز امرأة رقيقة، بيضاء من قمة تسريحة شعرها إلى الياقة المُنشَّاة التي تطوِّقُ حنجرتها، حتى أطراف أظفارها التي تلمع بلون الصَّدَف. ترتدي زِيًّا أسودَ طويلًا وضيقًا عند الخصر. الشيء الوحيد المختلف؛ عُقدًا ذهبيًّا.

على الرغم من الهيئة المتقشِّفة، فقد تقدَّمت نحوهن بحماس كبير، وقبَّلتهن على وجناتهن بينما كانت تضمهن واحدةً بعد أُخرى بين ذراعيها. كان الجانب الإيطالي من كيت معتادًا على تلك الحفاوة التي تظهر حتى مع الغرباء، ولكن ظهر واضحًا على زميلاتها الشعور بالخجل. بدا وكأن المرأة لم تلحظ هذا، أو ربما، نظرًا للمنصب الذي تشغله، كانت معتادة على التعامل مع ثقافات وعادات غريبة، حتى أنها لم تعد تعتبر ذلك الجفاء نوعًا من الإساءة.

- أنا سعيدة جدًّا بوجودكن هنا، سعيدة للغاية!

واعتذرت على الفور على عدم وجود أحد في استقبالهن ليلة البارحة.

- العدو على الأبواب، وأيام المقاومة البشعة على المارن كل هذا تَطلَّب طاقات إضافية، وحقيقةً لم أكن أتذكر في أي يوم كنا.

طمأنتها كل من فلورا ولويزا، ولم يتحدثا عن الجزء الأسوأ من الحقيقة.

- لم يحدث شيء يا مدام بيروز، حقيقة، كما ترين، لقد استقررنا بسرعة باتباع التعليمات التي تلقيناها.

مما تعرفه كيت، فإنَّ سوزان بيروز ليست فقط ممثلة الصليب الأحمر الفرنسي ولكنها أيضًا ترأس اتحاد النساء في فرنسا، والذي انضمت إليه منذ تأسيسه. كانت مناضلةً منذ اللحظةِ الأولى، على أرض المعارك من أجل حقوق المرأة، هي وفلورا ولويزا يمكنهن التفاهم والعثور على طريقة مشتركة في التعامل.

بعد التحيات، تنحَّت مدام بيروز جانبًا وقدَّمت لهن الضيف الثاني، والذي كان حتى تلك اللحظة مختفيًا في ظل المرأة، ومكث في الخلف على بُعد بضع خطوات.

كان الطبيب المدني الأمريكي متوسط العمر، عريض البُنية، نظرته منتبهة خلف عدسات نظارته المستديرة. قدَّم نفسه وهو يشد على أياديهن. إيماءة عملية، جافة، إلاَّ أنها تركت أثرها على كف كيت.

لم يقدم تحية صغيرة، ولا حاول أن يلقي نظرة كافية على الطبيبات. كلاهما طريقتان مختلفتان، ولكن اعتادت عليهما النساء اللاتي لديهن ما يفعلنه. الشد على اليد كان إشارة جديدة لا دخل لها في جنس مَن يُقدمها ولا مَن يتلقاها. وضعت مدام بيروز يدها على كتفه.

- الدكتور ويات يدير منذ عدة أعوام المستشفى الأمريكي. المؤسسة افتُتحت لتعالج المواطنين الأمريكيين هنا في باريس، ولكن الدكتور ويات استقبل أيضًا المصابين العائدين من الجبهة. الآن هو هنا ليطلب منكن خدمة.

دخل الطبيب على الفور في الموضوع:

- أعرف أنكن وصلتن للتو، وأن التنظيم يحتاج لبعض الوقت، ولكن نحتاج لأن نحوِّل إليكن هنا بعض المرضى. بعد معركة المارن لم تعد لدينا أسِرَّة كافية، وهناك حمولة أخرى من المصابين في الانتظار في سان لازار.

لم تُبد فلورا أي تردد مما كان يمكن لِمَن في مكانها أن يُبديه في تلك الحالة:

- كم عددهم؟

- خمسون.

- ومتى تتوقع أن تتمكن من نقلهم؟

نظر الدكتور ويات حوله وفرد ذراعيه:

- بمجرد أن تستعدوا. غدًا صباحًا؟

تبادلت فلورا نظرة سريعة مع لويزا:

- ساعتان من الزمن. لن ندعهم ينتظرون.

قال الطبيب على الفور أنه على استعداد للاهتمام بالإجراءات البيروقراطية الضرورية، وسوف تساعده على ذلك السيدة بيروز.

نظرت كيت إليهما وهما يسرعان الخطى ناحية باب الخروج. مكثت في منتصف البهو، صورتها منسوخة عشرات المرات على المرايا والكريستال المتدلي من الثُّريَّات، بدأت دقات قلبها تتسارع وساقاها تشعران بالوهن.

نزل السيِّد أمور السلالم بسرعة ولحق بهن، وهو متقطع الأنفاس.

- رحلا بهذه السرعة؟ مَن كان ذلك الرجل.

كان قد بدَّل ملابسه. يرتدي بذلة بوردو عليها صديري ورباطَ عنقٍ حريريًّا أزرقَ غامقًا.

شعرت كيت بتنميل على كفيها وأصابعها. بعد قليل على يديها أن تدخلا إلى عمق جسد رجل، ولا بد أن تكون ماهرة فيما تفعله، وأن تفعله بسرعة. للحفاظ على النفس البشرية، ثم الانتقال إلى مَن يليه.

همست مهمومة: إنهم على وشك الحضور.

- مَن؟

- المصابون.

- متى. ولماذا أنا آخر من يعلم؟ أنا هنا المسؤول عن الكلاريج.

لم تعرف كيت أن كان عليها أن تشعر بالغضب تجاه هذا الرجل الكاريكاتيري أو أن تشعر بتفهم إنساني، نحو مَن هو، مثلها، يجتاز ثورة تعرَّض لها عالمه.

التفتت لتنظر إليه.

- هذا لم يعد الكلاريج الذي يخصك. من الآن هو رسميًّا المستشفى الإضافي رقم ١٧٣[1].

نُقلت الأَسِرَّة بسرعة إلى القاعات، وفُردت ملاءات القطن المصري على المراتب الجديدة، وتم تنظيف وتعقيم الصالات المخصَّصة للعمليات الجراحية جيدًا على الرغم من حالة الطوارئ.

حتى السيِّد أمور أثبت فائدته، وهو يهتم بأن يزود المخزن بكل ما هو ضروري بأقصى سرعة.

بعدها بساعتين، كانَ المستشفى مستعدًا لاستقبال أول دفعة من الجرحى. اصطفت المساعدات والممرضات والطبيبات منتظراتٍ في المدخل.

تعطي فلورا ولويزا التعليمات الأخيرة. لإجراء العمليات الجراحية ستتولى لويزا وغريس وكيت نوبة الجراحة الأولى، أما هيزيل وغيرترود سيكون عليهما فحص المصابين، وتقسيمهم تبعًا لخطورة حالاتهم وتحدد ترتيب دخولهم إلى صالة العمليات، بالتنسيق مع فلورا عندما يسمح الوضع بذلك. فقد كانت أخصائية التخدير الوحيدة بينهن. بالنسبة للأُخريات، عليهن تقديم الأدوية ووجبة ساخنة.

بدأت سيارات الإسعاف التي تحمل الأعلام الأمريكية، الوحيدة التي ظلت في المدينة، في التوافد.

عند وضع النقالات الأولى على الأرض، كانت صدمة للنساء. لا بد أنه لم يساعد أحدٌ أولئك الرجال منذ أن أتوا من الجبهة. فما زالوا

(١) Hôpital Auxiliaire 173.

يرتدون أزيائهم المتسخة بالدماء والطمي، والممزَّقة في أغلب الأحوال. الرائحة بشعة، رائحة جروح تُركت لأيام لتفسد، حدَّ التقيُّح. بل وعلى بعضهم يسير قملٌ كبير بلا انزعاج.

توقف الزمن بالنسبة لكيت، وكأنها في لقطة تصويرية ستُطبع في ذهنها إلى الأبد.

أمرت فلورا: بسرعة! وبدأن جميعًا في العمل.

وصلت كيت إلى الصالة التي سلموها لها. شعرت بأنفاسها متقطعة وخطواتها مترددة. ذهبت إلى الحوض، ولكن أفلتت الصابونة من يدها وسقطت على الأرض. حاولت أن تستعيدها، ولكنها تزحلقت من بين أصابعها مرة أخرى.

التقطتها فلورا، وأعادت كيت على قدميها. أمسكت بقوة برسغها وغرست بها نظرتها:

- بهاتين اليدين لن تتمكني من الجراحة. اهدئي!

- أجل يا دكتورة موراي.

- ناديني فلورا، واسمعيني جيدًا. إذا فشلنا اليوم، لن تكون مشكلة تخصنا وحدنا. إذا لم نكن على قدْر ما نفعله، سيدمروننا، وسيدمرون سمعتنا معنا، ومستقبلنا، بل وسيغلقون الفرص أمام الأُخريات.

شعرتْ كيت بالثقل على صدرها يخنقها أكثر.

- أنتِ لا تساعديني بهذه الطريقة.

- أنا لست هنا لأساعدك يا كيت. بل أنت مَن يجب عليها أن تساعد هؤلاء الرجال على النجاة. كيف يمكنك عمل هذا؟

شعرت بالقبضة وقد شُدَّتْ أكثر:

- لقد رددوا علينا لقرون أننا شديدات الانفعال، وأن ممارسة الطب تقسي القلب، وقلب المرأة، بالطبيعة، رقيق جدًّا ليتحمل هذا. احفظي قلبك بعناية، قلبك الرقيق، لأنك ستحتاجين إليه، ولكن استخدميه بذكاء شديد. رتبي انفعالاتك. لماذا في رأيك اخترتك لهذا المشروع، لماذا أتيت للبحث عنك؟

هدَّأت كيت أنفاسها. وزفرت الخوف الذي يهدد بأن يُعرِّض أعوامًا من التضحية للخطر، ويغشى على ذهنها الذي لا بد وأن يظل صافيًا ويلجم يديها اللتين لا بد وأن تجريا على تلك الأجساد خفيفتين ودقيقتين، وقويتين عندما يتطلب الأمر ذلك.

- لأنني أعرف كيف أؤدي عملي.

- قوليها بصوت أعلى، ليس لي ولكن لنفسك.

- أعرف كيف أؤدي عملي!

تركتها فلورا لتذهب:

- إذن اذهبي وقومي به.

أعدَّت كيت نفسها بدقة. دعكت يديها من جديد، وهي لا تزال تشعر بفلورا خلفها. كانت تخشى ألاَّ تختفي بسرعة. أعادت من جديد كل إجراء، ارتدت معطف الأطباء الأبيض وتأكدت بنفسها من الأدوات المعقَّمة للتو.

عندما دخل السَّرير المتحرك الأول من الباب المزدوج، وفوقه المصاب الأول، تمنت كيت أن تكون مستعدة.

رفعت المُلاءة التي تغطيه.

لم تكن مستعدة. لم تكن مستعدة ولا حتى من بعيد لتواجه تلك المذبحة التي وُضعت أمامها. ما الذي يمكن لها إصلاحه، وجمعه وترميمه في ذلك الجسد المُدمَّر؟

دخلت فلورا أيضًا. كان عليها أن تضع نقاط الكلوروفورم التي لا بد من سكبها في قناع التنفس بدقة. نقطة من المخدر زائدة أو ناقصة يمكنها أن تصنع الفارق بين التخدير المؤدي إلى الموت، وبين الألم الحي للمشارط في اللَّحم.

إلا أن كيت كانت تشك أن ذلك الشاب يمكنه أن يعود إلى وعيه بسرعة.

- لم أرَ شيئًا كهذا قطُّ.

أجابتها فلورا من الخلف، بينما هي منشغلة بالقوارير والمقاييس.

- لقد اخترعوا اسلحة آلية، أفواه نارية أكثر قوة ودمارًا. لم يكف الرجال الموت كما كنا نعرفه، يريدون أن يجعلوه أكثر بشاعة أيضًا.

لم تكن التمزقات التي تراها كيت مثل تلك التقليدية الناتجة عن ثقوب الرصاص؛ دقيقة، ونظيفة. ولم تكن حتى مثل تلك الجروح القطعية للأنصال. فقد واجهت بالفعل تلك النوعيات من الجروح في حواري لندن ولم تكن لتزعجها.

انفجر عظم فخذ القدم اليمنى، وتمزقت الأوتار. العضلات كانت عبارة عن كتلة من مئات الجزيئات العظمية، بيضاء وصغيرة جدًّا كأنها الأشواك، واختلطت بها جزيئات قاتمة للرصاصة التي اخترقتها. لو كان جهاز هيزيل لأشعة إكس قد وصل مع الحمولة الأولى من الحقائب لحددت لها صور الأشعة أين وكيف عليها أن تتدخل.

أدركت أن ذلك اليوم لن تكون الجراحات سريعة، حيث عليها أن تنزع كل جزيء صغير لتجنب التلوث. وعليها أن تعالج الأنسجة بنزع تلك التي أصابتها الغرغرينا، وإغلاق الأوعية النازفة، وأن تعيد العظام لمكانها. وأن تخيط عشرات الغرز، على أمل ألا تكون قد أهملت أي شيء، ولا حتى غرزة قاتمة في اللحم الحي، ولا حتى بعد ساعات ستقضيها لإجراء الجراحة وهي منحنية أسفل الضوء المتعب للمصابيح.

يمكن للحسابات أن تستمر للأبد، ولكن حتى إذا سار كل شيء بسهولة، واستطاعت عمل أكثر بكثير مما هو ضروري وتخطَّت كل المستحيل، ونجا ذلك الشاب، سيكون عليه أن يعيش أعرجَ إلى الأبد. ستكون الساق أقصر من الأخرى بنصف شبر على الأقل، وسيؤثر ذلك على مستقبله بقية حياته.

- مستعدة؟

كانت فلورا قد انتهت وأخذت تنظر إليها.

أمسكت كيت بالمشارط، بيد ثابتة، وأفكارها واضحة فجأة. وعلى النصل رأت نظرتها المنعكسة، وكانت نظرة حاسمة.

وقطعت.

١٣

بلجيكا، ١٨ سبتمبر ١٩١٤

بلغه الأمر وقد تجاوزتْ الساعةُ منتصف الليل بقليلٍ. استيقظَ ألكسندر فجأة مفزوعًا وأمسك ببندقيته على الفور. نظر إليه العريف الذي أرسله الفريق بعينين جاحظتين. وسقطت الورقة التي أتى ليسلمها له بينهما.

مسح ألكسندر عينيه بيده وأمسك بها. كان يفيق من حلم واقعي جدًّا إلى حد أنه لا يزال يثقل عليه. كان في إسكتلندا في أملاك الصيد الخاصة بأبيه. يتبع النهر الذي يشقُّ الأرض ويصل إلى شلال يسقط بصخبٍ بين الصخور السُّود اللامعة. وهو صبي كان يقفز فيه، ويقضي أيامَ صيفٍ كاملة حُرًّا طليقًا. في الحلم دخل في مرآة المياه المثلجة، عاريًا يغسلُ عن جسده الدماء التي تغطيه. ينظر إليها وهي تتمدد في دوائر، ولكنها لا تذوب على الإطلاق، بل تحوَّل كلُّ شيءٍ من حوله إلى ضباب.

عندما استيقظ كان قميصه مبلَّلًا بالعرق، على الرغم من أنها كانت ليلة باردة.

عقدَ زر السُّترة، وصرفَ العريف، وقرأ.

كلمات قليلة، ولكن ضاق بها صدره.

صاح: صمويل!

لا بد من أن يعثر على الآخرين بسرعة. ارتدى حذاءه واعتمرَ قُبَّعته:

- صمويل!

خارج الخيمة اصطدم بأوليفر:

- أين الآخرون؟

- يستريحون.

- أيقظهم فورًا.

- مرَّت ساعةٌ فقط على توقُّفِنا عن السَّير!

دفعَ ألكسندر له الورقةَ على صدره.

- إعدام.

سقطت سيجارة رفيقه من بين شفتيه. استعادها من الوحل وجففها بكمه.

- يا له من عالم قذر.

- لا. الفريقُ هارتمان هو القذر.

- مَن يدري لماذا لم أحتج إلى قراءة اسمه في نهاية الخطاب لأفهم هذا. الآن يطلب من الجميع الحضور.

- لا يستطيع أن يفوِّت علينا فرصةَ أن نكرهه.

كاد الجنون يفتك بهم، حيث أن هذا يحدث في اللَّحظة التي فيها

يحتاج الرجال، أكثر من أي وقتٍ آخرَ، أن يصدقوا بأنهم معًا، ومتَّحدون. إنْ عاجلًا أم آجلًا عليهم تسلق الخندق لخوض جولة قتالٍ أُخرى.

أيقظَ صمويل وسيسيل. كانا ينامان محتضنيْنِ حقيبتيهما، وقبَّعتاهما على وجهيهما.

نخسهما أوليفر بحذائه.

- استيقظا! يريد الفريقُ أن يقطفَ رؤوسًا.

قفز صمويل فزعًا، وجلس، واستدار سيسيل إلى الجهة الأخرى، ولكن استطاع الثلاثة أن يوقفوه.

سأل صمويل: مَن؟

- الاثنان من شاتو تياري.

الآنَ في الفرقة يعرفونهم بهذا الاسم، باسم قرية على المارن، والتي يُقال إنهما فقدا صوابهما فيها. كانا ضمن مجموعة الرماية المكوَّنة من خمسة أفراد، بمن فيهم العريف الذي يقودهم. رحلوا جميعهم في مهمة استطلاعية ليلاً، في ليلة هادئة، ولكنها لم تساعدهم على اكتشاف الألغام في الأرض. عاد اثنانِ منهم، وفوقهما بقايا الآخرين. ولم يعودا بعدها بكامل قواهما العقلية.

نظر ألكسندر إلى الحقائب الملقاة على الأرض.

- أين أندرو؟

أصبحَ الصبي الآنَ من المجموعة، لا يغيبُ عن أنظارهم قطُّ. بحث سيسيل عن قارورة الويسكي في جيبه، وشرب جرعة.

- سمعته نهض، وذهب ليتبول.

- اعثرْ عليه!

تركهم ألكسندر وذهب إلى قائده. كان الفريقُ في عمره تقريبًا، ينتمي لعائلة ذات ميراثٍ عسكري، وربما يمثل هذا حِملًا ثقيلًا جدًّا ويدفعه للمبالغة في حماسه. وافقَ على استقباله، ولكن بمجرد أن شرح له ألكسندر السبب الذي دفعه ليراه، بدا قاسيًا.

- لماذا تتعب نفسك إلى هذا الحد سَيِّدي النَّقيب سايمور؟ هذان الاثنان ليسا من فرقتك. فهما متهمان بالهروب من المهمة قبل الانتهاء من الاستطلاع. عرَّضانا جميعًا للخطر بما في ذلك رجالك.

- كانا تحت تأثير صدمة.

استمر الفريقُ في كتابة الخطاب الذي بدا وقد ركز فيه. يد على جبهته، وفوق رأسه مصباحٌ يتأرجح، مثل الخيمة التي تعلَّق بها. لم يرفع رأسه حتى.

- صدمة؟ إنه عذر الضعفاء. القيادة ليست راضية عن هذا السبب، فقد استُخدم كذريعة أكثر من مرة. أنصحك ألاَّ تذكر ذلك مرة أخرى، إذا أردت الاحتفاظ برتبتك.

لم يحفل ألكسندر، فلن يقلقه هذا.

- يمكنني أن أنتهي أنا أيضًا أمام فريق إعدام، هل هذا هو ما أخاطر به إذا تحدثت مع سيادتك؟

- احترس يا سايمور. يمكنني أن أعتبر كلماتك هذه عصيانًا. لا يوجد ما يمكن التحدث عنه. لقد خضعا للمحاكمة.

محاكمة عاجلة عُقدت في الليل. مَن استدعوهما ليحكموا عليهما كانوا يعرفون أنهم سينزعون عنهما الحقَّ في الحياة دون أن يستطيعوا القول إنهم يعملون من أجل العدالة، ومَن يستترُ باللَّيل لصٌّ.

صكَّ ألكسندر أسنانه.

- هذان الرجلان ليسا في حالة تسمح لهما بالدفاع عن نفسيهما.

- وهل تريد حضرتك أن تفعل هذا؟

- لم لا؟

- لا تكن سخيفًا.

- الرعدةُ تهزهما من رأسيهما إلى أقدامهما، كادا يحطِّما أسنانهما من شدة الارتجاف. عدم النوم، وكوابيس مستمرة تكاد تفقدهما عقليهما. إنهما ليسا سوى شبحيْن، أحياء نعم، ولكن كشبحيْن.

وضع الفريقُ الريشةَ ثم نهض. هندمَ زِيَّه بحركةٍ من يديه.

- أنت محق. سرعان ما سيصبحان شبحيْن بالفعل.

خرج من الخيمة، تاركًا إياه بمفرده مع غضبه. شعر ألكسندر بغضبه يقبض على عنقه، وينبض في معدته. شعر بغضبه يعبُر عضلاته حتى يبسطها، وصحب ذلك شعورٌ أعمقُ -ولكنه بنفس القوة- بالشفقة.

خرج هو أيضًا. عندما رآه أوليفر وسيسيل، أمسكاه من ذراعيه، وتوقف صمويل في مواجهته.

- لا تصنع من نفسك شهيدًا. لم يعد هناك ما يمكن عمله.

تحرَّر ألكسندر من قبضاتهم.

- ماذا عن المحاولة؟ لم يحاول أن يتدخل أي من رفاقهم، على حسب علمي. لم يشهد أي منهم على الحالة التي وصل إليها هذان البائسان.

تفل أوليفر على الأرض، وأشعلَ سيجارةً.

- لا يريدون أن يجدوا أنفسهم على الجانب الخاطئ من فوَّهة البندقية.

وكانت الخطوة التي قد تُنهي حيواتهم قريبة دائمًا. يطلبون من الجنود التقدم بجسارةٍ، ولكن الحقيقة هي أن الخوف كان يضغط على صدورهم بقوة أكثر، ويدفعهم نحو التراجع. في تلك اللحظات لا توجد أي قوة داخلية قادرة على إقناعهم بأن هناك ما يستحق التضحية بحيواتهم لأجله. لا يوجد، أبدًا، ما يستحق ذلك.

عندئذ انسحب، وتوجه صوب ميدان الإعدام، الذي كان في تلك الليلة جدارًا من أكياس الرمل مدعَّمة بعوارض، والذي اقتيد إليه الخائنان ليقفا في مواجهته، وكأن عليهما استقبال موتهما فرحيْن.

اصطفت فرقة الإعدام. صفٌّ من رفاقهم وإخوتهم، صفٌّ من عشرة جلاَّدين متأهبينَ والبنادق إلى جوارهم. من بينهم جنديٌّ يرتعش، كان أندرو.

شتمَ سيسيل:

- ذلك الفريقُ القذر.

انطلقت الصفارة لإعداد السلاح وتلقيمهِ ثُمَّ التسديد.

أفسحَ ألكسندر والآخرون طريقهم بين الجنود حتى وصلوا للفسحة.

لم يتحرك أندرو. كانت البندقية لا تزال بين يديه، ولكنها مُصوَّبة باتجاه الأرض، بينما بقي هو مطأطئ الرأس. اقترب منه الفريقُ هارتمان. وصاح في أذنيه:

- لقِّمْ! أيُّها الجنديُّ، لتلقِّمْ تلك البندقية!

رفع أندرو رأسه، ونظر إلى البائسيْنِ اللَّذيْنِ يتقدمان نحو الأمام، وقال الشيء الأخير الذي استطاعه:

- لا أستطيع.

التفت صمويل نحو ألكسندر:

- لقد ضاع.

سيضيع بالفعل إذا لم يطلق النيران، ويطيع، ويَقتل. سيضيع بالفعل إذا لم يتَّسخ بنفس الروث الذي اتَّسخَ به من يأمره بالتجرُّد من رحمتِهِ.

لم يكن أمام ألكسندر شيءٌ آخر يفعله، ليجنبه طقس العبور إلى الجهة الأخرى، نحو جهة البالغين، تلك الجهة الملوَّثة بالشَّر.

لم يكن أمامه سوى إنقاذ حياته، وخسارة نفسه.

نادى عليه بصوتٍ يرتعدُ بالغضب.

ارتعدَ أندرو، دامعًا، وضائعًا.

آزرهُ ألكسندر مرةً أخرى:

- أيها الجنديُّ، لقِّمْ سلاحك! سيادةُ الفريقِ يأمرُك بهذا.

ثم وقف وراءه، وصاح فيه مجدَّدًا:

- لقِّمْ!

لقَّمَ أندرو سلاحه.

أعطى الفريق الأمر بإطلاق النار، ونفَّذَ أندرو. وكانت الصرخة التي أطلقها بعدها هي صرخة البراءة الممزَّقة، التي تعرضت للخيانة، وانتُهكتْ. صرخة إدانة حجبَها صوتُ الرصاص.

أغمض ألكسندر عينيه. والثقل الذي شعر به في قلبه لن يتركه بعدها، أبدًا. سيحمله كلاهما.

انتهى كل شيء في لحظة بمجرد أن سقط الجسدانِ. تفككت الكتيبة على الفور، وأصبح الفريق بالفعل ظلًّا يبتعد، ولكنه قبل أن يختفي بحث عن ألكسندر بين الحضور ليحذِّرَه هامسًا في أذنه:

- لديك عنصرٌ مضطربٌ في فرقتك، احرص على ضبطه!

مكث أندرو متسمرًّا في مكانه فقط، أمام مسؤولية ما اقترفه للتَّو. خفف قبضته عن بندقيته وسقط على ركبتيه، وأخذ أنينٌ خافتٌ يتصاعد في صدره ويتدفق متقطِّعًا في حنجرته.

ابتعد المتفرجون. مكث الممرضون وفحص الطبيب الصريعيْن، وتراجع على الفور بضعَ خطوات للخلف.

هدَّأ ألكسندر أنفاسه، وتقدَّم نحو المذبحة. انحنى على الجسديْن، وأغلق أعيُنهما. كان أحدهما يقبض على صورة امرأة بين يديه.

لم ينقطع أنينُ أندرو.

قال سيسيل: أوقفه يا صمويل، وإلاَّ سيلقى المصير نفسه.

أوقفه صمويل على قدميه:

- تشجَّعْ يا فتى!

نظر ألكسندر إلى السماء. الكواكب تشير إلى اتجاه يشعر هو بأنه فقده.

همس إلى الريح التي لا تزال تفوح برائحة الرَّصاص والدماء:

- ماذا أصبحنا؟

لاحظ أوليفر عَقِب السيجارة يشتعل بين إصبعيه. لم يطفئه، نظر إليه يحترق ويُطفأ، مثل العقل على تلك الأرض التي تبدو وقد سُلمت للوحوش.

- سننجو. لا يمكننا سوى ذلك.

١٤

باريس، ١٨ سبتمبر ١٩١٤

انطفأتْ أنوار باريس بالفعل منذ بضع ساعات. مرَّ منتصف الليل في الصمت واليأس غير العاديين لحظر التجوال. على طريق الشانزلزيه تُسمع أغنيةُ حفيفِ الأوراق الجافَّة تذروها الرياح.

أعدَّتْ نفسها للَّيلِ. ضفرت شَعرها وربطته بشريطِ آنًا. يمكنها أن تشمَّ عطرَ ابنتها، تلك الرائحة التي تفوح بالحياةِ والأمل، وحب خاص يملؤها، ولكنه في الوقت نفسه يجعلها هشَّة.

اندستْ تحتَ المُلاءات عندما وصلت غريس. هي أيضًا كانت ترتدي قميص نومٍ وقد لفَّتْ شَعرها حول بكرات من المعدن لحفظ تموجاته، ولكن أرادت أن تنزل لتلقي النظرة الأخيرة على المرضى الذين أجْرت لهم جراحةً اليوم.

- ينامون بهدوء. لا توجد حرارة ولا هذيان. إما أنني ماهرة، أو أن موراي بالغت في جرعة الكلوروفورم. وحاليًا، كِلا الافتراضين لا يسببان لي أي ضيق.

ثم تمددت:

- قدماي متورمتان، يا إلهي. انظري هنا.

التفتت كيت نحوها.

- أشعر بظهري قد تكسَّر.

- آه، أجل، وهذا أيضًا.

- لا بد أن نجد طريقةً نرفع بها طاولات الجراحة.

- سيكون أول شيء نطلبه غدًا.

وضعت غريس يديها المعقودتين خلف رأسها. لم تطفئ المصباح الجانبي.

أشارت نحو طاولة السرير الجانبية:

- جميلٌ جدًّا ما رسمته ابنتك. سبق وقلت لك هذا، أليس كذلك؟ رَسَمَتْك جيدًا بالفعل.

أغلقت كيت عينيها للحظة. وحاولت أن تمزح:

- لا أشعر أنني بهذه الروعة الآن.

- وكيف تشعرين؟

- مثل واحدة تقدمت إلى الأمام و...

لم تستطع أن تنطقها. أكملت غريس نيابةً عنها.

- ... وتركت ابنتها وراءها؟ إذا كان هذا ما تفكرين فيه فأنت مخطئة.

- كم أتمنى أن أكون بهذه الثقة.

أسندتْ كيت رأسها إلى مرفقها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- أنت رمز بالنسبة إليها. وهذا هو الشيء الأهم. عيناها تريان ما تفعلينه. تريان الشغف والتضحية. لا توجد مدرسة ولا مُربية يمكنها أن تقدم لها ما تقدمينه أنت، حتى وإن كنت بعيدةً الآن. فأنت تقدمين لها الإمكانية، والحرية، وأن تختار لنفسِها.

ضمَّت كيت الوسادة إلى بطنها.

- هل تعتقدين ذلك حقًّا؟

- نعتقده جميعًا.

- حتى دكتورة موراي؟

ابتسمت غريس.

- بل هي على وجه الخصوص. إنَّها امرأة ذكية، تهتم بالفعل بكل النساء الأُخريات. أعرف أن الأمر قاسٍ بالنسبة إليك بشكل مضاعَف. لا تستسلمي يا كيت!

- أنا لم أغير حياتي فقط. أحيانًا أرغب في ألاَّ أحملَ معي ثقلَ هذا الاختيار.

- إذا دعمتني أمي في حياتي وفي اختياري، كنت سأشعر بأنَّ هزيمتي مستحيلة. إلاَّ أن الأمر بالنسبة إلي كان قاسيًا، كنت وحيدةً، وكثيرًا ما شعرتُ بذلك يثقل عليَّ. ولكن لتتذكري ما قالته لنا مدام ديكورسيل، وهي تنطلق كالسهم بسيارتها الأجرة؟ أفكر فيه كثيرًا. فنحن حقًّا لسنا بمفردنا. نحن كثيرات. وسيزداد عددنا بالتأكيد، أيضًا بفضل تعبنا هذا المساء، والخوف أننا وجدنا أنفسنا أمام مشروع جديد.

أحدهم طرق الباب، وبعدها بقليل أطلَّت هيزيل.

- هل يمكنني الدخول؟ رأيت النور ينبعث من الغرفة.

نهضت غريس وألقت ببعض الفحم في المدفأة. كانت ليالي باريس باردةً بشكل استثنائي.

- ادخلي! أنت أيضًا تجدين صعوبةً في النوم؟

جلست هيزيل على سرير صديقتها، وفتحت روب النوم، وكشفت عن زجاجة نصفها ممتلئ ولفة من ورق فضي.

- أنا منهكة جدًّا إلى حد أنني لا أستطيع أن أغمض عيني. ولا أستطيع أن أفعل شيء سوى أن أتساءل أين بحق الجحيم اختفى جهازي لأشعة إكس. هل يبدو ذلك طبيعيًّا، لكما، في هذه الساعة من اللَّيل.

اقتربتْ غريس منها.

- ماذا أحضرتِ لنا؟

- علاج كل عطب وقلب وعقل. براندي وشوكولاتة.

وزَّعت على كلِّ واحدةٍ قطعةَ شيكولاتة، ونزعتْ غطاء الزجاجة بأسنانها، وأعطتها لكيت.

- تشجَّعي يا ماما، لقد تفوقتِ على نفسك اليوم.

وافقت كيت على إكسير الحياة.

- كنت أشعر بأنني غير مستعدة، لم يحدث لي هذا منذ زمن.

- تأكدي أننا جميعًا شعرنا بذلك.

شربت كيت رشفة، وشعرت بالسائل العنبري يحرق حنجرتها ويصل إلى معدتها، حيث أشعل حريقًا جعلها تلهث ولكنه دفأها أيضًا.

بدورها اقترحت غريس نَخْبًا وهي تشرب: في صحتنا. مضى الأسوأ مع آخر جِراحة قمنا بها اليوم.

أكلت كيت الشيكولاتة.

- هل حقًّا مضى الأسوأ؟

بدت هيزيل مقتنعةً.

- بالتأكيد. لم يعد بإمكان شيء أن يفزعنا. هل رأيتهم؟ لم يحضروا لنا مجرد جرحى. لقد أحضروا لنا أشباه جثث. ولكن لا بأس، استطعنا أن نقوم بواجبنا، بل وأكثر. فهم لا يزالونَ على قيد الحياة، ونحن هنا نشرب نخبَ هذا.

أخذت الزجاجة من غريس ورفعتها:

- الأخير الواعي من بينهم بدأ يصرخ ويركل عندما عرف أنني أنا الطبيب، امرأة. كان يصرخ أنه يريد طبيبًا حقيقيًّا، أي يريدُ رجلاً. كان يحتضر ولا يفكر إلاَّ في هذا.

نظرت إلى نقطة في مواجهتها، وكأنها تستعيد المشهد، ولا تصدق حتى الآن، ثم قضمت قطعة الشيكولاتة:

- قلت له إنه يخاطر بأن أقطع له لسانه بالمشرط إذا استمر في الحركة. عندئذ أخذ يتوسل ألاَّ ألمسه. وفكرت أن أقطع له لسانه بالفعل.

ضحكن، وشربن من جديد نخبَ شجاعتهن، والارتجال المقدس المقدَّر لبعض النفوس قيادته، وليس اتِّباعه.

خارجَ النافذة بدا الظلامُ أقلَّ كثافة. نظرت كيت لرسم ابنتها وأخيرًا بدأت ترى بعضًا من نفسها فيها. وقالت:

- كنا غير مستعدات، ولكن العديد من أولئك الرجال لم يكونوا مستعدين لرؤيتنا. سيعتادون على هذا. منذ الآنَ يستحيل أن يجبرونا على خطوةٍ واحدة إلى الخلف.

١٥

باريس، ١٧ أكتوبر ١٩١٤

مضى شهر على الوصول إلى باريس. وصلت خمسة رسوم، والسادس بالتأكيد في الطريق، وما زالت حقيبة كيت مغلقةً في الخزانة.

لم تبدأ الإعداد للعودة إلى المنزل، لم يكن لديها الوقت الكافي، بين العمليات الجراحية التي تستمر من الصباح إلى المساء، والأدوية المعقدة، لتحاول أن تصارع الغرغرينا التي انتشرت أكثر بين المصابين الجدد. بينما الاجتماعات -التي ينبغي عليهن فيها تقرير ما إذا كان للمريض فرصة في النجاة أم أنه هالكٌ لا محالة- كانتْ تسرق ما يتبقى لديها من وقت.

في المستشفى الإضافي، رقم ١٧٣، كانت جِراحة الحرب بالفعل إجراءً يوميًّا، مثلها مثل المصادمات مع الجنود المتعافين. كان يكفي أن يستردوا بعض الأنفاس في حناجرهم، ربما آخر الأنفاس، حتى يتمردوا على فكرة أنهم انتهوا بين يدي طبيبات من النساء. كان الخوف هو ما يدفعهم إلى الصياح، رأته كيت مرسومًا على الوجوه الملطخة. كانوا مقتنعين بأنهم أُرسلوا إلى هنا ليتلقوا درجة أدنى من الرعاية. بعد بضع ساعات تهدأ الصرخات ويبدأ المرضى في مراقبتهنَّ بصمت، دون أن

يفقدوا حركات لا معنى لها من أياديهنَّ، كما يفعل المرء مع عدو له يتشارك معه في المصير. كانوا يصمتون محاولينَ فهم أقدارهم بين الهمسات.

ولكن بدأ التغيير يتخذ مساره، وبدا لكيت أنها تشعر به يتقدم على أجساد أولئك الرجال الذين تتفاعل معهم. جسور متحركة بدأت تعمل ببطء.

بدأت كيت نوبتها مبكرًا، قلقة على حالة أحد الجنود الذين أجْرت له جراحةً اليوم السابق. أثناء الليل التهمته الحمى دون أن تتمكن أي حقنة خافضة للحرارة من أن تؤثر عليها.

يمكن أن تكون الحمى أمرًا جيدًا، تذكَّرتْ جدتها الإيطالية، ولكن يجب أن تعرفي كيفية التعامل معها، مثل مشرط قاطع.

زارته خلال فترة الهدوء الذي يسبق الأنشطة اليومية. نزعت ضماداته، وفحصت الجرح في بطنه. لا توجد آثار تلوث. وانخفضت الحرارة.

فتح جفنيه، رمش لمرتين أو ثلاث مرات قبل أن يدقق النظر. كان جنديًّا إنكليزيًّا حارب على المارن.

نظر إليها بالطريقة نفسها التي نظر بها إلى أولغا وغيرترود وهما تضعانه على طاولة الجراحة، وكأنه يرى ملاك الموت. لم تشعر كيت بأي غضب، بل كادت تبتسم.

قالت له: هذه المرة عفوت عنك.

لم يبد أن الرجل قد فهم، ثم فجأة توقدت نظرته. ابتسم هو أيضًا ابتسامة سريعة، قبل أن يغلق عينيه من جديد ويغطَّ في النوم.

رتبت له كيت الأغطية والوسادة، وأعادت ترتيب شعره بأصابعها. كانت بشرة وجهه مليئة بالثقوب. استغرقها الأمر ساعات لتنزع كل شظية صغيرة اخترقتها، ولكن ستظل الندبات على وجهه. سيحمل هذا الرجل إلى الأبد على وجهه رعبَ قذيفة شربنل انفجرت فوقه، وآثارَ حربٍ لن تكتفي بأن تبقى فقط على سطح جسده.

- تجربة غير معتادة برؤيتهم هكذا، ضعفاء وبحاجة إلى العناية.

تستند فلورا على حلق الباب، ووجنتها مستندة على الإطار الخشبي. بدت وكأنها تسهر على نوم الجندي. تحدثت بصوت خفيضٍ، ولكن كيت كانت منتبهة جدًّا، وانتفضت. من النادر سماعها تتحدث بحميمية هكذا. لحظات الثقة تباعدت كثيرًا، وقلَّت، في خِضم السرعة المستمرة التي يفرضها عليهنَّ إيقاعُ العمل. تركتها تكمل.

- ولا يحتاجون فقط إلى عناية طبية، بل إلى رعاية أيضًا. وأنا معتادة مع الرجال على مصارعتهم فكريًّا، وليس على مواساتهم.

لم تعرف كيت كيف تتعامل مع ذلك الاعتراف.

قالت بحذر: الآن، نحارب معًا العدو نفسه. ربما تكون هذه بداية جديدة، لنا ولهم، ألَا تعتقدين هذا؟

- ربما.

بدت نبرة الصوت تعارض الأمل.

- سنعرف في أقرب فرصة إذا غيَّروا هم أيضًا من مواقفهم.

- ماذا تقصدين؟

- نحن على وشك تلقِّي زيارة، والتي من الأفضل أن أسميها تفتيشًا. لديَّ ما يدعو إلى الاعتقاد أن أولئك الرجال سيُستدعون للشهادة حول عملِنا. انضمي إلينا في البهو بعد الانتهاء. جمعتْ الأُخريات أيضًا.

وألقت نظرة أخيرة على المريض. نظرةً حذرة، متباعدة، ولكن ليست عدائية.

- كما قلت، سرعان ما سنعرف إلى مَن نقدم يدَ المساعدة.

١٦

- سيزورنا لورد ردجينالد باليول بريت، إنه الفيكونت إشر الثاني. سيزورنا في إطار بعثة استكشافية.

تقف فلورا مستقيمة أمامهن كما تفعل في التجمع الصَّباحي لتوزيع المهام، وتشرح بصوت متماسك، ذلك الذي يمكن أن يمثل نهاية كلِّ شيء بالنسبة إليها وبالنسبة للويزا وكل سيدات الدابليو إتش سي.

سألت هيزيل:

- بعثة؟ مِن قِبَل مَن؟

- آه، من المستحيل الوصول للاسم الأخير، حتى وإنْ لم يكن من الصعب تخيله. لورد إشر هو مستشار جلالةِ الملك جورج الخامس للشُّؤون الحربية. باختصار، إنه هنا ليتجسس علينا.

- ولكننا لسنا جزءًا من الهياكل العسكرية. نحن هنا بفضل الصَّليب الأحمر الفرنسي.

- وربما هذا ما بدأ يصبح مسألة مزعجةً في الوطن. وكأنني أستمع إلى تبرم السادة الأعزاء بين نَفَس من السيجار وآخر:

لماذا يتوجَّب على النساء الإنكليزيات المكوثُ في باريسَ؟ لماذا يجب عليهن إثبات أنهن مساويات للرجال، وتحت حماية فرنسا؟ يتحدث الجميع عن ذلك كثيرًا.

تلحق بهن أولغا لاهثةً:

- آسفة على التأخير. مَن يتحدث عنَّا؟

مررت لهن فلورا عن طريق لويزا بعضَ مقتطفاتٍ من الصحف.

- الصحافة يا عزيزتي، والانتباه الزائد ليسا دائمًا أمرًا جيدًا. أخشى أنني أخطأت عندما قبلت زيارة الصحفيين الفرنسيين. بدأوا هم ذلك.

منذ أن أتوا، كانت مدام بيروز تأتي تقريبًا كل يوم ومعها ملاحظين خارجيين، فخورة *بنسائها* الإنكليزيات، كما كانت تطلق عليهن. أعادت فلورا تنظيم المقالات وتنحنحت:

- كلها مديح لنا يا زميلاتي. يُعرِّفون عملنا بـ«لا يُصدق» و«لا غُبار عليه». وعناوين المقالات تُبرز كيف أن هذا المستشفى يدرنه النساء حصريًّا. يبدون وكأنهم لا يصدقون أنفسهم، حتى بعد أن رأوا كلَّ شيء بأعيُنهم. بطبيعة الحال، لا يمكن ألا يكون الزملاءُ الإنكليز أقل فضولًا منهم. كتبوا عنَّا على صفحات الـ*«جلوب»*، و*«الدايلي ميل»*، و*«بريتش ميديكال جورنال»*. ويمكن أن أقول إنهم كتبوا بطريقة حماسية، حتى وإن كانوا مضحكين رغمًا عنهم، فقد كتبت جريدة الـ*«دايلي سكتش»*: المساعدة في التمريض أمر طبيعي للنساء، ولكن لسنَ يتمتعنَ،

جميعهن، بالهدوء والأعصاب الحديدية اللاَّزمينِ كي يصبحن طبيباتٍ.

سرعان ما انطفأت الضحكات التي تسببت فيها العبارة، وتحولت إلى ابتسامات مُرة.

هزت هيزيل رأسها:

- لا أفهم. بغض النظر عن بعض الملحوظات الفجة لبعض الصحفيين، هذا ما نريده، أليس كذلك؟ أن يعترف الناس بقدراتنا.

أعادت فلورا المقالات للويزا.

- أخيرًا أدركت الحكومة الإنكليزية وجودنا، هذا أمر مؤكَّد. الآن تريد أن تعرف ماذا نفعل، والأهم «كيف» نفعله. لقد حطَّمنا نظامًا عريقًا يا رفيقاتي العزيزات. إليكنَّ ما يقلقهم. يريدون أن يفهموا كيف يمكن لهم الاحتفاظ بمزاياهم. لا تخدعن أنفسكنَّ: لا يزورنا لورد إشر لأنه يعترفُ بوجودنا؛ بل ليفهم كيف يمكن له التخلُّص منا.

جذب انتباهها تحرُّكًا على قمة الدَّرَج. لقد حضر السيِّد أمور حوارها، وهو يستند بجانبه على عامود من الرخام، يداه معقودتان على صدره الذي تركه عاريًا فلم يعقد أزرار قميصه. حدَّق كلٌّ منهما في الآخر، ثم حيَّاهم بإشارة وانسحبَ إلى حجرته، حيث كان يقضي فيها معظم وقته، ويستقبل فيها شابات وجوههن مغطاة بمساحيق كثيفة.

عندما عادت فلورا لتلتفت ناحيتهم، بدا تعبير وجهها يقول:

هل رأيتن؟ الأعداء يراقبوننا وسرعان ما سيتحدثون. قامت ببعض الخطوات الدائرية، يد على خصرها النحيف، وأخرى مستندة على قلبها، وكأنها تحاول الاحتفاظ به داخل صدرها. فقدتْ الكثير من وزنها خلالَ الأسابيع الأخيرة، ولكن لم يتسبب ذلك في شحوبها، بل على العكس أصبحت أكثر حدَّةً.

- يعرفون أن ما نفعله، الآنَ، في هذا المستشفى سيغير وضعنا إلى الأبد حتى في إنكلترا. وعندما أقول وضعنا، أقصد كلَّ النِّساء.

نظرت إليهن واحدةً واحدة، وبدا أنها توقفت أمام كيت:

- إذا استطاعوا أن يصادروا انتصاراتنا التي انتزعناها في ساحة المعركة، فسيفعلون ذلك. كُنَّ على استعدادٍ إذن لتتمسكن بانتصاراتكنَّ. من أجل أنفسكنَّ، ومن أجل الأُخريات من بعدِنا.

كان خطابُ فلورا دعوةً متحمِّسةً لكلٍّ منهنَّ إلى التسلح، دعوة للمسؤولية الشخصية التي لا بد أن تتحوَّلَ إلى مسؤولية جماعية.

تحجرت كيت. كيف يمكنها أن تتركهن في هذا الوضع بعد بضعة أيام لتعود إلى بيتها؟

١٧

يبر، بلجيكا، ١٧ أكتوبر ١٩١٤

ترفقُ كارولين صورةً لها مع خطابها. مرر ألكسندر إصبعًا عليها وكأنه يربت عليها، في محاولة لإلغاء كل بقعة غير مرغوب فيها. أظهرت البشرة المنيرة جسد خطيبته ناصع البياض.

شعر بخجلٍ لا داعٍ له. فكفُّه لم تعد نظيفةً حتى بعد دعكها بقوة. اللَّون الأسود يتخلل خطوطها، ويمتد ليتخلل وجوده بأكمله. مَن يدري كيف ستفكر في هذا، كارولين ناصعة البياض. كان ينظر إليها في صورتها بالأبيض والأسود وكأنها أمامه، عيناها صافيتان، ولكن ربما تكونانِ فارغتينِ.

يتساءل ألكسندر إذا كانت قد *رأته* بالفعل من قبلُ، وإذا كانت تعرفه كما ينبغي لخطيبةٍ أن تعرف خطيبها، بكلِّ نواياه المسكوت عنها -التي لمْ تكُن سِريةً قطُّ- وبكلِّ الهشاشة التي لا تحتاج اعترافًا بها، لأنها ستكون مفهومة ومغفورةً على الفور.

وكما طلب هو، أرسلت كارولين له مأكولات، وكلمات حماسية لغرض تشجيعه.

وكانت أطايب الطعام مغلفة في عبوات أنيقة عليها ختم Fortnum & Mason، المتجر الرسمي للعائلة الإنكليزية المالكة.

أخذ ألكسندر ينظر إليها. شعرَ للمرة الثانية بالخجل، ولكن ليس من نفسه. أمسك بالمغلَّفات وبدأ في حلها، ملقيًا بالورق ذي اللون الأخضر الباستيل في المرجل ليدفئ الخيمة. ارتفعَ اللَّهيب ليبتلعها. كانت الريح تهب بشدة في تلك الأمسية، وتعيد تنظيف الأرض والسَّماء، وتُظهر أكثر غروب ملتهب يشهده ألكسندر.

أطلَّ إلى خارج الخيمة، وأوقف عريفًا، استطاع التعرف عليه، ويُعده حتى الآن بريئًا ولن يسرع إلى السوق السوداء التي بدأت تزدهر في الخنادق. أشار إليه بالسلال وطلب منه توزيع الطعام والمأكولات على رجال الفرقة.

- خذ معك اثنين من المساعدين. وليحصل كل جندي على شيء ما، ولا تفقد أي شيء في الطريق. سأعتبرك المسؤول.

لم يحتفظ بأي شيء لنفسه. ارتدى معطف وخرج في الظلام. عبْر معسكر قوامه مخلوقات نحيفة وجائعة. بعد شهرين من بداية القتال، أصبحت الوجبات الساخنة محضَ سرابٍ. حصة الإعاشة تتكون من لحم مقدَّد، نصف رغيف، وحصة من البسكويت، قاسية إلى حد أنه لا بد من سحقها بكعبِ البندقية، أو تركها لتذوب يومًا كاملًا في الشاي النتن. ولكن نادرًا ما تصل تلك الحصص كاملةً للفِرق، أغلب الأوقات يُستولَى عليها في الرِّحلة لتصلَ أولًا إلى الصُّفوف الأولى.

الجوع. لا يمكن لألكسندر أن ينسى هذا أبدًا، على الرغم من أنه

نجا منه. لم يكن ذلك الوهن الذي يشعر به المرء وهو في أمان داخل بيتٍ ما، ولا الاشتهاء لمعدة اعتادت على تلقي الطعام فورًا بمجرد الرغبة فيه، بل ذلك النقص المستمر الذي كان يحفر، ويحفر أكثر، وأكثر.

أثناء مروره، يحيِّيه الرجال بالتحية العسكرية، وهم متلاصقين يتحلقون حول النيران التي أشعلوها ليدفئوا عظامهم وغلاية الشاي. تضعفُ الأيادي التي يرفعونها على جباههم للتحية، تضعف يومًا بعد يوم.

لمحَ أوليفر وسيسيل خلف شعلة نارٍ ضعيفة. كانا يلعبان الورق، بعد أن انتهيا لتوهما من نوبة الحراسة، بينما بدأ صمويل نوبته. وخلفهما جندي يعذبه القمل يغلي المياه التي جمعها من عمق حفرة تسببت فيها قذائف. تلك الخاصة بالشرب توزَّع في حصص.

أدرك أوليفر وجوده، ولكن ألكسندر أشارَ له بأن يبقى جالسًا. قرأ الصديق السُّؤال على شفتيه، وتحرك بعض الشيء ليريه الفتى الذي ينام بجواره. التحف أندرو بلحافهِ، وكان حتى تلك اللحظة لم تمسك به الكوابيسُ -التي تعذبه منذ يوم الإعدام- بعدُ. بل إنه بدا هادئًا، وحزينًا بعض الشيء. في عالم الأحلام الذي هو فيه الآنَ، لم يطلقْ قطُّ الرصاصةَ التي أمراهُ الفريقُ وألكسندر بإطلاقها. كانت حياةً شابة مشوَّهة ومجروحة، تلك التي يحاول ألكسندر أن يبعد نظرته عن تفحُّصها.

تجاوزهم، مسرعًا الخطى. لم يرغب بأي صحبة في تلك الليلة. الذنب يسكنه ويملأ كل مساحة بينه وبين الآخرين. كان يتخذ شكلًا خاصًّا به، ويشعره بوجوده.

وصل حتى الحاجز الأخير في الأرض الحرام. نظر من موقع رماية، مربع صغير جدًّا يطلُّ على الظلام، تنفس بعمق رائحة ساحة المعركة.

تمنَّى لو أن الغثيان يساعده على أن يذيب ما بداخله. فهو لم يخلق تلك الجبهة، بل يعاني منها، مثل الآخرين، ويحاول أن ينقذ منها ما يستطيع إنقاذه من نفسه والآخرين. ولكنه كان واثقًا من شيءٍ واحد: لن يعود أي منهم سليمًا. لن يموت أي منهم بريئًا.

منذ أسابيع انتشرت قصةٌ بدأت تلهبُ النفوس حماسةً. أحدهم في إنكلترا كتب أن الانسحاب من مونس كانت تحميه فرقةٌ من الملائكة، أو ربما من أشباح الرماة الإنكليز القدماء الذين حاربوا وانتصروا في أرياف الآزينكور، قبلهم بقرون. شاعَ الخبر حتى وصل فرنسا ومنها إلى بلجيكا. والشهود على ذلك مستعدون للقَسَم بأنهم رأوا أعدادهم تتزايد يومًا بعد يوم.

ربما مَن كتب هذا الخبر كان يؤمن بذلك فعلاً، ولكن ألكسندر لا يشك في أن الدعاية العسكرية للحكومة استغلت الأمر، وأخذت تنفخ في نيران الحماس الجماعي.

لا يمكن أن تدخل الملائكة إلى الجحيم، فقد خرج هو ورجاله من بين الحطام المشتعلة في مونس، بمفردهم. والآن ها هم في يبر. مدينة أخرى تسقطُ في الحطام مع الحضارة التي أقامتها. الرَّبُّ وحده يعلم كم من المدن الأخرى ستتحول إلى رمادٍ قبل أن تنتهي هذه الحرب. رماد سيختلط مع ملايين من العظام.

مر بجواره ضابط الحراسة، وتوقف وأشعل سيجارةً. كان صمويل:

- هل تريد نَفَسًا؟

- لا، شكرًا.

استند صمويل على الحاجز.

- إلى ما تنظر؟ لا يوجد سوى اللَّيل في الخارج، اللَّيل والأعداء الكامنون.

- لا يحب الألمان الظلام. نادرًا ما يهاجمون فيه. إلاَّ أن قناصيهم يعذبوننا بعد الغروب، فهم يستترونَ به حتى الفجر. إلاَّ أنني أحيانًا أقنع نفسي بأنني أراه، في الشعلات الأخيرة للهب الإشارة.

- مَن؟

- ذلك الذي مثلي، يترقب من الجهة الأخرى.

أخذَ صمويل نَفَسًا عميقًا، سمع على إثره أزيزَ ورق السيجارة المحترق.

- وماذا يمكنك أن تقول له؟

- لا شيء، لأنه لا يساوي شيئًا، مثلي. نحن نتلقى الأوامر ونعمل على تنفيذها.

ألقى صمويل السيجارة. نظر هو أيضًا بنصف عين للظلام، لم يرَ شيئًا.

- أما أنا فأشعر دائمًا بنظرة أولئك القناصين فوقي. هم لا يطلقون، حتى الآن، الرصاص في الليل، ولكنهم موجودون. لا يبعدون قبضاتهم عن الزناد، أبدًا.

حصدَ أحدُهم بالفعل الكثير من الضحايا، تسعةُ رجال من الحراسة هذا الأسبوع فقط.

كانت مشكلة تؤرق ألكسندر منذ أيام.

قال: لا بد وأن نتخلص من هذا الشيطان، لا يمكننا الانتظار أكثر من هذا. أعتقد أنني أعرف أين يختبئ.

قفز صمويل من مكانه.

- لنفعل هذا ونتخلص منه، أنت وأنا وأوليفر وسيسيل.

- أجل في أقرب فرصة.

لم يَعد صمويل على الفور إلى مناوبته. تردد.

فتش في جيبه الداخلي ووضع شيئًا صغيرًا للغاية يستقر في الكف. صليبًا خشبيًّا، فقد كان النحت هوايته. في ليالي السهر حول النيران كان يُرى دائمًا بسكين صغيرة في يده، يحفر ويكشط.

- عِدني بشيء يا ألكسندر.

- لا يبدو لي شيئًا جيدًا.

- إذا وجدتني يومًا في خطر، ولا أشك في حدوث ذلك، اتركني واذهب.

تظاهر ألكسندر بالضحك.

- يمكنني أن أُبلغ عنك الفريقَ بتهمة الانهزامية أيها الملازم.

- أنا لا أمزح.

- لا تنطق بكلمةٍ أخرى يا صمويل.

ورأى أسنانه البِيضَ تلمعُ في الظلام.

- منذ متى ونحن أصدقاء؟ لقد كنت تشعر بالمسؤولية عني مُذ كنا أطفالًا.

- لم يَكْف.هذا لتتجنب كسر أنفك وذراعك.

- بالفعل، ولكن تحت تلك الشجرة كنتَ موجودًا وحاولت أن تمسك بي. لم يعد ممكنًا أن تفعل ذلك يا ألكسندر، ليس هنا. لن يمكنك أن تخفف عني كلَّ سقطة.

عدل بندقيته على كتفه:

- لا يمكنك أن تنقذنا كلنا، وبالتأكيد لن يمكنك أن تنقذ ضميرك. لا يمكن لأيٍّ منا هذا. يكفي أن نظل أحياءَ.

تحرك الظلام أمامهما. كان يمكن أن يبدو كامرأة تتقدم نحوهما، ملاك الموت يصل، إلاَّ أنه لم يكن سوى عمود دخان من لحمٍ يحترق تدفعه الرياح.

على كل حال سرعان ما ستبدأ الأرض في التحرك، تهتز ويُسمع صريرها، وسيستمر ذلك حتى أضواء الفجر الأولى.

كانت الجرذان ضخمةً. تخرج في الغسق من الأعماق الطينية لطبقات الأرض وتتغذى على الجثث الآدمية.

١٨

باريس، ٢٠ أكتوبر ١٩١٤

طرقتْ كيت بقوة على باب الغرفة. عندما قرر السيِّد أمور أن يفتح، ظهرَت خلفه شابتان ممددتان على الأريكة، على الكاحلين العاريين لكلٍّ منهما أساورُ وأجراسٌ. رفعت كيت نظرها.

- لورد إشر على وشك الوصول. ارتدِ ملابسك بحقِّ السَّماء!

- وأنتنَّ اهدأنَ! فأنا تقريبًا جاهز.

عقدتْ له أزرار قميصه:

- سيِّد أمور، لم يكن أمامنا وقت طويل لنصبح أصدقاء، ولكن صدقني إذا قلت لك أن هذا الوضع يزعجنا كما يزعجك تمامًا. ولربَّما يعتمدُ مستقبلُنا على هذه المقابلة.

- أُدرك ذلك.

- هل تعتقد أنه بإمكانك أن تنحي جانبًا... ما أنت عليه للحظة، وتتظاهر بأن ما نفعله نحن يمكنه أن يكون مهمًّا لك ولفرنسا، هل تساعدنا في ذلك؟

- لم أفهم.

- أقسم لك، نحتاج إلى صديق.

أمسك هو بيدها، لفَّها، وقبَّلها على كفها.

- أنا موجود، في خدمتكم.

شدت كيت يدها:

- إذن، انزل بكامل هيئتك!

- لديَّ خطَّة يا سيدتي.

- لا، لا! لا نحتاج لأي خطة. انزل فقط وافعل ما تفعله لكي تحصل على أجرك.

- بمعنى؟

- موظف الاستقبال.

أسرعت كيت وهي تنزل السلالم. عندما وصلت إلى أسفل كانت فلورا ولويزا تستقبلان لورد إشر في البهو. التفت الرجل ولم تستطع كيت أن تخفي تعجبها. لم ترَ أباها منذ أعوام، ولكن لورد إشر كان يشبهه بطريقة مفزعة. طويلُ القامة، نحيفٌ، وتحيط به هالة السُّلطة. تجاوزَ السَّبعين عامًا بقليلٍ، يهتمُّ بشاربيهِ، ويتحرك كمن اعتاد أن يُطاع، عيناه باردتان.

جاءتْ مدام سوزان بيروز بصحبته.

- لورد إشر، أقدم لسيادتك الدكتورة كيت هيل، جرَّاحةٌ ماهرة.

نظر إليها. كانت كيت واثقة أنه لاحظ أنفاسها المتقطعة، وخصلة الشعر التي أفلتت من المشابك، والخجل في أنه رآها في تلك الحالة غير المهندَمة. شَعرت فجأة بأنها طفلة، مُدانة.

قال اللورد: آه حسنًا، تلعبين لعبة الطبيب بالإضافة إلى الهرولة في ممرات المستشفى!

قاطعته فلورا بحسمٍ، ولكن بمهارةٍ: لا أحدَ يلعبُ هنا يا لورد إشر. إذا تكرمتم باتباعي، سأُطلع سيادتكم على ما نفعله.

- وأنا متشوق لهذا.

قادوه عبر الطوابق المختلفة، بينما كانوا يقُصُّون عليه التحوُّلات التي طرأتْ على فندق كلاريج ليصبحَ المستشفى الأكثر كفاءة لجراحة الحرب على الأرض الفرنسية.

توقف لورد إشر في وسط الردهة، أسفل لوحة تجسد القديسة آغاثا، حامية النساء اللاتي تعرضن لعنف الرجال. كان يضع يديه خلف ظهره. هكذا أيضًا كان يفعل أبوها عادةً، فكرت كيت وهي تراقبه من خلف كتفيْ فلورا. كان يسحب يديه من العالم، لأنه لم يكن بحاجة لأن يأخذ ولا أن يربت على أحد. فالأشياء والأشخاص تأتي إليه كحق مُكتَسَب.

- الأكثر كفاءة؟ ومَن يُقَيِّم هذا؟ حضرتك يا دكتورة موراي.

- العديد من الملاحظين في الحقيقة.

- كم عدد المرضى الخاضعين للعلاج حاليًّا؟

- أقل قليلًا من مئتين. وفي الطابق الأخير ما زلنا نستضيف لاجئين من بلجيكا.

- عددهم كبير، أكثر مما توقعته. وهل تنجحون في متابعتهم جميعًا؟ أشك في ذلك، والأمرُ يقلقني.

- في الحقيقة يا لورد إشر، هم أقل بكثير من السِّعة التي أعددنا لها. في آخر أسبوعين حوَّلت أمطار الخريف ساحاتِ القتال إلى أنهار من الوحول وقطَعت تدفُّق الجرحى إلى فرنسا. بالإضافة إلى أن جبهة القتال انسحبت إلى مواقع جديدة.

- تقصدين بذلك أنه لم يعد يصل إليكن ما يكفي لتجاربكنَّ الخاصة بالممارسة الطبية؟

- أقصد أن العديد منهم يظلُّون معلقين لأيام، بل لأسابيعَ، ولا يمكنهم الحصول على علاج. تتلوث الجروح، وتنتشر الغرغرينا.

- وصلتني تلك الشائعة. أريد التحدث مع أحدهم. أريد أن أسمع انطباعاتهم عن العناية التي يحصلون عليها علنًا.

- أخشى أنه في تلك اللحظة لا يوجد رجالٌ قادرون على التحدث.

- ليس لديهم وقت؟ ماذا يفعلون، يتمرنون.

- لا أتحدث عن وقتهم، بل أنفاسهم. جميعهم تعرضوا لإصابات خطيرة.

- وهل هذا ما يحولهم إلى هنا؟

- هكذا تُقيَّم حالاتهم عندما توزعهم هيئة الصليب الأحمر وتسلمهم إلى مستشفانا.

- لماذا إذن يرسلون إليكنَّ كل الحالات اليائسة؟

نظر إشر إلى فلورا نظرة تحدٍ يعرفْنَها جميعهنَّ جيدًا:

- هل هذا لأنهم لا أمل لديهم؟ يرسلونهم إلى هنا ليموتوا؟

- بالتأكيد لا. هذا المستشفى يمكنه الفخر بأن نسبة البقاء على قيد الحياة فيه مرتفعةٌ جدًّا.

- هل حسبتن النسب منذ الآن؟ وهل حسبتموها جيدًا؟

ساد الصَّمتُ، وسُمعت موسيقى قادمة من أحد العنابر. استَرَق لورد إشر السمع وهو يضع يده على أذنه.

- وعلى أي شيء تعتمدون لتنقذوا حياتهم، بحقِّ السماء، بأن تُسمعوهم هاندل؟

في الخلفية، كانت النغمة الصادرة من الغراموفون تبدو فجأةً خاطئة. ولكن فلورا لم تدع هذا يخيفها.

- هذا أيضًا، فلقد اتَّضح أن...

- لنستأنف، ليس لديَّ وقت طويل. أريد على الأقل أن أراهم إذا لم أستطع التحدث معهم.

- إذا أصررت...

- أُصِرُّ. ولكنني سأشرب بكل سرور أولًا ذلك الشاي الذي رفضتُه في البداية.

ابتسمت فلورا له وكأنها تتخيل أنها تخنقه.

- بالتأكيد. سأعطي التعليمات على الفور وأعود إليكم.

لم ينتظرها هو، دخل إلى إحدى الحجرات، تلك التي يستضيفون فيها مرضى الحالات الأكثر خطورة، وأشار لكيت وهيزيل أن تتبعانه. تمشَّى بين الأسِرَّة، رفع الأغطية وأخذ ينظر إليهم.

وجدته كيت كريهًا. ذلك المكان مقدس، وأكثر من مرة كادت تنزع من يده المُلاءة وتطرده خارجًا.

لا يعرف أمثاله الاحترام ولا التعاطف، ذكَّرت نفسها. ولكن ربما لم تكن تفكر في لورد إشر.

وجدته يتوقف أمام جنديٍّ يحتضر. وأشار إليها بأن تقتربَ منه.

سألها: كيف يستطيع الرجال تحمُّل ذلك.

لم تفهم كيت. أجابتْ: تحمُّل ذلك؟

- تحمُّل أن يُعالَجوا من قِبَلِكن، أنتنَّ النِّساء.

تلكما العينان. تلك العينان اللتان تنظران إليها وكأنهما تنظران إلى اللاَّشيء، وهي تعْبر عليهما من جهة لأخرى. الرجل الواقف أمامها لا يعتبرها على قدم المساواة، ولن يعتبرها كذلك أبدًا. يدق لورد إشر بأصابعه على فخذه. حركة لا إرادية لمن اعتاد أن يمسك سوطًا بيده، ويروِّضُ حيوانًا ما.

نظرت كيت إلى هيزيل ورأتها تشير إليها بإشارة إنكار لا تُرى. تقول لها ألاَّ تجيبَ وتسقطَ في الفخِّ.

ولكن، ثمَّةَ لحظاتٍ من الضروري فيها أن تُسمعَ الآخرَ صوتَك، أرادت أن تجيبَ، وبقوةٍ، لأن أحدًا آخرَ لن يقوم بذلك عِوضًا عنها.

رفعت كفيها وتركتهما بمواجهة الرجل؛ غير مدركةٍ لعودة فلورا.

قالتْ: هل غصتَ من قبلُ بيديكَ في أحشاء جسدٍ بشريٍّ. هل نزعت من قبلُ حياةً صارخة أو شظايا قذيفة؟ هل صبغتهما من قبلُ

بكمية من الدماء بحيث لا تستطيع أن تنظفهما منها؟ هل جربت أن تأخذ قِطَع رجل لتخيطها معًا، غرزة تلو الأخرى وأنت تغرز الإبرة في لحمه؟

أنزلت يديها:

- أنا فعلت هذا. لا تعتقد أنك تخيفني، أو تدفعني على التفكير بأنني لا قيمة لي. لقد حاول ذلك قَبلًا رجالٌ أكثر تكبرًا من سيادتك، وما زلت هنا، أؤدي عملي. وأؤديه جيدًا.

لم تكن كيت تستمع سوى إلى قلبها، دقات عنيفة، قاسية.

نظر إليها لورد إشر وكأنه يراها لأول مرة، ويجدها بشعة. حتى وإن أراد أن يرد عليها، لم يعثر على الوقت. دخلت أولغا إلى الحجرة، وجهها بنفسجي، وعيناها جاحظتان مثبتتان على فلورا.

- آسفة للمقاطعة، يوجد مريض يرغب في أن يقدم شهادته في الغرفة المجاورة.

اندهشت فلورا.

- أي مريض؟

خطة السيِّد أمور، فكرتْ كيت على الفور. نظرت للأُخريات ووجدتهنَّ شاحبات.

كان هو بالتحديد الذي عثروا عليه ممدَّدًا على أحد الأَسِرَّة، مُبتسمًا. اقترب منه لورد إشر، مرتبكًا بغرابة. وجلس أمامه.

سأله: هل تتحدث الإنكليزية.

أجاب بالفرنسية: نعم.

- هل أنت هنا منذ فترة طويلة؟

- لا.

- هل ترى أنك تُعالَج كما ينبغي؟

- بالتأكيد! هؤلاء الطبيبات من النساء رائعات، بارعات! يا لحسن حظنا أنهن هنا في باريس، ويا لتعاستكم في إنكلترا لأنكم تركتموهنَّ يهربنَ.

- وألا تشعر بأنك منزعج؟

- لماذا؟

- ألا تفضل أن تكون في عُهدة طبيب؟ أقصد رجل، رجل بقلب ويدين صلبتينِ؟

- أوه يا صديقي العزيز. أستطيع أن أؤكد لك أن يديْ مدام موراي يمكنها أن تفعل أشياء عظيمة.

التفت لورد إشر لينظر إلى فلورا، التي ظلت هادئة، ثم عادت لتتفحص المريض.

- هل إصابتك شديدة؟ هل فهمت جيدًا؟

- كدت أموت. أولئك النِّسوةُ أنقذنَ حياتي.

- وفي أي مكان من جسدك أُصبت، هل يمكنني أن أسألك؟

- في *«الكوكيت»*.

- في ماذا؟

رفع السيِّد أمور المُلاءة بعض الشيء وحركها أسفل أنف الإنكليزي.

- في المنطقة الحساسة. هل تريد أن ترى؟

نهض لورد إشر.

- لا، أعتقد أنني رأيت أكثر مما يلزم.

خرج من الغرفة، حتَّى دون أن يتمنى للجريح الشفاء العاجل.

اقتربت هيزيل من فلورا.

- ماذا سيقول عنا للملك؟

- إذا كان لا بد أن أُقْدِم على تشخيص ما، لن أُعِدَ، للدقة، لورد إشر حليفًا.

نظرت فلورا للحظة إلى السيِّد أمور.

- ليست لديَّ كلمات.

أرسل إليها قبلة بيدهِ.

استمرت الزيارة بعد ذلك قليلًا. التزم لورد إشر الصمت. إذ كان في البداية لا يفقد أي فرصة ليلمزهنَّ بتعليقات حادة. بدا بعد رد كيت عليه أنَّه اندمجَ في أفكار جعلته يحك جبهته ويضغط على شفتيه. كان، عندما يرفع عينيه، يبحث عن وجهها ويحدِّق فيه، وكأنه يبحث عن إجابة لسؤال قارص يتصاعد في حنجرته. ولكن من الواضح أن الإجابة لم تصله.

رحلَ بعد أن حيَّاهم بكلمات قليلة مناسِبة. إذا كن منجمات، كانت كيت ستلقي بتلك الكلمات على صحن أقدارهنَّ وتقرأ فيه هلاكهنَّ. هلاكهنَّ جميعًا.

أخذن ينظرن إلى باب الكلاريج المصنوع من النحاس والمرايا وهو يُغلَق. في الصَّمت ظهر أيضًا السيِّد أمور، ملتفًّا بمُلاءة بيضاء كأنه يوليوس قيصر في عباءته. كان يرفع زجاجة شمبانيا وكأسين. وضعهما على قطعة ديكور وملآهما. وقدَّم واحد لفلورا. بدا مستاءً فعلًا:

- تحتاجين لهذا يا مدام موراي.

- لا تعرف كم أحتاجه بالفعل.

- لقد فعلتُ كلَّ ما بوسعي.

- ميرسي. ممتنَّة للمحاولة.

تبادلا التحية وشرب كُلٌّ منهما كأسه دفعةً واحدة.

عندما توجهت فلورا بحديثها إلى كيت، فعلت ذلك دون أن تنظر إليها أثناء صعودها الدَّرَج:

- في مكتبي يا دكتورة هيل.

أغلقت فلورا الباب وبدأت كيت ترتجف وكأنها استُدعيت لتُعاقَب.

- تفضلي يا كيت، استريحي.

ظلت واقفة، عصبية.

- لقد أخطأت. لم يكن عليَّ أن أقول له تلك الأشياء.

كانت تخشى الإجابة، ولكن فلورا لم تبد انزعاجًا. ربما مجرد استسلام.

- لستُ أنا من ستطالبُ امرأةً أخرى بالصمت. لم أكن أتوقع شيئًا مختلفًا من ذلك الرجل، ولا من التفتيش. إنَّ التعامل مع صحفيين أجانب وملاحظي الصَّليب الأحمر شيءٌ، وتقديمَ العمل لهؤلاء

-المدركينَ بأنَّ الخطوةَ القادمة هي المطالبةُ بحقوقكِ في وطنك- شيءٌ مختلفٌ تمامًا.

توجهت فلورا نحو النافذة، وفتحتِ الستائرَ.

- الوثوق في الرجال مخاطرة. فأنت لا تعرفين أي حسابات تحركهم تجاه وعودهم، ولا كيف.

انتاب كيت شعورٌ غيرُ مُستحَبٍّ بأن تلك الكلمات تتحدث عنها وليس عن لورد إشر. ماذا تعرف هي عن قصتها الشخصية؟ وكم تظاهرتْ بجهلها بها؟

قالت، لتصدها: لا يخون كلُّ الرجال عهودَهم.

- هل قال لك أحدٌ إنك لا تصلحين، أبدًا، أن تكوني ممثلةً؟ لستِ مقنعةً.

وبلطفٍ بدأت فلورا تنزع عن نبات الغاردينيا أوراقَه الميتة.

- عندما يكون الآباء هم مَن يقولون لبناتهم، كلَّ يوم من أيامهم، بالكلمات والأفعال أنهن غير متساويات مع أبنائهم الذكور، وأنهن لن يستطعن أبدًا الحصول على ما يحلمن به، إلاَّ من خلال زيجةٍ بمهر مناسب، ماذا يمكننا أن نتوقع منهم؟ أي تغيير يمكن أن يحدث إذا لم يكن ذلك الذي نفرضه نحن؟

والتفتت نحوها.

- لقد كنت شجاعة مع لورد إشر يا كيت. لقد تعاملت بحزم مع ذلك الرجل الصغير الخائف. لقد رأيتُ كيف نظرت إليه من

بعدها. كان الواضح مَن الأقوى بينكما، واتَّضح له ذلك هو أيضًا. ما الذي قاله لك ليجعلك تتصرفين هكذا؟

ابتلعت كيت ريقها بصعوبة.

- سألني كيف يتحمل الرجال أن نعالجهم نحن.

أغلقت فلورا عينيها للحظة.

- عبارة قاسية، أليس كذلك. كل هذا الاحتقار الذي يُلقى في وجوهنا بكل مناسبة.

شعرت كيت بأن وجهها مبلَّلٌ. مسحته بكفها بسرعة.

همستْ: كنت أتمنى أن تكون غريس هنا، كانت ستتصرف أفضل مني بالتأكيد.

الصديقة غائبة بالفعل منذ أسبوع. بعد اجتماعٍ مع فلورا رحلت بسرعة دون أن تتمكن من وداع أحد. في نهاية نوبتها بصالة العمليات. وجدت كيت سريرها مرتبًا، والجزء الخاص بها من الخزانة فارغًا. سألتْ عنها، وكانت الإجابة أنها ستعود سريعًا. جلستْ فلورا إلى مكتبها.

- بالتأكيد غريس امرأة متعددة القدرات، ولكنكِ أنتِ كذلك أيضًا، حتى وإن لم تدركي ذلك. سنلحق بها أنا ولويزا غدًا.

لم تفهم كيت.

- ستلحقان بغريس؟ إلى أين؟

- في ويميرو، على بعد ميلين من شمال بولوني، على السَّاحل.

تركت كيت نفسها لتسقط على المقعد.

- غريس هناك؟ ماذا تفعل؟

أرسلناها لتبحث عن مبنى لتحويله إلى مستشفى، على طريق مجرى البحر الخاص بالجيوش. ليس الأمر سهلًا، الحكومتان الفرنسية والإنكليزية صادرتا كل الفنادق لتسليمها للهيئات الصحية العسكرية، ولكن غريس ماهرةٌ حيث استطاعت الحصول على فندق. شاتو موريسيان. فكرت إذا لم يستطع الجرحى الوصول إلينا، لا بد وأن نذهب نحن إليهم.

- لماذا لم تقولوا لنا؟

- لست معتادة على أن أثق في النتائج، يا كيت، في كلِّ الأحوال. كنت أنتظر أخبار من غريس، وهذا الصباح وصلت بالتلغراف.

- وماذا سيحدث لكلاريج؟

- سرعان ما سيعود لما كان عليه. خلال بضعة أسابيع لن يكون هناك ولا جريح واحد لنسعفه في باريس.

نهضتْ فلورا، ودارت حول المكتب لتتوقف أمامها.

- ولكن هذا المشروع لا يخصُّك، أليس كذلك؟ أنت تحصين الأيام التي تفصلك عن عودتك إلى البيت. أحصيتها منذ اليوم الأول.

- هل هذا أمر سيء أيضًا، بالإضافة إلى كوني أمًّا؟

- بالتأكيد لا، لقد أحصيتها أنا أيضًا معك، على الرغم من أن السبب مختلفٌ. أنت لكي تري ابنتك أخيرًا. وأنا لأنني سأفقد مساعِدةً غالية.

كانت المرة الأولى التي تتحدث فيها فلورا عنها بهذا الإطراء. تعدها

كيت شخصية صادقةً بشدة، ولكنها كانت تعرف الثقل الذي تمنحه للكلمات، وأن اعترافها هذا يعني لها الكثير.

- أشكرك، ولكنني...

- ويميرو ليست بعيدة عن كاليه. إذا كنت تنوين بالفعل العودة إلى البيت، لا بد وأن تبحري من هناك. يمكنك على الأقل أن تمكثي بضعة أيام في ويميرو ومساعدتنا في الانتهاء من النقل.

- هل سيستغرق ذلك فترةً طويلة.

- أنت تعرفين أنني لا آخذ أبدًا وقتًا طويلًا لأفعل ما ينبغي فعله. ولن أفعل ذلك الآن أيضًا بمقدماتٍ لا داعي لها. ما زال الوضع في فرنسا بحاجة إليكِ يا كيت.

- وآنّا أيضًا تحتاجني.

- أم أنت التي تحتاجين إليها؟

- ماذا تقصدين؟

- قولي لي أنت يا دكتورة هيل. تريدين المكوث، أليس كذلك؟ إذا كانت ابنتك هنا، بالقرب منك لن تفكري أبدًا في ترك كل هذا للعودة إلى البيت، إلى الأمان. على الرغم من كل الصعوبات، والمخاطر والأتعاب. لأنَّ هذه هي الحياة التي تمنيتِها دائمًا. أنا أقدم لك فرصة أن تكوني صادقةً، دون الخوف من أن يدينك أحدٌ. عندما تكبر، ستحكين لابنتك عن هذا العمل العظيم، وفي هذه اللَّحظة، الآنَ، أنت تقررين نهاية القصة. فلا تجعلي الصغيرة آنَّا تشعر يومًا ما بأنها كانت سببَ ندمِك.

١٩

هطلتْ الأمطارُ بلا انقطاع تلك الليلة. شعرت بها كيت تطرقُ أفكارَها، بينما كانتْ تعمل. ساءت حالةُ جنديٍّ شابٍّ فجأةً.

حاولتا، لويزا وكيت، المستحيلَ لإنقاذه، في صمت، بسرعة ودقة، وهما تتبادلانِ التعليمات الضَّرورية فقط، ولكن لم يكن ذلك كافيًا.

أخذتْ كيت تنظرُ طويلًا إلى الجسد المسجى، وكلَّما أمعنتْ بالنَّظر إليه رأتْ في شبابِهِ انعكاسًا لابنتها. أصرَّت على تنظيفه والاعتناء به حتَّى عندما تحوَّل لون وجهه إلى الأبيض تمامًا. وفي صالة الإفطار التي تحولت إلى مشرحة، صلَّت كيت.

صلَّت للغريب، ولآنَّا ولنفسها.

عندما صعدتْ إلى حجرتها، وجدت حقيبتها بانتظارها، مفتوحةً ونصفَ ممتلئةٍ على السرير.

دعوةٌ، تحدٍّ، توسلٌ، صفعةٌ. لم تكن تعرفُ بالتحديد ماذا تمثل إليها تلك اللحظة.

ذهبتْ إلى المكتب الصغير، أخذت ورقةً وريشة.

كان يا مكان هناك عصفورة صغيرة تعيش مع أمِّها. كان عشُّها مريحًا، منعشًا صيفًا ودافئًا شتاءً. عندما يحلُّ المساء كان العش يحميهم ويغلقُ عليهما أغصانه وأعواده التي صُنعَ منها. وفي الصَّباح يُفتح لينفُذَ دفءُ أشعةِ الشَّمس الأولى. مكتبة سُر مَن قرأ

عاشتِ الأمُّ وصغيرتُها في هذا المكان دائمًا، تهتمُّ إحداهما بالأخرى. لم تحتاجا إلى شيءٍ آخر، الشَّجرة التي تستضيف العش تمنحهما كلَّ ما تحتاجانه. فالأوراق تجمع الأمطار لأجل مياه الشرب، والجذع يعج بالطعام، والرِّياح تهبُّ خفيفةً، تدعوهما ليلعبا بالبذور المتطايرة.

كانا يمكنهما أن تعيشا هكذا إلى الأبد، في أمانٍ، معًا.

ولكن، في أحدِ الأيام، لاحظتْ الأمُّ أنَّ صغيرتها تُسحرُ في كلِّ مرةٍ تنظر فيها إلى السَّماء، وتسري رعشةٌ على ريشها؛ وتربت عليها.

في إحدى الليالي، وبينما هي نائمةٌ والأم ساهرةٌ عليها، حلمتْ الصَّغيرة بالطَّيران. حاولت أن تفرد جناحيها، ولكن منعها العشُّ إذْ كان صغيرًا جدًّا. إلاَّ أن بين ريشاتها لمعَ شيءٌ ما: انعكاس قوس قزح من أحلام ومغامرات ما زالت أمامها لتعيشَها.

فهمتْ الأم أن دعوة السماء والهواء الطلق ستكون يومًا ما أقوى.

في تلك الليلة، دفعت نفسها حتى طرف الفرع الأكبر ونظرت أمامها، وفوقها وأسفلها. كان الفراغ والارتفاع مفزعين، والظَّلامُ مرعبًا. فهي لم تبتعدْ يومًا عن العشِّ قطُّ. ولم تُجِد الطيران مثل سائر العصافير.

عادت إلى صغيرتها، نزعت ريشتها الأضعف في صدرها ووضعتها بجوارها.

قالتْ، قبل أن تنطلقَ في رحلتها:

- أيُّها العشُّ، اعتنِ بها حتى أعودَ.

ونزلت إلى أسفل الشجرة، تدحرجت، ومزقت ريشات أخرى. نظرت إلى أعلى. لم يعد في إمكانها العودة إلى الوراء.

ودون أن تلتفت إلى الخلف، استمرت.

سارت الأم طويلًا، ولكنها لم تستطع أن تجد من يساعدها. تطيرُ العصافير الأخرى ملامسةً السحب، لا يمكن الوصول إلى أعشاشها المبنية على أعلى القمم. تنادي عليها ولكنها لا تسمعها.

مرت أيام وحيدة وليالٍ مرعبة. حتى وجدت الأم نفسها في ليلة عاصفة بمواجهة وادٍ سحيق. شاعرةً باليأس وبألم رجليها، توقفت.

ظهرتْ لها ذئبةٌ عيناها زجاجيتان، كان فوق منقارها آثار جروح قديمة. شكلُها مخيفٌ. سألت العصفورةَ الأم:

- لماذا لا تطيري بعيدًا وتبتعدي عن الأمطار؟

- لأنني لا أُجيدُ الطيران.

- يمكنني أن أعلمه لك إذا أردتِ.

- ولكنك بلا أجنحة.

عندئذ قالت لها الذئبة: لتطيري لا تلزمك الأجنحة، بل الشجاعة لكي تنفصلي عن الأرض.

ثم عوت. عوت بقوة شديدة أفزعتها، إلى درجة جعلتها ترتفع عن الأرض.

لا تعودي إلى الوراء، صرختْ عليها من الأرض.

لا تخافي من أن تتجرَّئي.

لا تخشي مما تشعرين به داخلك.

ارتفعت العصفورة الأمُّ طائرةً، ومع كلِّ ضربةٍ لجناحيها تزداد ثقةً، وتصعدُ إلى أعلى.

عادت إلى صغيرتها وقد تلوَّن جناحاها بانعكاسات ألوان قوس قزح.

٢٠

ويميرو، فرنسا، ١٠ نوفمبر ١٩١٤

ينظر السيِّد وايت إلى كيت من أسفل إلى أعلى، عقد ما بين حاجبيه لشدة ضيقه. ذلك الرجل الصغير ذو الكرش والهيئة المبعثرة حوَّل الحرب إلى صفقةٍ. كان يجلب ما هو ضروري للمستشفيات والثكنات، بثَمنٍ مُضاعَف.

– لقد قلت لحضرتك للتو، يا دكتورة، لا يوجد فحمٌ اليومَ.

أصرَّت كيت:

– إنه الأسبوع الثاني الذي تقول فيه ذلك. بهذا الإيقاع سيُصاب المرضى بالالتهاب الرئوي.

نزل السيِّد وايت من الدرجات التي تقوده من خلف شاتو موريسيان إلى ردهة الخدمة.

– أدفئنَهم بأكياس المياه الساخنة. لقد ابتعتم منها ما يكفي.

جرَّبت كيت، أخيرًا، أن تقول له رأيها فيه.

– ليس لدينا مياه ساخنة لأن السخان لا يعمل!

التفت السيِّد وايت، وهو يقف على رافعة الشاحنة التي يسلم بها بضائعه.

- لتقمن بغليها إذن!

صفعت كيت الباب وهي تحلم لو كان بإمكانها أن تصفعَ وجهه، ولكن كانت مفصلات الباب أيضًا في حالة سيئة للغاية، وأصدر المقبض صريرًا في مفاصله، ثم انفصلَ نصفه وتدلَّى.

مرت أولغا من هناك في تلك اللحظة.

- برافو، تهانيَّ. شيء آخر نضيفه للقائمة.

أسندت كيت جبهتها على الجدار. كانت متأكدةً من أن جزءًا من البياض سيظل معلَّقًا على بشرتها. شاتو موريسيان في طريقه للدمار. أصبحت فخامة الكلاريج الآن مجردَ ذكرى. حذرتهنَّ غريس بالفعل في التلغراف الذي أرسلته: الإيجار مرتفع، كما هي نسبة الإهمال. ولكن تلك الفيلا مبنية على الطراز الحديث، وكانت المبنى الوحيد الباقي على مساحة آلاف الأميال على الساحل.

- آسفة، فقدت السيطرة.

- ذلك الأحمق له هذا التأثير.

- يفضل أن يبيع الفحم في السوق السوداء بدلًا من المستشفى.

نقلت أولغا المقبض وأسندته على الجدار.

- أما زلت تندهشين مما يستطيع الرجال عمله؟ لقد جئنا إلى فرنسا لنعدل انحرافاتهم، في نهاية الأمر.

نظرت إليها كيت:

- وهل سننجح؟ هل سننجح في هذا على الإطلاق؟

لم تجبها أولغا، واكتفت بأنْ تقول لها أنها ستبحث عمَّن يصلح الباب.

إصلاح آخر لا بد من عمله للفيلا، للإصرار الذي قادهن إلى هنا، للأمل في قدرتهن على تغيير شيءٍ ما.

بدأت تمطر، إنها تمطر كل يوم منذ أسابيع. أطلَّت كيت على الساحة. غريس وممرضتان معها يأخذن دروسًا في قيادة السيارات. وصلت مدام ديكورسيل قبل يومين بالتاكسي وأبدت استعدادها على الفور لتدريب سيدات موريسيان. كانت فلورا موراي عند كلمتها، بمجرد وصولهن وهن يذهبن كثيرًا ليأخذن المصابين على الطريق المؤدي إلى الساحل من منطقة فلاندرز. تعلَّمن جميعًا قيادة عربات الإسعاف التي تجرها الأحصنة، وتعلَّمن أن يقُدن دراجاتٍ ناريةً تبرَّع بها فرنسيٌّ يومًا من الأيام عندما أتى ليأخذ ابنه، وهو ممتن من أنه عثر عليه حيًّا، وإنْ أُصيبَ بإعاقةٍ. وصلوا من حدود فرنسا، بعد أن دفعوهم حتى بلجيكا، على بُعد ستة أميال من المستشفى. تبدو فلورا وقد استحوذت عليها فكرة عدم ترك أيٍّ من أولئك الرجال وحيدًا.

أحضرت مدام ديكورسيل أيضًا حمولة من الأغطية وبطاقة من السيِّد أمور:

باريس بالتأكيد مملة جدًّا من دونكنَّ يا سيداتي الطبيبات. الكلاريج أقلُّ ازدحامًا، ولكن للأسف أكثر صمتًا. أرسل إليكن هدية صغيرةً لمرضاكم، هنا لن يكون لها الأهمية نفسها.

كانت هديةً من السماء، وأكَّد السيِّد أمور كونه صديقًا مخلصًا وغاليًا. ينقصهم الفحم، ويحتاجون للمزيد من الأغطية. حتى الوقود لوسائل المواصلات ذات المحركات أصبح نادرًا وباهظ الثمن للغاية.

تدثرت كيت بوشاحها، وتساءلت إذا كان الوضع في لندن مماثلاً، وإذا كان لدى آنَّا ما يكفي من الطعام لكيلا تجوعَ أبدًا، ومن الفحم الذي تتدفأ به أيضًا. تطمئنها مينا بأنَّ النقود التي ترسلها كيت أكثر من كافيةٍ. ولا تشير أبدًا إلى الصعوبات في الخطابات التي ترسلها، ولكنهم بالتأكيد يعانون من بعضها. تفضل الصديقة أن تحكي لها عن آنَّا، وعن التطورات الرائعة التي تطرأ على ابنتها من يوم لآخر، وهي تكبر بدونها. كان لا بد أن يريح ذلك قلب كيت، إلاَّ أنها كثيرًا ما شعرتْ بالغَيْرة التي تحمل معها الشعور بالذنب. على الرغم من كونها صديقة عزيزة، فإنَّ فكرة أن تنام ابنتها في حِضن امرأةٍ أخرى، فكرةٌ قاسية. فآنَّا لا بد أن تعرف في رائحة أمها رائحة البيت، ولا بد أن تكون ذراعاها هما ما تعرفه كملجأ آمن تحتمي بهما. إلاَّ أن مينا علمتها كيف تكتب اسمَها، وتساءلتْ كيت إذا كانت تلك واحدةٌ من خطواتٍ أخرى ستبعدُها عنها.

في شاتو موريسيان كلُّ الحجرات مشغولةٌ، وصالة العمليات تعمل بأقصى طاقتها. تغيرتِ الجروح التي يصل بها الجنود من الجبهة مرة أخرى: فالأجساد ممزقة من غرغرينا الغاز، ومتآكلة من تلوث البكتيريا، ويعاني الجميع تقريبًا من حالة «قدم الخنادق»، نظرًا للأسابيع التي يقضونها وأقدامهم مغمورة في المياه.

وبين عملية وأخرى لا بد أن تعمل كيت ورفيقاتها على اختراع

وسائلَ جديدةٍ لعلاج الأنسجة، وأخرى لتخفيف الآلام الحادة ولم يكن لديهم سوى المورفين والبراندي.

عادت إلى الداخل فنوبتها على وشك البدء. خلعت الوشاح، لتظهر سُترة الزيِّ ذات الأزرار الحُمر بوضوح. كانت وسيلةَ إيحاءٍ للجنود الذين يصلون عادة في حالات نفسية حرجة للغاية وعُرضة لنوبات غضب مفاجئة، إذْ يتحدث الزيُّ لغةً يمكن لهم استيعابها، كما يحتفي بفكرة التراتبية التي اعتادوا الخضوع والإذعان لها. لغةُ الزيِّ تحمي النساء وتطمئن الرجال، بعد الصدمة الأولى.

وجدت أولغا ومارديّ في إحدى الغرف المجهزة بغرفة طعام الفندق.

تذمَّرت الأولى: لا توجد حمامات كافية في هذا المكان.

ابتسمت كيت، ليس أمامنا سوى هذا.

- سأخبر السيد وايت، ربما يصلح أحدها.

اقتربت من مريضٍ على وشك أن تحممه المساعدتان. كان إنكليزيًّا من ليدز. نظرَ إليهنَّ بخوفٍ وريبة عاضًّا على لِحافهِ بأسنانه.

حاولت أولغا أن تنزع اللِّحافَ من بين فكيه، ولكنه أبدى مقاومةً.

قرأت كيت ملفه.

- عريف ستانلي باترسون، لا بد أن تغتسل.

تمتم: سأفعل ذلك بمفردي.

- يداك الاثنان مضمدتان، كيف يمكنك هذا؟

- سأجد طريقة، ولكنني لن أسمح للنساء بلمسي.

جلست كيت على حافة السَّرير. وتحدثت معه كما تتخيل أمًّا تتحدث مع ابنها المراهق المتمرد.

- لقد عملت طوال الليل لأصلح بشرتك يا ستانلي. جرب أن تتلف الضمادة لأتلفك أنا.

خفف الفتى من قبضته. عندئذ أشارت ماردي لكيت على رجل متوسط العمر في نهاية صف الأَسِرَّة.

- الفريق هناك يفعل الشيء نفسه منذ ثلاثة أيام، أنتنت رائحته.

تخيلت كيت الحياء الذي لا بد وأن يشعر به الجنود، والمفاجأة المبدئية بأن يجدوا أنفسهم وسط عالم من النساء، بعد أن تقاسموه فقط مع الرجال، لأسابيعَ أو شهورٍ، في واقع متسخ وقاس. تفهم شعورهم بالخجل من عرض أجسادهم، شعور مهين بشكل لا يمكن وصفه، أمام نظرات نساء شابات. ولكن فهمها هذا لن يساعدهم على التماثل للشفاء.

نهضت واستدعت انتباههم وهي تسير بين الأَسِرَّة:

- سادتي، إذا أردتم الخروج سريعًا من هنا عليكم التعاون معنا: أن تسمحوا لنا بغسلكم والحفاظ على جروحكم نظيفة، وألا تتعرض للتلوث. فسنفعل ذلك في كل الأحوال؛ بطريقة أو بأخرى، لذا وفروا طاقتكم للمعارك الأكثر أهمية.

توقفت أمام السَّرير الأخير، الخاصِّ بالفريق.

- هل تعرف ماذا أطلقت الشعوب الناطقة باللاتينية على (الملابس

الداخلية) التي كانوا يرتدونها؟ (Vestes Mutandae)، من (Mutarsi) أي (تغيير). حتى القدماء أدركوا أهمية ذلك. إذن ماذا عن سيادتك؟ لتغيرها إذن!

تركتهم لتلحق بهيزيل في صالة العمليات الجراحية. الجراحة على وشك الانتهاء وطلبت زميلتها منها أن تمر لاستشارة حول خياطة الجرح.

في الحمام، لَمّت كيت شَعرها أسفل قبعة، وغسلت وجهها بقسوة ويديها وذراعيها حتى المرفقين. ارتدت قميصًا نظيفًا ودخلت إلى الصالة. حيَّتها هيزيل بإشارة.

انتهت لتوِّها من بتر كاملٍ لساقٍ، استأصلتْ الغرغرينا التي أصابت الخلايا والعظم. قالت لها:

- أغلقتُ جميع الأوعية، ولكن يبقى القليل لإعادة خياطته. ماذا تقترحين؟

- ماذا تخشين؟

- ألاَّ تتوقف الغرغرينا. أو إنني لم أقطع بما يكفي.

حدث هذا من قبلُ بالفعل. الغازات السامة لَعِينة المقاومة، صعبة الإزالة. يبدو أنهن تركن الجرح نظيفًا، وخِطنَ كلَّ شيء بشكل لا غبار عليه، إلاَّ أن المرض انتشرَ من جديد، لقد كان كامنًا في الداخل. عندئذ، لا بد أن يُفتحَ الجرح مجدَّدًا ويقطعوا حتى الحوض، وعلى هذا النحو هم يخاطرون بإحداث تسمُّمٍ دموي، والحكم على المريض بآلام مدى الحياة، لن يطيق تحملها، ذلك فيما لو أنَّه نجا.

فحصت كيت الجرح طويلًا.

- لنتركه مفتوحًا.

- ماذا؟

- لا تخيطي. لا يوجد نزيفٌ، ولا حتى القليل منه. لنترك الجرحَ مفتوحًا وننظفه بانتظام في الأيام القادمة، ونرى كيف سيسير الأمر.

- كيت؟

تناديها لويزا من خلف الباب.

- ثمَّة مشكلة.

- عمليتك الأخيرة.

- لا. غريس.

تعاني غريس من الحمى المرتفعة. سقطتْ على مقود قيادة مدام ديكورسيل، مرتعدةً.

دثرتها كيت بالأغطية.

- لماذا لم تقولي شيئًا؟ تعرَّضتِ لكلِّ تلك الأمطار.

دسَّت وجهها في الوسادة.

- هم أيضًا يتعرضون لتلك الأمطار.

كانت تشير للجنود. تعرف كيت أنها تفكر بهم وبأقدامهم المغمورة في الوحول، تلك الأقدام المُدمَّرة من الرطوبة والبرد، الأقدام التي يعالجونها كلَّ يومٍ.

خلف النافذة تبدو السماء هوة رمادية متَّسعة. لم يكن ثمَّة أمل في أن يتحسَّن الطَّقسُ. وضعت لها كيت كيسَ مياهٍ ساخنةٍ آخر أسفل الأغطية.

- حاولي أن تستعيدي عافيتك، نحن بحاجة إليك.

- آه، إنه مجرد بردٍ، سيمرُّ كما جاء. إلا أنه هكذا لن يذهب أحدٌ ليجمع الجرحى، وسيموت أحدهم تحت تلك الأمطار اللعينة.

كانوا قد نظموا الرحلة منذ أيام. اندلعت في نواحي مدينة يبر، منذ أسابيع، معركة دموية. وحوصر العديد من الجنود بين العدو وأرضٍ كلُّها مستنقعات. لم تكن الأمطار فقط هي ما تجعل الدخول لتلك الأماكن مستحيلًا، بل إن ملك بلجيكا، في نوع من تصرف دفاعي مبالغ فيه ضد تقدم الأعداء تجاه بحر المانش، أمر بفتح المغالق بالقرب من نيوبورت، وأغلق عمدًا السهل بمياه نهر يسر.

فخ للألمان والحلفاء في الوقت نفسه.

ربتت كيت على رأسها.

- هل هذا ما يزعجك يا غريس؟ لقد أعدنا تنظيم النوبات الخاصة بالجراحات. ورحلة البحث عن الجرحى ستُجرى في كل الأحوال.

التفتت غريس:

- ومَن سيذهب مكاني؟

- أنا.

٢١

يبر، بلجيكا، ١١ نوفمبر ١٩١٤

يتقدم ألكسندر رافعًا بندقيته في المياه التي تغطيه حتى ركبتيه. تنفجر السماء من فوقه. بدتْ منطقة فلاندرز مرآةً مائية تنعكس عليها النيران. يحمرُّ الضباب مع ضربات المدافع، وتسقط شظايا الحديد الملتهبة في المستنقعات كسهام مشتعلة. كان قصف المدفعية حول يبر مستمرًّا منذ أيام.

نيران ومياه تصبغها الدماء، نهاية العالم. لا شيء يفلت من الدمار، ولا حتى الأفكار. يشعر ألكسندر بتضاؤل الإنسان في داخله بمقابل تضخُّم حجم الجندي.

كل يوم يسقط في ساحة القتال واحدٌ ممَّن أرسلهم بنفسه إلى الخطوط الأمامية، حدَّ أن البقاء في الثكنات أصبح أمرًا لا يُحتمل. أكثر من مرة تساءل إذا كانت اللامبالاة التي يشعر بها حيالَ الموت دليلًا على أنه الآنَ يقف إلى جواره. لا يمكن حقًّا أن يخشى المرءُ شيئًا يتقاسم معه كلَّ لحظةٍ من لحظات حياته.

حتَّى الآن يشعر بالموتِ يسير بجواره، يهمس بألحان جنائزية وسط

الصخب. عندما تسقط قذيفة شربنل بالقرب منه، وتتطاير الشظايا من حوله؛ تبحث أنياب الموت عنه. عندئذ يتحدث معه ألكسندر، يطلب منه أن ينتظر ويصبر. فلم تحن اللحظةُ بعدُ.

على مسافة نصف ميل، تتقدم فرقته، ولكن لا بد من إبعاد عائق. يجثم ألكسندر، ويفحص السهل. مستنقعات على مرمى البصر وبعض منازل الفلاحين، المُدمَّرة، منتشرة هنا وهناك. مساحةٌ من الأشجار المحترقة، وقناة ماء تجري باتِّجاه طاحونةٍ، والمبنى الأخير في الأرض الحرام يقع خلف أول خطوط التماس مع العدو.

يقبع القناص الماهر هناك منذ أيام. قضى على الكثير من جنوده الذين اندفعوا للهجوم مع فصيل الفرسان الفرنسي ضد جدار الرصاص والقنابل الألماني. سيتغذى قلب أوروبا، كما ستتغذى السياسة على جثثٍ في الأعوام القادمة. سيزيد وزن تلك الأرض لأعوام بما دُفن فيها من عظام.

راقبه ألكسندر لأسابيعَ دون أن يستطيع العثور على فرصة ليقترب منه بما فيه الكفاية. يراقب أوقاته وزوايا قنصه، حتى لحظات صمت بندقيته. كان شخصًا منهجيًّا، وربما سيكون ذلك حُكمًا عليه.

ترك نفسه ليندفع مع تيار مياه القناة، البندقية والمسدس مرفوعان فوق رأسه. يدفعه التيار بين الجثامين التي تحركها المياه. جثثٌ، بأعيُنٍ زجاجية، تحدِّق فيه، والأفواهُ شبه مفغورة.

في النهاية قرر ألا يضمَّ رفاقه إلى العملية. إذا عاد سيكون عليه أيضًا مواجهة غضبهم.

لم تدك القنابل الطاحونة، العجلة تدور، ولكن تلك الأرض لن تمنح أي ثمار لفترة طويلة. ما زالت الحرب تترسخ، ولا تشي بنهاية قريبة.

صعد ألكسندر إلى الشَّاطئ وأغمدَ مسدسه. زحف نحو المبنى مُمسكًا ببندقيته، وتوقف في منتصف المسافة، محتميًا بجدار من الصخور الجافة. يطلق القناص المختار دائمًا من النقطة عينها، من نافذة في الطابق الأول. وهو خطأ جذب نحوه انتباه الإنكليز والفرنسيين. يختارُ الضباط دائمًا؛ ليترك القوات المتقدمة دون قيادة. يصوِّب طلقةً واحدةً لا غير على الجبهة، نظيفةً للغاية إلى حد أنها لا تُسقط البيريه التي تظل ثابتةً فوق الرأس. صياد جبلي، مُدرَّب منذ الطفولة على أماكن المراقبة، والهدوء والدقة، مثلما هو حال القناصين الألمان. مميت للغاية إلى حد أنه يثق في نفسه أكثر مما ينبغي. لم يعلمه أحدٌ أن الحركة هي أحد عوامل النجاح؛ وأن القناص أيضًا يمكن أن يتحول إلى فريسة.

التفت ألكسندر بمجرد أن سمع حفيفًا خلفه، وسدد بندقيته. تحرك ليصوِّب على جثة تطفو نحو العجلة.

- اهدأ! اهدأ!

تحدث الفرنسي بهمس، وخرج من المياه وهو يشير إلى الطاحونة، وأشار كأنه يطلق النار. أتى للهدف نفسه. أخفض ألكسندر بندقيته.

بالذهاب معًا ستتضاعف احتمالات النجاح، على كل حال، نادرًا ما يعود أحد أدراجه. إلاَّ أن القائد الفرنسي أصرَّ، لا بد من تقاسم التضحية.

عبرت صفارة الهواء وبعدها بثوانٍ انفجرت ضربة مدفع بالقرب منها. وبدت نقطة الاصطدام ترفع الأرض من مكانها. تهشمت بعض

الألواح وسقطت، وسمحَ الصخب لألكسندر والفرنسي بأن يتقدَّما صوبَ الطاحونة. وصلا الساحة وأراد الفرنسيُّ أن يتقدم، مشيرًا لألكسندر أن يتبعه.

اقتحم الباب وأطلق النيران على الفور.

سقط الألماني، الذي كان يقف على الدَّرَج، إلى الخلف ومكث هناك جاحظ العينين، وظهره مستند على الجدار.

نهض فتىً أشقرُ فجأة في إحدى الزوايا، لم يرتدِ غيرَ بنطال بزَّته العسكرية، والقميص مُتدلٍّ من إحدى ذراعيه. عند قدميه إناء ماء وصابونة. بدأ الفرنسي يصرخ في وجهه والبندقية مُسددة نحوه. ينظر إليه الشاب بفزع. لم تنبت له حتَّى ظلال لحية في وجهه، ولا أي ملمحٍ للرجولة.

«Kindermord»

كان ألكسندر قد تعلم معنى تلك الكلمة الألمانية اليوم السابق، عندما اعترضوا إحدى رسائل العدو اللاسلكية.

مذبحة الأبرياء، الأطفال، هكذا أسماها الألمان. بالقرب من يبر كانت جيوش الإمبراطور الأربعة مكوَّنة في غالبيتها من متطوعين صغار السن جدًّا. لقد أرسلوهم على الرغم من ذلك وسقطوا بالآلاف.

كيندامورت. كلمة تحمل في إيقاعها شيئًا قاتمًا، وكان واثقًا بأنه لن ينساها، أبدًا. تُذكِّره بإبراهيم، وتضحيته بإسحاق، إبراهيم المؤمن الذي كان مستعدًّا لتقديم حياة ابنه الوحيد طاعةً لربِّه.

اقترب ألكسندر منه، وحاول أن يتحدث معه بهدوء، وهو يسأل بإيماءاتٍ عن وجود شخص آخر مختبئٍ.

أنكر الشاب بقوة.

عندئذ أشار للفرنسي أن يراقبه وصعد السلالم بحذر. كان الطابق العلوي عبارة عن غرفة وحيدةٍ ذات سقف مائل. لم يكن بها أحد. كان موقع القناص أمام النافذة. حقيبة ظهر، غطاء، مقعد قصير ربما كان يُستخدم كمَسند، قصعة مفتوحة. وكانت توجد بندقية تستند على الجدار.

اقترب ألكسندر. لم يكن سلاحًا اعتياديًا، وكجندي مشاة خفض نظرته ليقيِّم الكنز الموجود أمامه. كان الجزء المعدني، عند فتحة القذف، محفورًا بدقة، عليه صورة أيل ذي قرنين قويين، مثلما هو الحال للأجزاء الجانبية، حيث تظهر صورة زهور. الأجزاء الخشبية مصنوعة من خشب الجوز القاتم، مُلمَّع بالزيت. الماسورتان متسعتان بما يكفي للطول كله، بحيث لا تسخن في حالة الإطلاق المتتابع والسريع.

كانت بندقية شخص مُدرَّب يكرس لها الوقت والعناية، ابن سلالةٍ من الصيادين. كانت قاعدة البندقية أيضًا مُعدَّلة لتخدم شخصًا أعسرَ، ربما شخص ذراعه خبيرة.

شعر ألكسندر بقشعريرة.

ركض نحو الدَّرَج. وعلى بسطة السلَّم كان الألماني المقتول يرقد محنيًّا، والبندقية بجوار يده اليمنى وقد طارت من قبضته لحظة موته.

صرخ: إنه هو القناص! C'est lui.

أجابه الفرنسي من أسفل:

- مَن؟

- الفتى!

نزع الشاب النصل من جانب الفرنسي وغرسه في بطنه، ثم بسرعة أمسك بالبندقية وسددها نحو ألكسندر.

أطلقا النار في نفس الوقت، كان إطلاقًا سيئًا من كلا الجانبين. العدو، كأعسر، لم تكن البندقية تناسبه، وألكسندر، لتردده في إطلاق النار على فتىً.

وسقطت قذيفة أخرى، وهذه المرة كانت أقرب، وسقط جزء من السقف. جُرِفَ ألكسندر بأكوامٍ من الألواحِ وشعرَ بنفسهِ يُسحب إلى أسفل. تدحرج على السلم، وصُدمَ رأسه في الزوايا. عندما أصبح على الأرض، سقطت دعامة فوقه ووجد نفسه سجينًا، أسفل ثقل ضخم ثبَّت جسده على الأرض. لم تنجح محاولاته في تحريكه، سمح له بالكاد بمسافة تكفي لالتقاط أنفاسه.

سمع الألماني يتحرك. بعدها بقليل، صعد الفتى فوقه وكاد يقطع أنفاسه. كان يحاول أن يتلمس طريقه إلى الطابق الأول، ولكن الآن لم يبق منه أي شيء. سقط كل شيء إلى أسفل، أسفل ركام من البياض والجبس، وبندقيته الثمينة أيضًا.

يبدو أنه أدرك، فقط عند تلك اللحظة، الدم الذي يلطخ صدره. مرر يده على خده المغطى بالدماء. ستترك الضربة أثرًا على وجهه إلى الأبد.

بدا وكأنه لا يصدق، بل وغاضبًا أيضًا، لأنه الضحية وليس الجلاد.

قفز لأسفل، نزع الحربة من جسد الفرنسي واقترب من ألكسندر.

–Das ist die Marke von Deutschland.

– علامة ألمانيا.

لم يكد ألكسندر يترجم ما يقوله حتى غرس الجندي النصل في وجهه وجعله يخترق وجنته.

وسمه بعلامةٍ بكل قوته، بدمٍ بارد، بكراهية، وبغضب الأيديولوجيا. وأصابت ألكسندر أيضًا العدوى، لأنه إذا كُتبتْ له النجاة، وإذا وجد نفسه في موقف مشابه، لن يتردد على الإطلاق كما فعل. وسيطلقُ النار بلا أدنى شك.

سقطت قذيفة من النافذة، وبدت الأرضية كأنها ترتفع فوق موجة. سقط جدار وارتفعت معه ساحة المعركة. نظر الألماني إلى ألكسندر لمرة أخيرة، وربما يتساءل ماذا يجب أن يفعل به، وفي النهاية تفل على الأرض ورحل.

اشتد الهجوم، استطاع ألكسندر فقط أن يلف رأسه ليقابل جدارًا من اللهب، والماء يتفجر. نظر إلى العالم يُصبغ بالدماء، ذلك الذي كان يحجب نظرته، الباردة والسوداء، ويهبط في حنجرته، مسببًا له الغثيان.

عندما انتهى الصخب بدأت فترة الأنين. كانت ترتفع مثل الحِداد مع أعمدة الدخان التي تنشر رائحة احتراق الرجال والخيول. لم يكن ممكنًا لألكسندر أن يراهم، ولكنه واحدٌ منهم الآن، مجندلٌ على الأرض الحرام.

بمرور الساعات، خفتَ الأنينُ أيضًا. مَن استطاع أن ينهض على قدميه أو يزحف، استطاع العودة إلى الوراء حيث الخطوط الصديقة. والآخرون الذين ما زالوا يتنفسون كانوا في عِداد الأموات.

ما سيحدث فيما بعد سيعتمد على الفصيل الذي استطاع بسط سيطرته على تلك الجهة من الأرض. إذا كانوا الألمان، فستبدأ عملية التمشيط.

فكر ألكسندر في الصليب الذي أهداه له صمويل. كان في جيبه الصغير بجوار قلبه. لا يستطيع حتَّى محاولةَ الوصول إليه، ولكنه يشعر بوجوده.

٢٢

سهل الير، بلجيكا، ١١ نوفمبر ١٩١٤

لم تعْبر كيت، من قبلُ، ساحةَ قتالٍ قطُّ. ظلَّت دائمًا في غرفة العمليات، بين جدران الكلاريج في البداية، ثم بعدها، بين جدران الموريسيان. لم تخترها فلورا لانتشال المصابين قطُّ، وشكَّت كيت أنها لم تتَّخذ هذا القرار لحمايتها هي، بل لحماية الطفلة التي تنتظرها.

الآنَ، وقد أظهر لها نفسه منذ ساعات، عالمًا تغطيه الدماء وتتناثر فيه الجثث، تشعر كيت بثقل المبادرة التي اتخذتها. هل يمكنها أن تيتِّمَ آنًا.

قبل أن ترحل، وجَّهت لها فلورا ولويزا تعليماتٍ محدَّدة حتى لا تخاطر أكثر مما ينبغي. نظرت إليها الأولى طويلًا. كانت تسأل نفسها ماذا استطاعت أن تصنع منها، تثق كيت في هذا. أحيانًا هي نفسها تسأل هذا السؤال نفسه. تشعر أنها تغيرت، أم أنها كانت كذلك منذ البداية، ولكنها بالتأكيد أصبحتْ أكثر جسارةً.

تتقدَّم عربة الإسعاف في الوحل بحذرٍ. تغطي حوافر الخيول كتلُ الطَّمي التي تنزعها الحيوانات من الأرض مع كل خطوة. يقودها فرنسي أجَّروا منه العربة والحيوانات. فَقَدَ السيِّد برنار ابنيه في معركة

مونس الدموية، ويقول إنه لم يستطع حتى أن يبكي على جسديهما، وما زال ذلك الندم يعذبه. يتخيلهما معروضيْن للجرذان ولمناقير الغربان، ولم يكن يستطيع النوم. كيت مقتنعة أنه لا يزال يبحث عنهما بين الجثث التي يقابلها في طريقهِ. تلكما العينان الحمراوان طوال الوقت، الجاحظتانِ في مواجهة العالم، تتمسكانِ بأمل لن يتحقق على الإطلاق.

أمامهما تتقدم أولغا على دراجةٍ ناريةٍ. أحيانًا كانت تبدو مثل نقطة بعيدة في الطريق، وأحيانًا تقترب منهما فتظهر بأكملها. من حين لآخر تتراجع إلى الخلف لتعلنَ لهم أنَ أمامهما -بالقُربِ منهما- توجد فِرَق حلفاء تتحرك. عندئذ يصلون إلى صف الجنود ويشرعون في الاختيار المؤلم لَمن يضعونه في العربة، ومَن يتركونه على الأرض، لأن الصفوف الطويلة عادةً ما تحرس في وسطها قلبًا من الإصابات الخطيرة. وكانوا عادةً ما يختارون المصابين بإصابات خطيرة ممن لديهم، في الوقت نفسه، ما يكفي من احتمالات النجاة، وأن الرحلة لن تقضي عليهم.

سألتْ كيت أمام الوحدة العسكرية: هل ينسحبون؟

أجابها برنار وهو ينظر إلى الوجوه التي تصطف أمامه الواحد تلو الآخر:

- إنهم لا ينسحبون، بل يتحركون ليدعموا الجبهة. إن الطريق لبحر العدو يتوقف هنا.

كانت مدام ديكورسيل قد ذهبت معهم، ولكنها عادت إلى الموريسيان قبل حتى أن يعْبروا الحدود، حيث كان التاكسي محمَّلًا عن آخره بجرحى حالتهم خطيرة إلى حد أنها اضطرت إلى تعليق نقالتين على سقف السيارة.

رأتها كيت وهي تصنع المستحيل حتى لا تترك مَن يحتاجون لمساعدة عاجلة. كانت تبحث بيأس عن طرق لربطها ولفك المسامير حتى تنزع أي زوائد غير ضرورية. تمسح سريعًا دموعها، ولكن يظل الألم مطبوعًا على وجهها، أحمرَ اللون. لو استطاعت حمْلَ رجالٍ آخرين على كتفيها، لفعلت ذلك.

كانت تردد: واحدًا آخر، يمكنني أن آخذ معي واحدًا آخر.

ولكن بدأت إطارات التاكسي تغوص في الوحل.

كان لا بد أن تختار، وبدأ الجزء الأكثر تعذيبًا في المهمة كلها. لم يكن ذلك الخاص برؤية الموت ولا الخوف من أن تُصاب بطلقة، بل أن تُضطرَّ لإخبار أحدهم أنْ ليس له مكان.

فعلت كيت ذلك نيابة عنها. ووضعت يدها على يد مدام ديكورسيل.

- لا بأس يا مدام.

نظرت كل منهما للأخرى دون كلام فائضٍ، وشدتا كلٌّ على يد الأخرى.

كان لا بد من مساعدة التاكسي، حتى ينطلق، بدفعه نحو منطقة أكثر جفافًا، نظروا إليه بينما يبتعد وهم يشعرون بالحنين، كما يحدث مع عاصفة من العصافير المهاجرة في نهاية فصلهم الجميل. لن تعود مدام ديكورسيل مرة أخرى في ذلك الشتاء، فعليها العودة إلى باريس.

ساحة المعركة في بلجيكا أسفرت عن محتضرين أكثر، وسرعان ما بدأت عربة برنار في الامتلاء.

بينما تعالج كيت مَن سيبقى، وزعت أولغا وبرنار الطعام والماء على صف الواقفين.

تجلب الرياح روائح تثير الغثيان. هواء أسودُ، دهنيٌّ، يلتصق بالجلد وله رائحة الرماد والسم.

التفتت أولغا نحوها وهي تسعل:

- ما هذا الذي نستنشقه؟ لم أعد أستطيع التحمل.

لم تكن كيت ترغب في التفكير في هذا. لا بد وأن الوحدات الأولى قريبة، ولكن حركة تشكيل الجبهة تتغير من ساعة لأخرى. أعطتها ضمادة نظيفة.

- ضعيها على أنفك وفمك.

وفعلت بدورها الشيء نفسه. وأشارت أولغا لنهاية الصف.

- يوجد إنكليز هناك، يرغبون في التحدث معك.

- معي؟

- في الحقيقة، اعتقدوا أن برنار هو الطبيب. أجبتهم أنني سأرسل لهم طبيبًا يرتدي تنورة. لا أعتقد أنهم قد فهموا.

ذهبت إليهم كيت واستعدت لأن تتحدث معهم بنبرة سلطوية، طريقة لتخنق بها بدايةً أي اعتراضات أو جدل. عندما رأوها نهض أربعة منهم.

- أردتم التحدث معي؟

بدوا مأخوذين من المفاجأة. بدا اثنان منهما متماسكيْن، أحدهما كان

قويًّا كالعملاق. بينهما كان يقف فتى عمره على الأكثر سبعة عشر عامًا، تشوهَّتْ جبهتهُ إثرَ كدمة متورمة. استعاد الرابع نفَسَه بسرعة وقدَّم نفْسه.

- ملازم صمويل كونواي يا سيدتي.

أجابت كيت على إيماءة التحية

- دكتورة هيل.

بدا وكأنه يزن المعلومة. وللحظة فتشت نظرته على الضمادة وعليها علامة الصليب الأحمر الموضوعة على ذراع كيت.

- هل تشرفين سيادتك على بعثة الإنقاذ.

- لا نتبع هيئة عسكرية، ولكن أشرف أنا.

- إذن لا بد وأن أطلب مساعدتك.

انحنت كيت لتفحص جبهة الفتى الأصغر: لَمِن؟

لا يوجد أي شيء مكسور.

انحنى الملازم كونواي بجوارها وأشار إليها بالطريق الذي عبرته للتو.

- قائدنا مكث بالخلف. ربما أُصيب.

خمنت كيت الطلب.

- ما عمر هذا الصبي؟

- هل سمعتني حضرتك؟

نهضت هي، وفعل هو بالمثل. نظرت مباشرةً لعينيه، وهي تحاول أن

تبدو أصلب مما تشعر به في الحقيقة. تعلمت، بعد أن دفعت الثمن، أن اللطف لدى المرأة يمكن أن يُفهم على أنه ضعف.

- سمعت يا حضرة الملازم، ولكنني لا يمكنني أن أجعل المصابين الذين أنقذناهم ينتظرون. لا بد أن نأخذهم إلى المستشفى ونبدأ العمليات الجراحية. على كل حال، لم يعد لدينا أي مكان.

- يوجد دائمًا مكان.

شعرت كيت برغبة في الضحك، ضحكة عصبية وعدم ارتياح.

يقول ذلك الرجل «لها هي» أن تعثر على «مكان آخر فقط». هي، والتي مثل زميلاتها، لا تفعل شيئًا من أسابيع سوى وصل الليل بالنهار ليعالجن «واحدًا آخر»، ولينقذن «واحدًا آخر».

تنهدت بعمق قبل أن تُجيب.

- العربة ثقيلة فوق ما تحتمل أيها الملازم، وهذا الطريق نهر من الطمي. إذا جعلتها تتقدم بعض الخطوات سنظل معلقين هنا، بكل صدق أقول لكم أن الرجال الذين وضعناهم فوقها لن يمكنهم البقاء ليلة أخرى في العراء. لا أستطيع أن أخاطر بكل هذا من أجل رجل واحد، قد لا يكون حيًّا.

نهض الصبي.

- هو حيٌّ! بالتأكيد حيٌّ!

حاول الرفاق تهدئته، ولكن بدا مضطربًا جدًّا. حاول الملازم أن يشرح نيابةً عنه.

- لقد أنقذ القائد حياته. نعتقد أنه ربما أُصيب على بعد خمسة أميال

غربًا من هنا. هناك توجد طاحونة قديمة، وربما أعاقته النيران هناك.

لحقت بهم أولغا وسألتهم:

- وإذا كنتم تعتقدون أنه حي، لماذا لم تذهبوا أنتم لاستعادته؟

نظر إليها الجندي، وعلى وجهه تعبير مَن تلقى لتوه لكمة في بطنه.

- لأن الأوامر لا تسمح لنا بهذا. إذا تركنا التشكيل وعدنا إلى الخلف، ربما يُعد ذلك هروبًا من الجندية.

وتوجه مرة أخرى لكيت:

- لن أطلب منكِ هذا إذا اعتقدت أنه مجرد جنون. إنه حي، وموجود هناك.

كان الأمل اليائس لصديق، ليس إلا. فكرت كيت.

ابتعدت أولغا بعض الخطوات. تبعتها كيت وأمسكت بذراعها.

- لا تفكري في الذهاب، الألمان موجودون في تلك الناحية.

لم تستطع كيت أن ترتب أفكارها. ابنتها. القسم الذي أقسَمته عندما أصبحت طبيبة. المرأة التي عاندت حتى أصبحت ما هي عليه الآن، والتي هي الآن لا تسمح لها بأن تتراجع.

تمتمت: ماذا يمكنني أن أفعل؟

لم تكن لدى أولغا أي شكوك.

- كانت موراي ستقول لنا أن نرحل بلا أي تردد. يطلبون منكِ أن تخاطري مخاطرةً شديدة.

لم تكن فلورا موراي موجودة معهن. وكان على كيت اتخاذ القرار. مسحت وجهها في ذراعها، ربما حماها رمز الصليب الأحمر.

- ليست سوى خمسة أميال.

- كيت، لا!

خمسة أميال وقد توقف القصف. لا يوجد المزيد لتدميره ويحاول العدو أيضًا إنقاذ جرحاه.

عادت إلى الجنود.

- نحو الغرب؟

مرر لها كونواي بسرعة خريطة، عبر العملاق الواقف بجانبه، وأشار إليها بالاتجاه الواجب اتباعه.

- طاحونة، موجودة مباشرة في نهاية هذا الطريق. ستعثرين عليها على الشاطئ الأيسر من النهر، مباشرة بعد هضبة منخفضة. لا توجد سواها.

حاولت كيت أن تحفظ الخريطة، وهي متأكدة أنه فيما بعد سيتسبب الخوف في فقدانها لاتجاهها. أعادتها له وأمسك هو بيدها.

- أشكرك.

أفلتتها كيت منزعجة بينما تشير بابتسامة. ربما هي في طريقها للبحث عن شبحٍ، ولكنها لم تستطع قول هذا.

تركت لبرنار تعليمات الانتظار. ستتوقف الوحدة في المكان من أجل استراحة. سيكونون في أمان، أخذت حقيبتها ووضعتها على كتفها،

وأخذت كيسًا به نقَّالة يمكن تركيبها كان جوزيف قد صنعها لها وشحنها من لندن.

أعطاها برنار مسدسًا.

- من أجل حمايتك. هل تجيدين استخدامه؟

نظرت له كيت برعب، ولكنها كانت تعرف أنها لا يمكنها الرفض. أومأت بالإيجاب، وعندما وضعته في حزامها كانت يداها ترتعشان.

خلفها سمعت صوت دراجةٍ ناريةٍ. كانت أولغا تضع نظارة الوقاية. لحقت بها كيت.

- ماذا تظنين أنك فاعلة؟

ضغطت أولغا على دواسة البنزين.

- سآخذك أنا يا دكتورة، وليست لديَّ أي نوايا للنقاش. اصعدي!

اتخذت كيت مكانها خلفها، وذراعاها ملتفان بقوة على جسد رفيقتها القوي. وأراحت ذقنها على ظهرها.

- أشكرك.

٢٣

رحلت كيت وأولغا في الاتجاه المعاكس لاتجاه ويميرو وقناة المانش التي تفصلهما عن الوطن. يستمر الطريق المحفور ملتويًا بخفَّةٍ في الريف المُقتلع. ارتفعت سحابة أدركت كيت بعدها بقليل أنها دخان، وبدأت العيون تَدمع. كل ما كان حيًّا يئنُّ الآنَ، يحترق ببطءٍ في فرقعات مفزعة. حتى الأرض كانت تشتعل، وينبعثُ الدُّخانُ من أحشائها. فكرت كيت، ماذا ارتكبوا بحقِّها؟ لم يبق خطٌّ عشبيٌّ واحدٌ. جيَف الخيول تراكمت سُودًا تُذكِّر بالقبور. وبجوارها، في تلك القبور، يرقد المئات من البشر عُراةً.

حاولت كيت أن تتخيل كيف يمكن أن تبدو عليه ساحة المعركة، ولكنها لم تفلح، ولن يمكنها أبدًا أن تصفَها بالكلمات. لا يمكن لشيء أن يعبِّرَ عن مذبحة الحياة التي تجري بجوارها.

انحرفت الدراجةُ الناريةُ وكادت أن تنزلقَ؛ لكنَّ أولغا استطاعتْ أن تحفظَ توازنها.

صاحت، صاخبةً: الكثير من الوحول!

بعدها بميلٍ، وجدتا نفسيهما في مستنقعٍ غطته أوراق الأشجار عن النظر. نزلتا وحاولتا الدفع، ولكن لا سبيلَ للاستمرار.

تقدمت أولغا سيرًا على الأقدام لتتبيَّنَ الموقف، وعندما عادت لم تحمل معها أخبارًا جيدة.

- كل المنطقة على هذا الحال، بدايةً من هنا.

رفعت كيت نظرتها عن عينيْ شابٍّ برز من أسفل المياه.

- لا بد أن تلك هي الهضبة التي تحدث عنها الملازم.

خلف الدخان المتصاعد، يظهر مرتفعٌ ما، شاحبٌ.

التفتت أولغا بحثًا عنها بنظرتها.

- حتى وإن وصلنا سيرًا على الأقدام، وعثرنا على المفقود هناك، كيف سيمكننا إعادته حتى هنا؟ هل سنسحبه؟ سوف يستغرق الأمر ساعاتٍ. وليس لدينا كل هذا الوقت.

حاولت كيت تذكُّر الخريطة. فقد اقتربتا بالفعل من الهدف.

في الصمت تنعق الغربان. ترتفع في طيرانها ثم تنقضُّ على الجثث، وقد أزعجها حصانٌ شاردٌ يصهل فزعًا، ومن حين لآخر كان يركل كأنَّ مفترسًا يحاصره.

همست أولغا: حيوان مسكين سيموت جوعًا.

اقتربت كيت من الحصان:

- لا، سنأخذهُ معنا.

- احترسي، ربما جعلته الصدمة عنيفًا.

- يحتاج فقط لمن يطمئنه.

لم يكن الحصان الأول الذي تتعامل معه كيت، ولا حتى أكثرها ضراوةً. ففي حياتها السابقة كانت تحبها وتعتني بها. تمتلك عائلتها جيادًا رائعة، وفخورة. بدأتْ منذ طفولتها بركوب الخيل، وكانت قادرة، حسب قول أمها، أن تروِّض أصعبَ الخيول. وتمنَّت أن شيئًا ما من ذلك السِّحر بقيَ معها.

تحدثت بعذوبةٍ مع الحيوان، وأطلعته على يديها العاريتين. سمحت له بأن يشتم رائحتها في الهواء وأن يقرر إذا ما كانت تستحق الثقة. لاحظت منخريه يتمددان، وعينيه تحدِّقانِ فيها، فزعتيْنِ ولكن لديهما الرغبة أيضًا في العثور على مرشدٍ جديد. زفرَ الحصانُ. شعرت كيت بألم من أجله، عندما رأت قائمتيه الأماميتين ترتعشان. كان منهزمًا.

تحدثت معه مرةً أخرى، حتى اقتربت منه بما يكفي لتضع يدها على خطمه. عندئذ شعرت به يستجيب لتربيتاتها ويضغط على كفها. ربتتْ عليه ما يكفي من الوقت لتعزيز صِلتهما، والتأكد من أنه ليس مصابًا.

عندما شعرت أنه مستعد، أخذت اللجام، ووضعت قدمها على الرِّكاب، وصعدت على السرج.

اقتربت أولغا قليلًا: لا يمكنني أن أصدق.

أدارت كيت الحيوان وسلمتها المسدس:

- حبًّا بالرَّبِّ يا أولغا، استعمليه بحرص. أنتِ طبيبة. في حال أصبتِ جنديًّا صديقًا، عالجيه!

- إنْ لم نعد خلال نصف ساعة، ارحلي من هنا.

نخستْ الحصانَ واتجهت إلى الهضبة، حيث تلاشتْ في الدخان الكثيف.

النيران مشتعلة في كل مكان من حولها. لم يكن هناك أي أنين ولا أي شيء يتحرك سوى النيران، ولكن عند نقطة ما بدا لكيت أنها تسمع أصواتًا.

أبطأتِ العدْوَ حتى توقَّفتْ، وأخذتْ تنصتْ. أمامها شخصٌ ما.

أخذ قلبها يدق بعنف، ولمست يدها بالغريزة جانبها الخالي من السلاح.

خرجت ثلاثة وجوه من الظلال. يتسلق ثلاثة جنود حطام أحد المنازل بحثًا عن شيء ما، أو ربما شخص ما. لم يروها بعدُ. لم تحتج كيت لأن تلحظ أزيائهم لتفهم إلى أي جانب هم. فقد كانوا يتحدثون الألمانيةَ.

تسارعت أفكارها. هل تمكث ثابتة في مكانها وتتمنى أن يرحلوا، أم تنخسُ الحصانَ وتحثُّه على الركض وتستمر، أم تغير اتجاهها وتهرب. كان صهيلُ الحصان هو مَن حسمَ خياراتها.

رآها الجنود، ورفعوا بنادقهم، وسدوا الطريق. مكثت كيت ساكنة، مدركة واقع أن قوة الحصان هي قوتها. إذا استطاعوا إنزالها ربما لن تستطيع الصعود مرة أخرى.

كانوا رجلين وشابًّا صغيرًا جدًّا، وجهه مشوَّه. وجنته قطعة من اللحم، متدلية، ونازفة. نظروا إليها وكأنها تجلٍّ ما، ولكن سرعان ما سيخفت تأثير مفاجأة وجودهم أمام امرأة ترتدي زِيًّا مجهولًا وسط

مملكة الأموات هذه، حيث يمكن لأشد الرجال صلابةً أن يرتجفوا، ولا أحد يعرف ماذا سيفعلون بعدها.

لفَّت كيت اللجام على كفها، وشعر الحصان بالتوتر على الفور وشد وجهه. إذا كانت سعيدة الحظ، سيفهم صديقها الجديد ما عليه فعله، وعندئذ سيكون مستعدًّا ليركل من جديد في حال انتقلَ أحد الجنود خلفهما.

ولكن، كل هذا لم يحدث. أحد الرجال تحدث بالألمانية وهو يشير إلى الشريط الملفوف على ذراعِها.

اللغة التي يمكنها استخدامها، فكرت كيت، يمكن أن تجلب لها الحياة أو الموت، وتكشف عن صديق أو عدو، في تلك اللحظة التاريخية أكثر من أي وقت مضى. كانت محظوظة ويمكنها الاختيار. ما كانت تعده في الفترات الأخيرة لعنة، بدا مساعدًا لها الآن.

أجابت بثبات بالإيطالية، بنبرة لا تسمح بأي تردد. قالت مَن هي، ومهنتها، وطلبت إفساح الطريق لها. كانت تعرف أنهم في أغلب الأحوال لن يفهموا لغتها، ولكنها عرفت أيضًا أنهم لن يتعرفوا عليها، ومعنى هذا أنها من بلدٍ محايدٍ، وربما يُعد من الحلفاء المحتمَلين.

أنزلوا بنادقهم، ولكنهم لم يفسحوا الطريق. وضعت كيت يدها ببطء في الحقيبة، وأخذت لفة ضمادات وألقت بها إلى الشاب، وفعلت الشيء نفسه مع عبوة يود. وتمنَّت أن تكون هذه العطية كافية لتبتاع لها إمكانية العبور.

نظر إليها الشاب طويلًا، وفي تلك اللحظات اللانهائية، تغير تعبير

وجهه. في البداية لم يكن سوى انعكاس رخام محفور على ذلك الوجه القاسي، ثم عادت الإنسانية لتكسوه، ولترعش شفتيه للحظة، ولتنير عينيه السوداوين. ولكن لم يستمر ذلك سوى لحظة واحدة.

كان هو أول مَن تحرك، وضع البندقية على كتفه، ثم ابتعد، بعيدًا عنها، وعن أولغا وعمَّن ربما يكون هناك فيما وراء الهضبة. تبعه الآخران، بعد إشارةٍ، ربما كانت تعني الشكر. عندئذ فهمت كيت أنه هو القائد، ومرة أخرى تساءلت عن قوة الجانب المظلم الذي تغذيه الحرب داخلَ كلٍّ منهم، إلى حد أنها تحوِّل روحًا شابةً مثله إلى وحشٍ ضارٍ.

نخستْ الحصان ليركضَ، وعاهدتْ نفسها مرتجفةً، بأنها لن تقفَ حتى بلوغِ هدفها بأي ثمن. تخطت العوائق وقفزت فوق الجثث وتقدمت للأمام.

٢٤

رفعَ ألكسندر جفنيه بصعوبةٍ. كانت تغطيهما قشرةٌ من التراب والدماء. تخللَ عينيه ضوءٌ ورديٌّ. ربما هو الغروب أو ربما ارتفعت النيران أكثر. رأى الأرضَ تشتعلُ فيما وراء الجدار المحطَّم.

توقَّفَ الأنينُ، وانطفأتِ الأنفاسُ.

يسحقُ صدرَهُ ثقلٌ غير بشريٍّ.

ربما هي يدُ الرب. رب ناقم على الإنسانية. لم يستطع التحرك، لم يعد يشعر بساقيه أو ذراعيه. جفناه ينبضان، وفي فمه مذاق الدم.

تذكَّر النصل الذي سقط على وجهه وقطَّعه.

لم يتركه العدو ليعيش، بل حكم عليه بعذابٍ طويل، أسوأ من الموت الذي كانت يمكن أن تسببه رصاصة. العجز الذي أُجبر عليه يمكنه أن يتسبب في جنونه.

كان العطش يلتهمه بالفعل. وعضلات جسده مُسمَّمة من الضغط. تضغط الدعامة على أضلاعه حتى ساقيه، وتسحق لحمه ببطء.

حاول ألكسندر أن يسمع أصوات الجبهة من بعيد، ولكن، فيما

عدا نعيق الغربان وأجيج النيران، ساد الصمت. تمنى نجاة رفاقه، وأن يكونوا في طريقهم إلى الخطوط الأخرى التي عليهم الدفاع عنها.

إذا وجبَ عليه أن يموت، وحيدًا هنا، فيريد حدوثَ ذلك بسلامٍ. لا يمكنه التفكير في أشياء تواسيه سوى في ذلك الضوء الذهبي النازل على الوجه.

حاول البحث عن السماء بين الحطام، ولكن بدا وكأن العالم غاطسٌ في سحابة.

حرك جفنيه أكثر من مرة ليتخلص من التكلسات. وبين أعمدة الدخان بدا وكأنه رأى رؤية. امرأة تقود حصانًا من لجامه، تتقدم نحوه بخطوات ثابتة. تحرِّكُ الرياحُ تنورتَها، وشعرُها الطويلُ مفرودٌ، ربما تأثُّرًا بمهمة إلهية.

أغلق ألكسندر عينيه. لا بد وأنها خدعة مؤلمة من ذهنه المحتضر، الذي لا يرغب في الانطفاء وحيدًا، أو أن ملاكَ الموت نزل إليه في أرض ملائكة ساقطين.

بدا له أنه يسمع زفيرَ الحيوان، وإيقاع خطاه، وهفيف نسيج التنورة. ثم الصمت. شعر بيدين دافئتين على وجهه، وبرغبة مندفعة في أن يقبِّلها كما يفعلون مع أيادي القديسين. كانت تتحسسه من رأسه إلى عنقه.

وأنفاسها على بشرته.

- سآخذك معي.

ضغطت بالزمزمية على شفتيه، ارتوى هو بالمياه والمواساة.

أراد أن يقول لها إنه لا أملَ في تحريره بيديها، اللتين تبدوان لمخلوقٍ سماويٍّ، ولكنه لم يستطع التحدث. كان يكفيه ألاَّ يموت وحيدًا.

ابتعدتْ هي وشَعر ألكسندر بالبرودة. فتحَ عينيه من جديد. عثرت المرأة على سلسلةٍ بين معدات الطاحونة. ربطت طرفها في الدعامة التي تسحقه، والطرف الآخر في سرج الحصان. أخذت تنخس الحصان ليسحبها. اكتسى وجهُها بالحُمرة، وقدماها انغرستا في الأرض، بعنادٍ يائس.

تحركت الدعامة. تساقط، في البداية، جير منزوعٌ من الجزء العاري، ثم بعد ذلك أصبحت الرعشة حاسمة أكثر.

تلمع عضلات الحيوان من العرق، وتتكاثف الأنفاس في زفرات. كانا يصارعان معًا، هو والمرأة ولم يتراجعا خطوة واحدة.

- هيا تقدم!

يسمعها تحثه، ولكن لم يكن في صوتها نبرة أمر، بل توسُّل.

عندما استسلمت الدعامةُ في النهاية، محرِّرةً إياه، لم يكن ثمَّة سوى الظلامُ وألمٌ لا يُطاق لألكسندر.

٢٥

شاتو موريسيان، ويميرو، فرنسا

إذا لم تكن مريضًا في شاتو موريسيان، تُعد المياهُ رفاهيةً. والمياه الساخنة مجرد حلم.

شعرتْ كيت بالانزعاج عندما وجدت في انتظارها حوض الاستحمام، ممتلئًا بالفعل ويتصاعد منه البخار، في الحمام الذي تتقاسمه مع زميلاتها. على صحن من البورسلين صابونة برائحة الزهور فُتحت خصِّيصًا من أجلها. خفَّ شعورها بالحرج بعض الشيء عندما أكدت لها هيزيل أنهم استقبلوا أولغا أيضًا بالطَّريقة نفسِها.

قالت لها: استمتعي به.

وهي تغلق الباب خلفها.

خلعت كيت ملابسها وغاصت بحرص مَن يؤدي طقسًا ما، وهي تعد نفسها بأنها ستجعله يستمر طويلًا، حتى تبرد المياه، ولكنها بعد أن دعكت بشرتها ونزعت الأسود عن جبهتها، بدا لها أن الكسل خطيئةٌ.

غاصت بجسدها ورأسها حتى يخفت صوت العالم الخارجي. جذبت ركبتيها نحو صدرها، وكأنها في رحم أمٍّ ساخن.

سببت لها الخبرة في ساحة المعركة اضطرابًا، وتركتْ أثرها عليها.

أحيانًا، تشعرُ كيت بنفسها كالريح، هاربةً حتى من نفسها، ومن الأمنيات الجسدية. تذهبُ إلى ما وراء ما استعدت في البداية لفعله، ولا تتوقف. في الماضي استطاعت أن تُخضعَ كلَّ ما بداخلها لتُنجبَ ابنةً. الآن، تلك الريح عادت لتهب بقوة بداخلها، ولكن الحياة مرة أخرى تضعها أمام ما يعوقها.

خرجت من تحت المياه، وأنفاسها متقطعة.

وصل خطابٌ من مينا أثناء غيابها. قرأته قبل أن تخلع المعطف والحذاء المتسخ بالوحل، بينما زميلاتها كُنَّ يُسرعنَ نحو الجرحى، ليقيِّدنَ أسماءهم -المدوَّنة على قلائد هُويَّاتهم المعدنية- في سجلِّ نزلاء المستشفى.

لم تحتو الرسالة على رسمٍ، بل على نبأ سيِّئ. لا بد لمينا وجوزيف أن يخليا المنزل الذي يعيشان فيه، ومعهما آنَّا. عثر صاحب البناية على جهة أكثر ربحًا من السكان المحليين. رجتْها مينا ألاَّ تقلق، حتى إذا اضطرا إلى البحث عن مكانٍ آخرَ.

كتبت لها كيت ردًّا على الفور، ووضعت في الظرف كلَّ مدَّخراتها، مع وعْدٍ بإرسال المزيد في أقرب وقتٍ.

أن تكون بعيدةً عن ابنتها، إنَّه لأمرٌ يسبِّبُ لها كثيرًا من المعاناة، ولكنها تُدرك في الوقت نفسه أن ذلك العملَ الآنَ ثمينٌ أكثرُ من أي وقتٍ مَضى.

جففت نفسها وارتدت ملابسها في عجالةٍ دون أن تنتظر فتورَ

المياه، وذهبت للبحث عن مهام جديدة. لم يعهدوا لها بأي عمليات هذا المساء، إلاَّ أنها كرست نفسها لتنظيم الإمدادات في صيدلية المستشفى. وبمنهجية ودقة أطفأت الانفعال الذي تشعر به يدق في حلقها.

ومن الباب أطلت غيرترود.

- كيت! موراي تريدك. نحتاج لقدرتك على التطريز.

وضعت كيت أكياس اليود التي تبرز من إحدى القوائم. كان لابد لها أن تتفحَّصَ بعض الصناديق التي وصلت للتو. انتظر المستشفى تلك الإمدادات لأيام، وعلى ما يبدو فإنها غيَّرت مسارها إلى الجبهة. للتوفير، استخدمتْ المُطهِّرَ بقَطَّارةِ دواء العين. فقد تضاعفت حالاتُ التلوُّثِ. تُنفَّذُ الجراحةُ دونَ مخدِّرٍ، وعمليات البتر بمساعدة الثلج.

- الآن؟ لا بد وأن أعدَّ القائمة، ولا...

- ما هو شعارُنا يا كيت؟

«الأفعالُ، لا الكلماتُ».

وضعت كيت الورقةَ بما عليها من ملحوظات وذهبت لتبحث عن فلورا.

عثرت عليها في الصالة المُعدة لإجراء الجراحات. كانت قد خلعت قميصها بالفعل؛ وتدعك بالصابون ذراعيها بقوةٍ.

- لقد عالجناه.

قالت بجفاء دون أن تلتفت. أحيانًا تبدو واعية بما يدور حولها، حتى فيما وراء الجدران.

- القائد الذي أنقذتِهِ غيرُ مصابٍ بإصابات خطيرة. كدمات السحق خفيفةٌ. لا يوجد أي كسر ولا أضرار في الأعضاء الداخلية. فقط كتلة دموية، تستدعي الانتباه ولكنها ليست مأساوية. قامت لويزا بالخياطة الداخلية لعظم الفك، ولكن تلك النهائية فهي دورك.

فكرت كيت في الساعات -ساعتان على الأقل- التي تنتظرها لتجلسَ بانحناءٍ على مقعد العمليات، أسفل أضواء تحرق عينيها الملتهبتين أصلاً بسبب دخان الجبهة.

- لم أرتحْ بعدُ، ويدايَ ليستا ثابتتيْنِ بما يكفي.

- أنتِ الأمهر في الخياطة، ولا يجب أن تَظهر على ذلك الرجل ندوبٌ واضحةٌ. لقد أحضرتِ لنا أحد أبطال مونس، حسب ما يقولون. لا بد أنه يحظى ببركة الملائكة، على الأقل.

بدا لكيت أنها رأتها ترفع عينيها نحو السماء في إيماءة غضبٍ نادرة. كانت هي أيضًا منهَكة.

- ليس هذا كل شيء. اسم عائلته اسم كبير في قصور لندن، يصل إلى مقر الحكومة في وستمنستر. اذهبي لتخيطي له وجهه، وسنشعر نحوك جميعًا بالامتنان.

أعطتها الصابونة، وتركتها مع الرغوةِ، ضعيفةً لا تقوى على الجِدال.

هيَّأتْ كيت نفسها وذهبت إلى صالة العمليات.

كان الرجل مُمدَّدًا على سريرٍ الصغير ومغطىً بمُلاءة بيضاء. لم تسأل كيت فلورا كم سيستمر مفعول التخدير، كما اعتادت أن تفعل.

اختارت الأدواتِ من بين تلك المُعقَّمة على الصينية: الإبرةَ والخُطَّافَ، الأصغرَ والأكثرَ حدَّةً، ومقصًّا. بلا ملقاط يحمل الإبرة ستستخدم ضعف الخيط والوقت، ولكن ستكون النتيجة غُرزًا متقاربة وغيرَ مرئية. فحصت العديد من أنواع الخيوط في الضوء، تريدُ فقط تلك المكتوب على بكرتها «خيط أحادي الشعيرة». كان أبوها يكرر ذلك دائمًا على أسماعِ مساعديه: إنَّ الشُّعيرة والمعيار هما ما يصنعانِ الفارق، بالإضافة لمهارة يدِ الجرَّاح.

دارت كيت حول السَّرير الصغير. كان نائمًا. ثَقبَ الجرحُ وجنته اليسرى، ولكن الجرحَ الآن قد أُغلقَ تمامًا.

ظلال اللحية الذي رأته بها اختفتْ، حلقوا له، ونظفوه قبل الجراحة.

أخذت تنظر إلى جلده. كان مشدودًا على الصدغين ويبرزُ فوقه قليلٌ من النمش عند الأنف. على الذقن، ندبة قديمة تبدو بيضاء ومتدرجة، أثرٌ لمعركة في الطفولة، ربَّما. مررت كيت فوقها طرف إصبعها، كانت سعيدةً لأنها وجدتها مسطحة الملمس، مبشِّرة بالخير. لون الندبة الجديدة سيكون فاتحًا مع الوقت، وسيمتصُّها الجلد ببطءٍ. يتمتَّع بجلد قوي، لوَّنته الشمس والرياح، لا يحتفظ بالآثار القاتمة والمتورمة للكدمات، ولكن مثل الخشب يُصقَلُ ويتغير لونُه. لا بد أنه كان أشقرَ في طفولته، لأنَّ اللَّون الكستنائيَّ لشَعره يحمل آثاره في الجذور.

جلستْ على المقعد. وبمساعدةِ ضمادة مسحت السطح الخارجي بمحلول اليود وأحصت ذهنيا عدد الغرز التي ستخيط بها الجرح. فحصت من أين تبدأ وكيف ستنفذ انعطافة رسغها المناسبة لتصبح الغرزة الأولى كاملة ولا تترك أثرًا. تخيلته مبتسمًا، وستتبع ذلك الميل

التخيلي المرسوم على الشفتين حتى تمنح الندبة مظهر تجعيدة تعبيرية. حافَّاتُ الجرح دقيقةٌ ونظيفة، ما يسمحُ لها بعملٍ جميل.

وضعت الخيط في ثقب الإبرة واستعدت لتخيط، عندئذ فتح عينيه. رآها وهي تحاول أن تركز على ملامحه، وغشاه الضوء المُسلَّط على وجهه. تقلَّصتْ حدقتاه بعنف.

نهضت كيت ونادت ممرضةً، ولكنه أمسكها من رسغها. حاول أن ينهض وبدا أن رؤيته لصدره الذي كشفتْ عنه المُلاءة أصابه بالتَّوتر. عندما لاحظ الإبرة في يد كيت، كاد يقفز من مكانه.

- ماذا تفعلون بي؟

حاولت كيت أن تعيده إلى وضعية الاستلقاء.

- حضرتك جريحٌ في المستشفى.

ترك يدها. ومرر يده على وجنته.

- لا تلمسها.

- هل هذا مستشفىً عسكري؟

- لا.

- أيُّ مستشفىً إذن؟ وأين؟

- حضرتك في فرنسا، في ويميرو.

- أريد طبيبًا.

في ظروف أخرى ستضحك كيت على تلك النَّبرة، نبرة عدم التصديق وبعض الخوف. مختَصرة في مقاطع قليلة.

إنَّ خياطة الجروح هي عمل الطبيب الجراح، وليس عمل الممرضات. والقائد مثل العديد من الجنود في مهنته معتاد على إدارة الطوارئ الطبية، لا بد وأنه يعرف ذلك. ربما هذا هو سبب قلقه، خشيَ أن يكون بين يدين غير متمرستين، وغير ماهرتين. بالإضافة إلى أنهما يدا امرأة، بالتأكيد غير ثابتتيْن.

اعتادتْ كيت بالفعل نوعيات معينة من ردود الأفعال، ولكن ذلك المساء لم يكن مناسبًا أن يطلبَ منها أحدُهم التفهم والصبر.

- أنا الطبيبةُ الجرَّاحة.

وصلت أولغا. هي أيضًا عادت على الفور للعمل.

- هل ناديتِ؟

- من فضلك، قولي لدكتورة موراي إنَّ المريض استيقظ. يلزمنا المزيد من الكلوروفورم.

- لا أريد أن أنام.

وضعته كيت مرة أخرى ليستلقي على السَّرير.

- وكيف سيمكنني أن أخيط جرحك وأنت مستيقظ؟

- أحتاج لطبيب وليس لخيَّاطة.

لم تستطع أولغا أن تمسك نفسها.

- ولكن لتستمعي إلى هذا! كان لا بد أن تتركيه حيث كان، حيث الغربان ستؤدي واجبها.

قربت كيت وجهها من وجهه وقالت بوضوح:

- لقد قمتُ بالفعل بعمل العديد من عمليات الخياطة، أكثر دقة وأهمية من وجهك، حضرةَ النَّقيب. ليس لديَّ وقتٌ لأضيعه، هناك في الخارج يوجد صف من أناس حالاتهم أصعب من حضرتك. والآن قل لي: هل تريد التخدير أم لا؟

- لا.

حاسمة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- رائع.

سيكون للبطل إذن ما طلبه. أمسكت أولغا بوجهه لتبقيه ثابتًا، وخفضت كيت المصباح وبدأت الخياطة. مع كل غُرزة كانت تشعر به يشد عضلاته ويضغط قدميه، كل شيء محاولاً ألاَّ يصدر أي تأوهٍ. رأته يضغط على أسنانه حتى كاد يكسرها. أحيانًا كانت تراه يرفع نظرته كي لا تدمعَ عيناه. عندئذ كان الضوء يكشف عن اللون الحقيقي للعينين، واللَّتيْنِ بدتا في الظلال بلون الرصاص، إلاَّ أنهما كانتا خضراويْن.

كل هذا الألم من أجل لا شيءٍ. تحدي إرادة مع مَن؟ معها؟

لم تشعر بالشَّفقة. خاطت العديد من أولئك النساء دون أن تستطيع استخدام مخدر لأنه كان مُكلفًا جدًّا، ولم يكن بوسعها حتَّى وضعه في الحسبان. وكأن عملية الوضع لم تكن الخبرة الأكثر شجاعة والأقرب للموت التي يختار الإنسان أن يخوضها ليمنح للنور مخلوقًا آخر. أن ينقسمْ وهو يدفع بنفسه، في محاولة يائسة لينجوَ كلاهما.

وبعد حوالي ساعة من هذا العذاب، تحدَّث معها.

- هل زوج حضرتك يحارب في الجبهة؟

كان ينظر إلى خاتم الزواج الذي يلمع في إصبعها.

- وما رأيه في أنك تدفعين بنفسك إلى ساحة القتال؟

استغرقه الأمر بعض الوقت، ولكنه في النهاية تعرف عليها.

نظرت كيت إلى عينيه.

- إن الأمر أحيانًا لا يستحق العناء.

رأته يتردد.

- وفي أي شيء تخصصك، ما ذلك الذي أصلحته من أشياء ثمينة؟

قطعت كيت الخيط، كانت قد انتهت.

- مبدئيًّا سيدات حديثات الولادة، يا حضرةَ النَّقيب. حاول أن تتخيل هذا.

٢٦

ويميرو، فرنسا ١٣ نوفمبر ١٩١٤

مرَّ يومان منذ وصوله إلى ويميرو. لم يستطع ألكسندر أن يُدرك بعدُ كيف يمكن أن يكون حال العالم الذي استقبله، وراء شاتو موريسيان. مستشفى مرضاه من الجنود فقط، يُدرنَه النساءُ حصريًّا.

سيجد صمويل والآخرون صعوبةً في تصديق ذلك. في تصديق وجود زهور طازجة تضعها المساعِدات في الغرف، وأكواب الشوكولاتة الساخنة التي تُقدَّم للترحيب بمَن هو في حالة تسمح له بشربها، والأغطية ذات الألوان المُبهجة التي تُنعش الغرف وموسيقى الجرامافون المنتشرة في الخلفية.

بل والأدهى من ذلك، سيجدون صعوبة في أن يصدقوا في وجود جراحين يرتدون التنورات، يُجرون العمليات في الصباح، وفي الليل عندما لا تكون في أياديهم المشارط يدورون بين أَسِرَّة الجناح ليتأكدوا أن مَن نجا سيستمر في النجاة. وهم لا يعالجون خدوشًا أو أمراضًا عادية. فقد رأى الجنود الأكثر غلظة يتقيؤون ويفقدون الوعي، غير قادرين على مساعدة زملائهم لأنَّهم مضطربون. وفي تلك الجروح نفسها تغرس النساء عيونهم

وأياديهم، بصلابة وثقة. نساء حاسمات إلى حد أنهن يُسكتْنَ أي اعتراض، حتى لو كان اعتراضه. استعد ألكسندر لأن يترك الموريسيان. يرتعد رغبةً في اللحاق برفاقه، فقد وصلته الأخبار بأن القوات توحدت على بُعد بضعة أميال غربًا، على الحدود.

- النَّقيب ألكسندر آلان سايمور؟

تنظر إليه امرأة طويلة القامة ونحيفة بالقرب من الباب، ترتدي زيًّا مثل الأخريات.

- أنا دكتورة فلورا موراي، مديرة هذا المستشفى.

اقتربت منه، ومدَّت له يدها. عندما شد ألكسندر على يدها، بدا له أنها أمسكت بها لوهلة في يدها وفحصته بانتباه فضولي.

- قالوا لي إن حضرتك تنوي تركنا اليوم تحديدًا.

- بالفعل. تنتظرني فرقتي بالقرب من هنا. لم تتراجع خطوط الجبهة.

- بالتأكيد لا، لا ينقصنا هذا.

- أشعر بأنكم غير موافقين على هذا الموضوع.

جلست المرأة على السَّرير، بين يديها صينية من المعدن عليها أدوية.

- كطبيب، يجب أن أقول لك إنني لا أنصحك -بقوة- بأن توقف العلاج لتعود إلى الجبهة.

- لا أريد أن أمثل عبئًا.

- مَن قال لك هذا؟

- نبرة حضرتك. لماذا تكرهينني؟

- لا، بالتأكيد لا أكرهك.

- إذن ما الذي يضايقك؟

- نتقابل كل يوم مع رجال مثل سيادتك. لا نكاد نعيدهم كما كانوا، قطعة تلو الأخرى، إلاَّ وقد بدأوا يتعجلون ليُلقوا بأنفسهم مرة أخرى للموت.

ضحك ألكسندر، ولكن آلمته الغرز. وضع يده على وجنته.

- أتمنى بالتأكيد ألا يحدث هذا. لا أنوي أن أُقتل.

رفعت هي يده. فحصت الجرح، ووضعت ضمادة نظيفة.

- فعلًا؟ شيء مثير. ربما لا بد أن تقول هذا إذن للحرب.

ترك ألكسندر نفسه ليرتاح على الوسادة:

- لم أختر أنا اندلاعها، ولكن يبدو أنك تتهمينني بذلك. في الحقيقة، أعتقد بأن حضرتك امرأة ساخرة جدًّا.

نظرت إليه دكتورة موراي نظرة جانبية، ولكن بإيماءة باسمة، غير متوقَّعة. وضعت المقص وما تبقى من ضمادة غير مستخدَمة في الصينية. ثبتت الضمادة بدبوس معدني شك جلده.

- حضرتك في كامل قواك ومُجند أيُّها النَّقيب، ويمكنك العودة لمعاركك.

أشارت للمساعِدة التي كانت تنتظر خلفها. أعطتها المرأة كومة ملابس نظمتها الطبيبة على السَّرير:

- ها هو زيك، مغسولٌ ومكويٌّ.

النبرة التي قالت بها هذه العبارة، جعلت ألكسندر يتخيل الباقي، المسكوت عنه تأدبًا في اللحظة الأخيرة: الزي جاهز من جديد ليلطَّخَ بالدماء. دماؤه أو دماء رجل آخر. ما أهمية هذا؟ تلك الدماء تروي فقط عطش الأرض الملعونة، ولا تساوي شيئًا آخرَ.

بالغريزة، كما اعتادَ أن يفعل، مد يده ليفتش الجيب الصغير للسترة. عثر فقط على الصليب الذي حفره له صمويل. لم يمر هذا بلا ملاحظة.

- هل فقدتَ شيئًا حضرةَ النَّقيب؟

- فقدت خطابًا.

- ربما فقدته في ساحة المعركة، أو ربما نُزع قبل الغسيل ثم نسيه أحدهم. يؤسفني هذا، هل كان مهمًّا؟

هل كان مهمًّا؟ لم يعرف ألكسندر أن يجيب حتى لنفسه عن هذا السؤال. قال:

- أعتقد أنه في هذه الظروف هناك أشياء أخرى أهم.

نهضت الدكتورة.

- لست متأكدة من هذا. نساعد عادةً المرضى المتعافين على الكتابة لمن ينتظرونهم في البيت، ولاحظنا أن ذلك يريحهم كثيرًا. إنَّ الغرز التي تعيد الصحة ليست دائمًا هي تلك المرئية أيُّها النَّقيب.

ثم اتجهت نحو الباب:

- سأسأل الدكتورة هيل إذا كانت، يوم جلبتك، أخذتْ شيئًا يخصُّك، ولِمَن أعطته.

يشك ألكسندر أن تلك المرأة ستقلق على ورقة عندما أنقذته. الآن أيضًا، عندما يفكر في الأمر مرة أخرى، مما يستطيع تذكُّره إنه وجد صعوبة في أن يصدق كونها حقيقية، في وسط دمار وجود ما، وجوده، في عالم تفجَّر ومستعد أن يُدمر مرة أخرى قريبًا من هنا.

- كنت أريد أن أشكرها، لم أرها مرة أخرى. أعتقد أنني لم أكن... لطيفًا.

- بلا شك. حكوا لي ما حدث. كان لقاؤك مع دكتورة هيل معركةً لم تربحها كما يبدو. ولكن لا تقلق، نحن معتادات على ردود أفعالٍ كهذه.

لم يسألها ألكسندر كيف يستطعنَ التسامح مع ردود الأفعال تلك، ويقدمنَ العناية والإنقاذ لَمن يحتقر أن تقدمها له امرأة. لم يسألها لأنه هو نفسه فَعل هذا، ويشعر بالخجل.

- هل تعرفين أين يمكنني العثور عليها؟ أريد ان أحيِّيها قبل أن أرحل.

- أخشى أن هذا مستحيلٌ. فهي الآن تعالج رجالاً آخرين، ولكنني سأنقل إليها عرفانك. وداعًا حضرةَ النَّقيب!

بدا أنها غيَّرت رأيها، وعادت خطوةً إلى الوراء:

- على كل حال، إذا قررتَ البقاء حتى الغد يمكنك أن تشكر دكتورة هيل بنفسك.

٢٧

بعد الانتهاء من نوبتها في صالة العمليات، مرت كيت لتحيِّي غريس.

استعادتِ الصديقةُ كامل عافيتها، تقريبًا، وليومين متتاليين أخذت الصديقات محلها في غرفة العمليات. إلاَّ أنه لم يستطع أحدٌ، ولا حتى فلورا، أن يثنيها عن إدارة الصيدلية، كانت تُدير الإمدادات كما كانت تفعل مع المرضى، بكلِّ دقة، ولكن كانت تفتقد كونها لا تستطيع المساعدة بشكلٍ أكبر، خاصة مع وجود كل تلك الأَسِرَّة مشغولة.

- أشعر بالذنب، فقد أنهككم التعب.

مطت كيت ظهرها.

- بمجرد أن تستطيعي، ستتولين نوبة عمل مضاعفة. بل ثلاثة أضعاف. وسأذهب أنا لأتمشى على الشاطئ الذي لم أره حتى الآن إلاَّ من وراء النافذة.

دقت غريس بالقلم على شفتيها المصبوغتيْن.

- أريد أن أذهب أنا أيضًا إن عاجلًا أم آجلًا. ربما مع نقيبٍ وسيم،

مثل ذلك الذي أحضرته لنا. أتعرفين، قالوا لي إنك اخترت اختيارًا جيدًا.

ضحكت كيت.

- عزيزتي غريس، في هذه الأزمنة لا يحافظ الجنود على وسامتهم طويلًا. ابحثي عن فارسك في مكان آخر.

- وكأن الأمر بهذه السهولة. لم يبقَ أمامنا سوى المسنين والأطفال!

اتفقتا على موعدٍ لتناول العشاء ومرت كيت على المغسلة لتسلم المعطفَ المتسخ. أخبرتها الصبية التي كانت تدعك الغسيل بالصابون والفرشاة بأن تأخذ الخطاب الموضوع على الطاولة. طلبت منها فلورا موراي أن تبحث عنها، حتى تعيده إلى المُرسَل إليه. لم تفهم كيت.

- أيُّ مُرسَل إليه؟

فردَت الورقة. وكان يكفيها أن تقرأ بعض الأسطر لتفهم مَن هو المرسَل إليه. طوتها محرَجة.

لم ترَ النَّقيبَ مرة أخرى. اعتنت لويزا بأمره، بينما حُبست كيت في غرفة العمليات، لتغطي نوبات عمل غريس.

في نهاية الأمر يمكنها، الآنَ، أن تعيد إليه الخطاب وتستغلَّ الفرصة لتلقي نظرة على الغرز.

ذهبت إلى الجناح، ووجدت سريرَهُ خاليًا، كانتْ أولغا تعيد ترتيبه.

قالت لها: سُمح له بالخروج منذ ساعتين. أراد أن يرحل مبكرًا، ولكن ترك لك رسالة.

- لي أنا؟

أشارتْ أولغا إلى طاولة السَّرير الجانبية، حيث توجد ورقة صغيرة مطوية طويتينِ مكتوب عليها: دكتورة كيت هيل. أخذتها دون أن تفتحها. ذلك الخط، واسمها يصحبه لقبها، صدمها. لم تكن المرة الأولى التي ترى فيها هذا، ولكنها المرة الأولى الذي يكتبه فيها رجل.

- كيت.

التفتت، كانت فلورا تراقبها من الباب: هل يمكنني أن أتحدث معك؟

وضعت الورقة في جيبها وتبعتها إلى الحديقة. ناولتها فلورا وشاحًا:

- ضعيه! الهواء باردٌ.

تلحفت كيت بالصوف، وبين السحب -التي بدأت تتبدد- لمعتْ النجوم أخيرًا. لم تظهر منذ أسابيع. سارت وأنفها لأعلى، تبحث عن الكواكب التي تعلمت أن تتعرف عليها في طفولتها. السماء من الغرب مروحة قرمزية تتدرج فيها ألوان بنفسجية. كان البردُ شديدًا.

قالت فلورا، دون مقدمات:

- نفكر أنا ولويزا أن نترك شاتو موريسيان.

وضعت كيت يدها على معدتها. هل ستنتهي الأفكار السيئة أم أن القدر ما زال يخبئُ لها المزيد.

- مرة أخرى؟ هل هذا يعني إغلاقها؟

رفعت فلورا كتفيْها.

- ربما سيرغب شخصٌ آخرُ في تحمُّل مسؤوليتها، لم نفكر بعدُ في الأمر. ولكنني لن أقلق كثيرًا. نساء كثيرات أُخريات سرنَ على خطانا، مثل الدكتورة إلسي وإنغليس من إنكلترا. تقريبًا كل يوم تُفتح مستشفيات تديرها نساء على الأراضي الفرنسية.

- وأين ستفتحون القادمة؟ في بلجيكا؟

- في بلجيكا؟ لا. سنعود إلى لندن يا كيت.

ثم جلست على أريكة صغيرة.

- لقد تعبنا من علاج رجال مُقدَّر لهم الذهاب إلى المعركة مرة أخرى، ليموتوا بعدها بقليل. أمر محبط للغاية، أكثر بكثير مما تخيلته. وربما لا يكون مقبولًا أخلاقيًّا أيضًا.

بالنسبة لكيت كانت صدمة. سرعان ما ستجد نفسها بلا عمل سوى ذلك العمل المؤقت الذي مارسته في الضواحي. في مستشفى شارع هارو لم يدفعوا لها ما يكفي. والعمل هناك عُدَّ خيريًّا. الأطباء من الرجال يربحون بسبب ما يقومون به من أعمال في العيادات الخاصة، ولا تملك كيت الأموال اللازمة لتفتح عيادتها. ولكن حتى لو نجحت في ذلك، هل سيذهب مَن في مقدرته الدفع إلى امرأة كي تعالجه؟

عبست فلورا:

- تبدين تعيسة، مع أنني فكرت أنك ستقفزين فَرِحة. كان لا بد أن تمكثي ستة أسابيع، والآن مرت ثمانية بالفعل، وقريبًا سترين ابنتك من جديد.

تماسكت كيت أمام شعورها بالغثيان. قريبًا لن تجد ابنتها سقفًا فوق رأسها.

- لا يمكنني العودة.

- هل تبكين؟

- لا أبكي. ولكن لا يمكنني العودة إلى لندن. أنا بحاجة لهذا العمل. سأتقدم للعمل في مستشفىً آخر، هنا، على الساحل.

نهضت فلورا.

- لا يمكنك حتى التفكير في ذلك يا دكتورة هيل.

- ولكنني بحاجة إلى راتبٍ. فقد وصلني خطابٌ. عن قريب سأكون بلا بيتٍ.

بدت فلورا مسرورة.

- هل هذه هي المشكلة؟ لا تقلقي. أنت الآن لديك عمل وراتبٌ. بل وسقف فوق رأسك أيضًا. وصلنا خطابٌ من لندن، يضمُّ مقترحًا من وزارة الشُّؤونِ الحربية البريطانية. لقد رضخوا أمام الواقع وأمام التقرير المتحمِّس الذي قدمه لورد إشر.

- هل تحدث لورد إشر عنَّا بطريقة إيجابية؟

- مع الكثير من المديح. مَن كان يتخيل ذلك؟ إلى حد أن سير ألفريد كيوج، من الخدمة الطبية للجيش يقدم لنا إمكانية إدارة مستشفى حربي في لندن. «مستشفى حربي» يا كيت. سنعتني بالمصابين بالجروح الخطيرة والذين يصلون بالآلاف إلى المدينة،

وقد غصَّتْ بهم مراكز الإنقاذ. رجال لن يعودوا مرة أخرى إلى الجبهة، ويحتاجون عنايةً متقدمة.

نهضت وأمسكتها من ذراعها وهي تدعوها للمشي في الخارج.

- لقد سبق وحدثتك عن الخبرة التي عشتها في سجن هولواي، أليس كذلك؟ لقد قُبض عليَّ في أعقاب مظاهرات كاكستون هول. كان ذلك في الثامن عشر من نوفمبر ١٩١٠، منذ أربعة أعوام. رأيت النساء اللاتي تعرَّضن للتحرش، ومن بينهن لويزا. مكدَّسات في زنزانة صغيرة جدًّا لمدة ثلاث وعشرين ساعةً في اليوم. وكانت إيميلين بانكهيرست معنا أيضًا.

- ندين كثيرًا لكل معارك الحقوق التي قُمنَ بها النساء بقيادة السيدة بانكهيرست.

توقفت فلورا، وغرست عيناها في عينيْ كيت:

- نحن ندين بشيءٍ ما لكل واحدةٍ منا. نحن نعرف ماذا تعني الشجاعة والتضحية والكفاح. لن نتراجع إلى الخلف بترْكنا ويميرو، بل إننا نفكر فيما هو أعظم. لقد حان الوقت لنبني شيئًا مستقِرًّا وألاَّ نفعل ذلك في الظلال، مثلما كنا نفعل حتى الآن، بل في ضوء الاعتراف الحكومي بنا. ولننجح في هذا نحن بحاجة إليك يا كيت. استعدي لتجهيز الحقائب. سنعود إلى الوطن.

٢٨

لم تستطعْ كيت النومَ، ليس فقط من أجل هذا الخبر الذي تلقته من مينا، ولا التغيير المفاجئ الذي أعلنته فلورا. كانت سعيدة لأنها ستعود إلى الوطن، ولكنها تشعر بتوتُّرٍ ما في داخلها. مرةً أخرى، إنَّها تلك الرياح التي ما زالت تعوي.

فوق السَّرير تضاعف عدد رسوم آنَّا. بدا لكيت أنها تحصيها لأول مرة. ماذا حدث في فترة الشهرين تلك؟ تقاربت الأيام والليالي دون أن ترتاح كيت. بدا لها أنها لم تعشها. إن الحرب لا تمزق الأجسادَ فقط، ولكنها تنزع الزمن، تفصل المشاعر، تزيد المسافات، تطحن الحياة قبل أن تبتلعها.

أنارت المصباح. تنام غريس وقد أدارت لها ظهرها.

نهضت وهي ترتعش. على المكتب الصغير الخطابات الموجَّهة إلى فيليب في علبة من الصفيح، ولكن لم تعد كيت تشعر برغبة في ذلك. تلك الليلة رأت كلمات خطاب آخر لم تستطع نسيانها، كلمات كارولين -التي لا تعرفها- لألكسندر.

هذا هو الحب، إذن، والعشق. بثُّ مشاعرٍ لا يُخشى عليها إن كُشفتْ أن تُهانَ. كلمات سببت لها اضطرابًا وتركتها مرتعشةً. تُظهر البؤس الذي ألقت كيت فيه نفسها حتى تلك اللحظة. تشعر أنها حزينة أكثر دون ابنتها، ولكنها لم تكن مجرد أم، فهي امرأة، امرأة وحيدة.

تشعر بالخجل من أنها فتحت ذلك الخطاب، ولكنه في الوقت نفسه أطلعها على عالم تخلت عنه مبكرًا جدًّا، ولأسباب خاطئة.

أخذت من الدُّرج الورقة التي تركها ألكسندر لها. خبأتها دون أن تقرأها. شعرت بالخوف الشديد من أن تجد نفسها أمام برود مهذب. لم تستطع تفسير لماذا سيجرحها هذا! ربما مجرد شعورها بالتعب من أنها غير مرئية، بأنها لا تعيش حلم كارولين، معتقِدةً أنْ ليس لها الحق في هذا.

فتحت الخطاب. ثمَّة بتلات داخله، بتلات زهرة خشخاش مجففة، لا تزال حمراء، رقيقة كالنسيج الشفاف. هدية رقيقة بقدر عدم توقعها. كتبَ النَّقيبُ سطورًا قليلة، بخطٍّ أنيقٍ دونَ مبالغةٍ منفِّرة. يشكرها لأنها أنقذت حياته ويعتذر عن صمته في البداية، الذي قد يبدو عدوانيًّا. ويختم بسؤال:

لا بد أنني لم أفهم جيدًا جزءًا من حوارِنا. قلتِ لي بأيِّ شيءٍ تخصصتِ؟

ابتسمت كيت، وهي تتخيل ابتسامته.

نظرت إلى العلبة وبداخلها الخطابات التي ملأتها بالحب والأمل، الخطابات التي لم يجب فيليب عليها، قطُّ، وأُعيدت إليها مختومةً. اتضح

لها أخيرًا كم هو يائس وخاطئ ذلك الشعور الذي غذَّته بعناد. لقد غذَّته بوهمٍ وتضوَّرتْ جوعًا.

اقتربتْ من النافذة، وفتحتها. تنيرُ الفناراتُ البحرَ الذي يفصلها عن المستقبل القريب.

تدخل الرياح باردةً تحرك شَعرها، ولكن ما كان يعصف داخل كيت كان أقوى، وأكثر دفئًا.

وضعتِ العلبةَ، بما فيها من خطاباتٍ، على درابزين الشُّرفةِ، ثمَّ أشعلتْ عودَ ثقابٍ، وأحرقتها.

٢٩

لندن، ١٦ يناير ١٩١٥

ترجلت كيت من القطار في محطة فيكتوريا. مرت أربعة أشهر بالتحديد منذ رحيلها، لقد تغيرت لندن، وأصبحتْ مدينةً تكتظُّ بالنساء. أدركتْ هذا بمجرد أن وضعت قدماها على الرصيف. بائعات تذاكر، عاملات، سائقات سيارة أجرة، «مشرفو قطاراتٍ» بتنوراتٍ. خرجت من الساحة وهي تجر حقيبتها خلفها. مرت بجوارها فتاةٌ تقود دراجةً نارية كالسهم، يبرز البنطال أسفل معطفها، شَعرها قصير ومجعد، جمعته وثبتته بنظَّارة السائق. ثم رأتْ نسوةً يُدرنَ محلاتٍ تجاريةً أدارها الرجال حتى وقتٍ قريبٍ، وبائعات صحف وملمعات أحذية بالمرايل التي شُبكتْ عليها شارةُ السفرغيت. سيدات عاملات، يقُدن السيارات، سيدات برؤوسٍ مرفوعةٍ يسرن بمفردهن دون رعاة. أخيرًا، لقد تحقق «غزو الأمازونيات» الذي تنبأت به جريدة «لانسيت»!

وضعت شابةٌ منشورًا في يدها.

وأكملت جولتها وهي تصيح:

- جريدة *التايمز* تدعو النساء لشغل أماكن الرجال المقاتلين في الجبهة!

بدا لكيت أنها ابتعدت لقرون.

رفعت نظرها ورأتها، على الجانب الآخر من الطريق. ابنتها آنَّا، أمام كشك لبيع الزهور. كانت تمسك بيد مينا، بين زهور حرشف بري زُرقٍ، بلون المعطف الصغير الذي ترتديه، والذي لا تذكر بأنها رأتها ترتديه من قبلُ. بالتأكيد هدية وصلتها من يديْ مينا. الرياح الباردة تحوِّل أنفها الصغير ووجنتيها للون الأحمر. ولا تشعر كيت بهبوب الريح.

عبَرت الطريق وساقاها ترتعشان. رأتها صغيرتها ومكثت في مكانها تحدِّق فيها. بينما تحثها مينا على أن تجري نحوها، وهي تتشبث أكثر بيد المرأة.

ركعت كيت، ومدت ذراعاها:

- آنَّا!

أدارت الطفلة وجهها واختبأت بين ثنيات الثوب وأعطتها ظهرها.

ربتت مينا على رأسها الصغير:

- اذهبي لأمك يا غاليتي.

ولكنها لم تتحرك خطوة واحدة، وأومأت بالرفض.

شعرت كيت أنها تحتضر. كل تلك التضحيات لم تفد في شيء سوى دفع الإيجار وتحويلها لغريبة أمام ابنتها. تمنت لو كانت قد عادت على الأقل في عيد الميلاد، ولكن عمليات الإخلاء استغرقت وقتًا أكثر من المتوقَّع، لقد أجْرت عمليات جراحيةً حتى آخر لحظة.

ترْك الجرحى كان أمرًا مؤلمًا، ولكنها الآنَ تتساءل عن ثمن اختيارها، ومَن لا بد أن يدفعه في نهاية الأمر.

اقتربت منها جاثيةً على ركبتيها، احتضنتها ووضعت وجهها على ظهرها. كانت تستطيع الاستماع إلى قلبها الصغير يغني غاضبًا بقوة، وحبها الذي تعتقد أنَّه قد تعرَّض للخيانة.

لو فقط تعرف كم تحبها أمُّها. لو تعرف ذلك الشعور الكامل والمجنون، الذي لا مثيل له، العتيق.

استنشقت كيت عبيرها، رائحتها رائحة البيت والعائلة، عائلة كانت مكوَّنة منهما معًا، وكانت تكفي، حتى وإن كان التفكير الشائع يقول العكس.

همست في أذنها بالكلمات الإيطالية التي اعتادت أن تقولها لها كلَّ ليلةٍ وصباحٍ، عندما تُغلق عينيها من أثر النعاس وتفتحهما على نور يومٍ جديد.

سالت دموعها كخيط لامعٍ ليحيك من جديد ما تمزق. كان حضنها يعني: لدينا كل الوقت الذي نحتاجه... سأنتظرُكِ.

ارتخت قبضة الطفلة المشدودة؛ بدأ النشيج يهزُّها. التفتتْ فجأةً، وألقت بنفسها إلى حِضن أمها.

٣٠

كارينسي، فرنسا، ٢٤ يناير ١٩١٥

أطفأ ألكسندر شعلة المصباح، كي لا يهدر الزيت. في الأيام الأخيرة اضطرَّ لاستخدام الزيت الذي جمعوه من مخلفات علب السردين. المقاومة تعني الاجتهاد في البحث عن طُرق النجاة بين أصغر التفاصيل، حتى في النفايات. ضبَط عقدة ربطة العنق، وعدل بيديه قماش البِذلة. قيافتُه العسكريةُ أمام القوات أمرٌ جوهريٌّ، وكان هذا حقيقيًّا. فهو يُطَمْئن ويمنح مظهر السيطرة، التي ليست لأيٍّ منهم على مصيره.

خرج في ليلة تنبئ بالثلوج. تشتعل الجبهة، ملتهبةً منذ الظهيرة، كان منظرًا ساحرًا. هل يمكن أن يظهر أي جمال في كل هذا الدمار؟ أحيانًا كان يعتقدُ ذلك، إذْ كانت قوى الإرادة المتناحرة مذهلة.

بعد معركة يبر سقط وهْم خوض حرب من الهجمات السريعة وبالتالي التنقلات العاجلة. أصبحت الحربُ ثابتة، والخنادق تُحفر في الأرض، في عمق الأرض.

مرَّ ألكسندر ليشرف على القوات، وهو يعطي من حين لآخر الأوامر بتنظيم الزي أو عَقْد زرٍّ ما، أو تلميع حَربةٍ. كلها أشياء تساعد في

إبعاد تفكير أولئك الفتية عن الموت، وكأن زرًّا غير معقودٍ يكفي ليُبعدَ الحزن.

يثرثر الرجال بصوت منخفض، ويحيونه بالتحية العسكرية. بعضهم يُدخن، ومعظمهم يرفعُ نخبه، كوبَ ويسكي. طلب ألكسندر توزيع صندوق الويسكي (جوني ووكر) الذي أرسلته له كارولين بناءً على طلبه، مع الحلوى التي فكرت خطيبته أن تضيفها، ووصلت فاسدةً بسبب الرطوبة؛ والتي أكلوها رغم ذلك.

لم ينته ألكسندر بعدُ من قراءة كلمات كارولين التي أرسلتها مع الهدايا. ربما لن يفعل ذلك. فقد رأى فيها سريعًا ملامةً ما، ولم يكمل. ملامة خجولة فقط في شكلها، ولكنها مطالَبة في جوهرها، عندما كتبت له إنه لم يكن من الحيطة ولا الأناقة أن ينكب مَن يستعد لخوض معركة على شرب الكحول، وبخاصةٍ من له دور القائد.

تجهل كارولين أن نقطة من الشراب تُعطى للقوات كانت الطريقة الوحيدة لتقوية جرأة الشَّباب صغار السن مثلها، ودفعهم للقفز من الخندق، بينما يسقط عند أقدامهم في كل ثانية رفيقٌ لهم.

كانت كلماتها بعيدةً جدًّا عما يعيشه ألكسندر كلَّ يوم، إلى حد أنها بدت وكأنها تنتمي إلى زمن آخر، بعيدةً جدًّا حدَّ أنه تساءل إذا كان بوسعه أن يفهمها، يومًا، ما تحمَّلهُ رجالٌ مثله، وكيف كانوا يتغيرون يوميًّا.

تساءل إذا كانت كارولين قد وضعت في حسبانها يومًا إمكانية ألا يعودَ، أبدًا، وأن يموتَ قبل تمكُّنه من الرد على كلماتها، وربما وهو ما زال يشعر بمرارتها داخله.

عثر على الآخرين متحلِّقينَ في دائرةٍ، يتقاسمون سيجارة. بدورهِ، تقاسمها معهم، وأخذ نفَسًا. لم يُقَلْ الكثيرُ في تلك الليلة، كلٌّ منهم مُقيَّدٌ في حنينهِ الخاص.

اقترح سيسيل نخبًا.

- في صحَّةِ حضرةِ النَّقيبِ، والأهم أنَّ النَّخبَ من شرابه، الويسكي. وفي صحَّةِ جلدِنا القاسي. إذْ ما زلنا معًا.

وماذا يهم غير ذلك؟ لا شيء، في هذه اللحظة.

لم يبد أن أندرو يستمتع بالكحول، ولم تتسبَّبْ يدا سيسيل الضخمتان اللتان تضربانه على ظهره لحثِّهِ على الشَّراب سِوى في زيادة سعاله. كان الفتى في وسطهم دئمًا، ولم يكن هذا من قبيلِ الصدفة.

يجلس ألكسندر بجواره. يحاول منذ فترة البحث عن كلمات يقولها له، ولكنه لا يعثر عليها. يغرق نظرته في الكوب دون حتى أن يتظاهر، ويقرب شفتيه. مَن يدري أي نبوءاتٍ يقرأ في انعكاساته، وأي مآسٍ. عادةً ما يتحسس ألكسندر فترات صمته، وخاصة عندما يراه منهمكًا في الرسوم التي يحبها كثيرًا. كان متأكدًا أنه لمح فيها ألمًا قديمًا، لا دخل له بخبرة الحرب. تبدو له بالأحرى خبرة الوجود في العالم. استعاد الباقون ثرثراتهم، وانتهز ألكسندر هذا ليجرؤ على الاقتراب منه.

قال له بصوت منخفضٍ: لا يأتي الخير، أبدًا، من محاولة الخضوع لتوقعات لا تنتمي إلينا.

رفع أندرو نظره نحوه. بدا وكأنه يُعد إجابةً ما، ثم غيَّر رأيه وعض شفتيه، ثم حاول هو أيضًا:

- من الصعب أن تقول لأحدهم أنك لست ما يريد.

ابتسم ألكسندر:

- هل هو أصعب من القفز من فوق هذا الحاجز والركض بين المتفجرات؟ ولكنك قمتَ بذلك بالفعل. لا يوجد شيء أصعب من هذا. هل تعتقد أن أي شخص يمكنه هذا؟ رأيتُ رجالًا يبدون في ظاهرهم أشد منك يختبئون لكيلا يذهبوا، بعضهم أطلق النار على رجله ليتم تسريحه.

- كنت خائفًا.

- كلنا كنا فزعين. إن الخوف في أغلب الحالات، هو ما يبقينا على قيد الحياة. بلا خوف لا يمكن للشجاعة أن توجد كتعريف.

رآه يخفض عينيه.

- الإعدامُ...

لم يمهله ألكسندر إنهاء عبارته:

- انظرْ إليَّ! أنا المسؤول الوحيد على ما أُجبرت أن تفعله، أتفهم؟ إذا اضطررت أن تضغط الزناد كان هذا لأنني لم أستطع أن أجنبك فعل هذا.

اقترب منهم جندي.

- سَيِّدي النَّقيب سايمور، توجد رسالة من أجلك.

- في هذه الساعة؟

- كانت مفقودةً.

أختام الظرف بدت تؤكد ذلك. لقد دار كثيرًا في كل مكان من مدن الساحل. الطرد مُرسَل من مستشفى شاتو موريسيان.

ابتعدَ ألكسندر بضع خطوات ليفتحه. يحتوي على خطاب كارولين الذي اعتقد أنه ظل إلى الأبد في ويميرو، أو ربما دُفن في وحل يبر. كان مصحوبًا ببطاقة لم توضع حتى في ظرف. بحث عن ركن منعزل ليقرأ كلماتها القليلة:

فيما يتعلق بتخصصي، أعتقد أنك فهمته جيدًا جدًّا أيها النَّقيب. إذا كان وجهك قد عاد مرة أخرى لمظهرِهِ البشريِّ، فهذا يعود لكوْني متخصصة في إعادة حياكة المكان الأكثر قداسة في هذا العالم. ابقَ حيًّا.

الدكتورة كيت هيل، أخصائية أمراض النساء والولادة.

كانت الإجابة على السؤال الذي تركه للطبيبة التي أنقذته، والتي كثيرًا ما يتذكر نظرتها، وكأن كل شيء آخر يدور حول هذا. نظرة حاسمة جدًّا إلى حد أنها ألزمته الصمت.

بدأ نزول الثلج، لامستْ بعض نُدفهِ وجهه.

كان يمكن لألكسندر أن يسمعها تخشخش. يا له من شيء ناعم، لم يكن معتادًا على هذا. مرر يده على وجنته. لا تكاد الندبة تظهر، عملٌ نُفذ بفنِّية كبيرة. جندي محترف أنقذته طبيبة نساء وولادة. انفجر في الضحك ودوَّت ضحكته بين الحطام كأنها الأملَ، الحياةَ التي تنبض.

٣١

لندن، مستشفى شارع إيندل العسكري، مايو ١٩١٥

توشك بوابات ما كان سابقًا إصلاحية سان غيل، في بلومسبري، على فتح أبوابها لتستقبل جرحى الحرب القادمين من كل بلاد الكومنولث. أعمال إزالة السلاسل وزنازين الحبس انتهت في مارس. تتألف المؤسسةُ الإصلاحية من أربعة مبانٍ، كل منها مكوَّن من خمسة طوابق تتوسطها ساحة، مهيأة الآنَ لمهمتها القادمة، واسمها الجديد: مستشفى شارع إيندل العسكري.

أصبحت منزلًا لكيت وآنَّا، فيها حجرة كاملة لهما، تستضيفهما بالفعل منذ بضعة أسابيع، بينما في تلك المجاورة استقرت مينا وجوزيف. ستعمل مينا خياطة في المستشفى، ترقِّع المُلاءات والبدل العسكرية والمنامات. ستمنح حياة جديدةً للأزياء الرسمية الموحدة، بحيث يمكن أن يستخدمها آخرون. وقدَّم جوزيف نفسه يدًا عاملة.

أُزيلت بقع الرطوبة، وأُعيد طلاء الجدران، دُعكت الأرضيات كما ينبغي، وأصبحت الحجرات مُضيئة ومبهجة. في المدخل عُلق علم مثلث عليه شعار السفرغيت: «الأفعالُ، لا الكلماتُ».

خمسمئة وعشرون سريرًا، كلٌّ منها مُزود بمصباح للقراءة، سبعة عشرَ جناحًا، أُطلق عليها حروف وأسماء قديسات، صالاتان جراحيتان، غرفة للكشف مزودة بأشعة إكس، ومعمل تحاليل. مطعم يمكنه سد جوع لندن بأكملِها، ومكتبة بها خمسة آلاف مجلدٍ. والمشرحة، لأنَّ إرادةَ الرَّبِّ تكون مختلفةً، أحيانًا، عن خطط النساء.

تسير كيت في الممرات التي لا تزال خاليةً، مُمسكةً آنَّا من يدها. تحكي للطفلة عن قصة مجموعة نساء عنيدات وجسورات، خائفات، ولكن حازمات، قررن أن يخاطرن بكلِّ شيء لتحقيقِ حلم.

تلكم النسوة الست والعشرون أصبحن مئةً وأربعًا وعشرين، وهو عدد أعضاء فريق مستشفى شارع إيندل. الرجال الوحيدون المُعينون هم جنود الحراسة في مدخل الساحة.

أمام غرف العمليات، اختبأت آنَّا بين ثنايا تنورة أمها. لا بد وأن الأدوات المعدنية أخافتها.

انحنت عليها كيت لتقبلها.

- هنا تعمل أمك. أتعرفين ماذا أفعل؟

لم تُجب الطفلةُ.

أدخلتها أمُّها الغرفةَ. أضاءتِ المصباح الذي سيساعدها، عمَّا قليلٍ، على النظر داخل جرحٍ ما.

- أتذكرين عندما أعدتُ خياطة دبدوبك الصغير؟ وكنت سعيدة باستعادته؟

- أجل.

- الأشخاص الذين أُجري لهم العمليات يسعدون، أيضًا، عندما يعودون كما كانوا من قبل، إلى منازلهم حيث أبناؤهم، أو إلى خطيباتهم.

ابتسمت آنًا، وظهرت أسنانها اللبنية الصغيرة بِيضًا كالثلج. نظرت إلى السَّرير الصغير بشجاعة أكثر.

- تصلحين الأشخاص المكسورين.

- أجل يا حبيبتي.

إصلاح، خياطة. تلطيف ما تفعله الأقدار كلما استطاعت هذا. لا بد من موهبة خاصة، وطموح جنوني لتصبحَ المرأةُ ما قيلَ لها -مرارًا وتكرارًا- إنَّها لن تكونه.

نظرت آنًا إلى يديها، قلَّبتهما، ووضعتهما على وجهها، وكأنها تلمح فيهما وجودًا مقدَّسًا. أرادت منها أن تأخذها بين ذراعيها وتضمها بقوة.

لحقت بهما مينا، وهي تحمل الملابس في سلة تضعها على جنبها، وابتسمت لآنًا.

- حانت ساعة الاستحمام.

سلمتها لها كيت، بعد أن غمرتها بالقبلات. نظرت إليهما وهما تصعدان بينهما تتحدثان، واتخذت الاتجاه المعاكس ناحية المدخل، حيث الأُخرياتُ ينتظرنَ بوضعية استعدادٍ.

أعلنت مكالمة هاتفية عن وصول دفعة مصابين من فرنسا، الدفعة الأولى لمستشفى شارع إيندل. حُمِلَ الجنودُ من المحطة بعربات الإسعاف

العسكرية وسيارات المتطوعين الخاصة. واجهوا رحلة مدتها ثلاثة عشر يومًا ليَبْلغوا لندن. في البداية بالوسائل المتاحة لهم، ثم بالسفينة أو بالقطار. الطبيب الذي هاتفهم حذَّر فلورا: سيصلون بجروح ملوثة بالفعل، بشعة المنظر والرائحة.

نزلت في المساء. كانت الأضواء مضيئةً في الممرات والحجرات. ولكن في الخارج ظلت لندن مظلمة. هكذا هي الحرب: أمرُ التعتيم يجعل الطرقات والمسارح مظلمةً، وكذلك النوادي ومرافق الحياة.

اقتربت فلورا من كيت:

- هل تعرفين ماذا قالوا لي في وزارة الشُّؤونِ الحربية عندما سلموا لي مفاتيح هذا المستشفى؟

حدثتها همسًا وهي تنظر أمامها مباشرة:

- قالوا لي إنهم منحوني رُتبة مُقَدِّم. أعتقد أنني الأولى. ثم أضافوا: الآن لتغرقي أو لتتعلمي السباحة! وكانت لديهم الجرأة ليقولوا لي هذا.

في صوتها نبرة ألم، وغضب وتوتر وتحدٍّ وعدم تصديق. في نبرتها تعاطف لنفسها وللنساء اللاتي يرافقنها.

لمست كيت ذراعها، لمسة مواساة.

- - إنها قصة الكثيرات منا، ولكن مثابرتنا للبقاء على السطح هي التي أوصلتنا إلى هنا.

ابتسمت لها فلورا.

دق الجرس مرتين. وصلوا.

أشعلت كيت الفانوسَ وخرجت إلى الساحة.

يحمل المتطوعون النقالات. بعض المصابين كانوا بلا نقالات، محمولين على أغطية. وضعوهم على الأرض الحجرية فتعالى أنينهم. تقدمَ مساعد أول نحو فلورا ولويزا، حيَّاهما التحية العسكرية، وسلمها قائمةً بالأسماء. وحذرهما:

- ستريان جروحًا جديدة، قنابل غاز الكلورين، تهاجم العينين والأنف والفم والرئتين. تخنق وتحرق الأنسجة.

وبتردد قال: حظًّا سعيدًا.

وبتلك الكلمات التي سقطت عليهما كلعنة، انصرف.

سارت كيت بين الجرحى. جروحٌ منظرها بشعٌ، رائحةٌ كرائحةِ الغرغرينا تزكم الأنوف، تشبه رائحة فأرٍ ميت.

فتح جندي عينيه وبدأ يصرخ ويهاجمها.

يردد أنه لا يريد أن يموت، يبعد يديها اللتين تحاولان تهدئته. ثمَّ أخذ يبكي بيأسٍ وفزع.

فزعَ من يديْ امرأةٍ.

٣٢

مايو ١٩١٥

لندن

ثبتتْ كيت الرجلَ، بقوةٍ، على السَّرير. كانت تشعر بمقاومة عضلاته، والعرق يسيل بينهما. كان ضحية أزمة «هذيان ارتعاشي»، ينتفضُ بعنفٍ. حتى بين الهلاوس استطاع أن يتعرف على لهجتها، وأخذ يهاجمها، فهي مذنبة لكونها امرأة، ولأنها تنتمي لأمَّةٍ انضمت للحرب متأخرةً. استطاعَ الرجل أن يمسك المقص الذي تستخدمه أولغا لتزيل الضمادات وحاول أن يغرسه في يد كيت. أوقفته في الوقت المناسب، ووصلت فلورا أيضًا، أمسكت ذراعيه ووضعتهما فوق رأسه وأمرت بأخذه إلى «جناح جوني ووكر»، المخصَّص لعلاج المرضى من مدمني الكحول.

ظلت كيت تنظر إليه بينما كانوا يأخذونه بعيدًا، وقد تهدجت أنفاسها مضطربةً. لن تنسى، أبدًا، العنف اليائس الذي رأته في عينيه.

كارينسي

ترك القصفُ الثكناتِ تشتعلُ. عُقد الاجتماع الذي استدعاهم إليه اللِّواءُ فيما كان قبلًا مخزن المؤن، والذي صار الآن غارقًا في تلك الفوضى،

يستضيف جسدًا مُسجًّى على الأرض. كان جسدَ الفريق. أصابته قذيفة في منتصف جبهته. انحنى عليه ألكسندر ليفحص الثقب، لم يكن هذا ممكنًا، لم يكن من مكان بعيد كما أكد رئيسهم.

نظر إلى اللواء وأكد الشكوك التي لم يرغب أيٌّ منهم التعبير عنها بالكلمات: نيران صديقة.

أغلق ألكسندر عينيْ الجثة.

بالنسبة للفريق كان وقت الحساب. لقد دفع ثمن طغيان غير مجدٍ، أذلَّ به رجالًا كانوا يعانون بالفعل من آلام مسكوتٍ عنها، بدلًا من أن يرفع من معنوياتهم. كان القانون الصامت للثكنات.

لندن

طلبت كيت المساعدة. عثرت على مريض مُلقىً على الأرض. حاول شنق نفسه، في دُشِّ الاستحمام، بالمُلاءة. وصلت لويزا، ومعًا حاولتا إفاقته، بينما هيزيل وغريس تشغلان المفتشين المبعوثين من وزارة الشُّؤونِ الحربية، على بُعد جناحيْنِ. وضعت رأس الرجل بين ركبتيها وفتحت ذراعيه، ورفعتهما، وفي النهاية أخذت تضغط بقوة على صدره الثابت. وأخذت لويزا تعد، ست عشرة ضغطةً في الدقيقة.

لم تقتل الحرب فقط في ساحات القتال وفي غرف العمليات. استمرت في تدمير العقول.

بعد ثلاث مجموعات، فحصت لويزا النبض، وقرَّبت مرآةً من شفتي الرجل: يتنفس.

نادى صوتٌ طفولي من الممر: ماما.

قفزت كيت على قدميها وخرجت من الغرفة في الوقت المناسب لتمسك بآنّا التي هربت من رقابة مينا. أمسكتها من ذراعها، بينما تصل فلورا مهرولة، وعندما رأت الصغيرة صعقت كيت بنظرتها. وشعرت هي بالفوران. كيف يمكنها، بالأمر، أن تتوقف عن كونها أمًّا؟ لم يكن هذا ممكنًا. يا له من إرهاق. شيء متعب أكثر من الضغط على قلب ميت.

كارينسي

استطاعوا انتزاع أسلاك الخطوط الألمانية الأولى، الشائكة، وأوجدوا ثغرةً ليزرعوا فيها الشحنة المتفجرة. كان ألكسندر، والآخرونَ، في طريقهم للعودة عندما صادفوا مراقبًا من الأعداء. تبعه ألكسندر في الضباب حتى جعله يفقد اتجاهه. قفز فوقه، سقطا وأخذا يلفان، وهما يتصارعان. شعر به يفتش في جانبه ليضربه. كانا جسدين يتناحران، طبيعة متأهبة للالتهام. استطاعَ أن يقلبه على ظهره ويضربه بركبته في فكِّه. استلَّ الحربةَ ليذبحَهُ، ولكنه تراجع في الوقت المناسب. نظر أحدهما إلى الآخر متقطعي الأنفاس. أنهض ألكسندر أسيرَهُ وألقى به في الثكنة الإنكليزية.

لندن

تعلمت كيت أن تثرثر أمام خجل العديد من الجنود بسبب جروحهم في الأماكن الحساسة، أو بسبب أمراض تناسلية انتقلتْ عدواها إليهم. فالجدية تزيد من الشعور بالخجل. الطبقة البرجوازية العالية للطبيبات، وتعليمهن، ساعدهن على كسْب احترام هؤلاء الرجال المضطربين، رغم خشيتهم منهنَّ.

تعجز كيت عن الكلام فقط أمام غرغرينا الغاز. تحاول معالجتها ببودرة التبييض وحمض البوريك، عجين من حمض الساليسيليك وغسيلٍ بمحلول ملحي. فكرة إزالة الأنسجة القديمة وترك الجرح ليجف قبل إغلاقه تبدو ناجحة، ولكن تظل الغرغرينا مميتةً في أغلب الحالات.

غاز الكلورين والفوسفور يتسبب في الاختناق ويؤدي إلى الوفاة خلال بضعة أيام، ولكنَّ الأسوأ غازُ الخردلِ، ذلك السُّمُّ الأصفرُ. يحرق الأجساد من الداخل ويسبب آلامًا مُمزِّقة، يحللهم أحياء. يستغرق شهرًا ليقتلَ، أسابيع من العذاب المحض. أطلقوا عليه «أنفاس الشيطان».

كارينسي

- غاز!

صرخَ ألكسندر. ارتدوا الأقنعة بينما بدأ الغاز يتسلل مثل الأشباح إلى رئةِ كلِّ مَن على تلك الأرض. ساعد، هو وصمويل، المجندينَ الذين وصلوا حديثًا. ظهر الرعب في أعيُنِهم وبدت أياديهم غير قادرة على القيام بأبسط الأشياء. أحدهم نظر إليه فزعًا، حيث فقد قناعه. أخذ ألكسندر الخبز من جيبه، وأضاف إليه صمويل ما يخصه، بلله في الماء وربطه على فم الشاب بمنديل. عادةً ما تنجحُ هذه الطريقة.

ممَدَّدونَ على الأرض، شفاههم تضغطُ على الصمام، وصوت أنفاسهم في آذانهم، لم يكن عليهم سوى الانتظار، والأمل. أن ينجح هذا، أن يتلاشى السُّمُّ سريعًا، أن تهبَّ الرياح غاضبة كغضب قلوبهم التي تدق. أمام أعيُنهم تهتز بتلات زهرة خشخاش. فكَّر ألكسندر في تلك التي أهداها للمرأة التي أنقذت حياته.

٣٣

لندن، مستشفى شارع إيندل العسكري، ٣١ مايو ١٩١٥

كانت عملية التفتيش التي أجراها مبعوثو وزارة الشُّؤونِ الحربية دقيقةً جدًّا ومُنهِكة، ولكنها استحقت كل تضحية، ونتجتْ عنها ثمار طيبة. بدا وكأن الصحافة قد استحوذ عليها مشروع الطبيبات وتولي النساء المهام في كل القطاعات. كتبت صحيفة *«التاتلير Tatler»* على صفحتها الأولى عناوين مثل «New Women».

ولكن، بدا على فلورا الحذر. راقبتها كيت وهي ترسم المهامَّ لذلك المساء. تقلقها أفكارٌ مكثفة. ربما كانت معتادة على توقع الأسوأ، لتستطيع أن تتصرف بسرعة، ربما تشعر بثقل مسؤولية قيادة جزء هامٍّ خاص بأولئك: «النساء الجدد».

في الفترة الأخيرة اقتنعت فلورا أن العلاج المقدَّم للجسد لم يكن كافيًا لإصلاح حياة الجنود، وأنه لا يكفي أن يقدموا لهم المواساة والبيئة الصحية الحاضنة، التي يمكنهم أن يستعيدوا فيها عافيتهم. لا بد من انتعاشةٍ أعمقَ من هذا، أحيانًا من خلال الخداع الحسن للنفس، ومنحهم شيئًا آخر يتشبثون به، بعيدًا عن ذكريات الجبهة.

كانت تحثهم على القراءة، في البداية قاوموا ذلك بعضَ الشيء، ولكن سرعان ما شُغفوا بها. من بينهم ثمَّة بستانيون، طلبوا كتبًا خاصة في العناية بالزهور. تحظى الكتب الإرشادية التقنية بالكثير من التقدير، وبين الأَسِرَّة كانوا يتناقشون حول المحركات والطائرات، وحتى حول الهندسة، وصولًا إلى علم الآثار والحفريات. اتَّضحَ أن دور مكتبة صالة الترفيه تسلية ثمينة لصرف الأفكار عن مآسيهم الشخصية، أكثر كثيرًا من صالة البلياردو. وتعود تلك المعجزة، في الأغلب، لصبر وحماس إليزابيث روبنيز، متطوعة أمريكية من كينتاكي. تعمل ممثلةً وكاتبة سيناريو، وناشطة من السفرغيت، قدِمتْ من اليوم الأول للعمل التطوعي في مستشفى شارع إيندل.

عادةً ما تكون إليزابيث آخر المُغادرين. وفي ذلك المساء كانت تقرأ لشابٍّ، فقد بصره، رواية مغامرات.

توقفت كيت لتراقبها. نبرة صوتها والطريقة التي تستخدم بها جسدها حتى في جلستها لتحكي، وكيف تمسك يده أحيانًا لتشعره بتأثير المشاهد الأكثر جسارة، تشي عن مواهبها الاستثنائية كفنانة وكإنسانة. لم تنشأ صداقتها العميقة بأوسكار وايلد من فراغ.

منذ فترة وجيزة اقترحت إليزابيث إقامة عروضٍ مسرحية في صالة ترفيه المستشفى، وأن يمثل فيها المرضى. كانت مخلوقًا رقيقًا، لها بحضورٍ مبهجٍ، تنصت بكل جوارحها لقصص الجنود الشخصية، وغالبًا ما تستخدم مواهبَها الخاصةَ في الحكي لتساعدهم على كتابة خطاباتٍ غنية بالتشويق والمفاجآت، والنكات اللماحة والحارة، والتصريح بالحب للفتيات البعيدات، الغاليات أكثر من أي وقت مضى. وتظن كيت أنه

في وقت قريب ستُتوج العديد من طلبات الزواج بالنجاح بفضل عملها المتحمس الذي يليق بكيوبيد.

هذه القدرة على منح التعاطف، تصدر عادة من عمق الألم.

بحثت كيت عنه في عينيها الواسعتين اللتين تجعلانها طفلةً، ولكنها لم تلمح فيهما شيئًا سوى الحنان. ربما ذابت هذه المعاناة بالفعل، وأصبحت عنايةً تقدمها إلى العالم.

مما عرفته عنها، أن إليزابيث انتقلت إلى إنكلترا بعد انتحار زوجها. في لحظة يأس وغيرة مجنونة، استسلمَ الرجل للغرقِ في أحد الأنهار. لم تستطعْ إليزابيث، المفعمة بالحيوية والاستقلال، أن تصبح ملكية خاصة مطلقة.

فتلك المرأة، إذن، عاشت قصة مأساوية، لا يمكن لأحد، بالنظر إليها، أن يشك في هذا. عندما أدركت وجود كيت أضاءَ وجهها بابتسامة شديدة العذوبة.

بادلتها كيت التحية، وتركتها مع مغامرتها. ألمحت لفلورا بفكرة عصفت بذهنها، لتلحق بأخرى كانت تراودها منذ أيام.

- لديَّ اقتراح. بل اثنان.

نظرت إليها فلورا بحماس. لم تتحدثا منذ أن رأتها مع آنّا. انتظرتْ كيت، لأيامٍ، وقتًا مناسبًا لم يحِن سوى الآن.

تشجعتْ قائلة:

- عملت مينا طوال حياتها مصممةَ أزياء مسرحية، يمكنها بالتأكيد أن تساعد السيدة روبنز في مشروعها المسرحي.

عادت فلورا لتكتب على الملف الذي بيدها.

- إذا كانت الواجبات التي عليها الآن تسمح لها بذلك، لا بأس على الإطلاق.

تنحنحت كيت. الآن يأتي الجزء الأصعب.

- وجوزيف نجارٌ شديد البراعة. إذا كان لا بد أن يقوم هؤلاء الرجال على أقدامهم، ربما يجدرُ بهم أن يستخدموا أطرافًا بديلة. نحتاج لورشة للأطراف الصناعية.

- نستخدم الأطراف البديلة بالفعل.

- تلك التي تصل إلينا من المخازن العسكرية لا تصلح. يشتكي منها المرضى، وفي النهاية لا يستخدمونها، أو يستخدمونها بصعوبة شديدة.

- يشتكون من آلام مبرحة، هذا حقيقي.

- يستطيع جوزيف أن يصنع ما هو أفضل.

- هل هو واثق إلى هذا الحد؟

- في الحقيقة هو لا يعرف عن اقتراحي هذا.

- فهمت.

تفكر لورا إن كان يجب عليها الوثوق فيها، وتوجيه موارد ثمينة وفق حدس يمكن أن يؤدي إلى الإهدار فقط. تُدقق دائمًا أمام اختيارات من هذا النوع، وكأنها تريد اختبار نوايا مَن يقف أمامها.

- حسنًا يا كيت! توجد غرفة خالية في الطابق الأول من الجناح رقم

اثنين. سأخبرهم بتنظيفه غدًا، صباحًا. قولي لجوزيف إن بوسعه نقل معداته إلى هناك وأن يبدأ بمجرد أن يجهز. وأن يحضر إليَّ من أجل عقد العمل، ومعه قائمة بالمواد الضرورية، لإحضارها.

أخفت كيت حماسها.

- شكرًا. سيسير كلُّ شيء على ما يرام، أنا متأكدة.

بدا لها أنها تسمعها تضحك وهي راحلة، ولكن فلورا موراي لم تفعل، قطُّ، أشياءَ من هذا القبيل.

- «الأفعالُ، لا الكلماتُ» يا دكتورة هيل. الآن أغلقي البوابات!

استراحت كيت بزفير. أحيانًا لم تكن تعرف إذا كان هناك شيئًا أكثر من مهابة الاحترام، ذلك الشعور الذي تشعر به في وجودها، أم التطلُّع بأن تصبح دائمًا أفضل مما هي عليه.

خرجت إلى الساحة، من أجل طقس إغلاق البوابات الليلي. دائمًا، ثمَّة واحدة من نساء مستشفى شارع إيندل، يفتحنها فجرًا ويوصدْنَها مساءً.

حيَّاها جندي الحراسة بالتحية العسكرية، وبابتسامة يخصها بها منذ بضعة أسابيع، تتظاهر كيت بأنها لا تلاحظها. لم تكن تعرف شيئًا عنه سوى اسمه، جورج. ولم تكن تريد معرفة المزيد.

اقتربت من القضبان الحديدية السُّود، أخرجتِ المفتاحَ من جيبها. لم تذهب إلى العالم الخارجي منذ أن أصبح المستشفى بيتَها.

- انتظري!

مجموعة من الطبيبات والممرضات ركضنَ نحوها. هن أيضًا ينمن في المستشفى خلالَ الأسبوع. كنَّ يرتدين ملابسَ مدنيةً ملونة، وقد صفَّفن شُعورهن ووضعن أحمر الشفاه. كانت غريس معهنَّ أيضًا.

- تعالي معنا يا كيت؟ سنجتمع في منزل أديله لنتناول شرابًا.

- شكرًا، لكني أرغب بشدة بالاستلقاء والراحة.

- هيا! لن نتأخر. يوجد حظر تجول.

كانت كيت تخشى أن تبدو أمامهنَّ وكأنها الخبيرة، أُمًّا أكثر من أُختٍ. لم تكن مسألة سنٍّ ولكنه نمط تفكير.

وعدتْ: المرة القادمة.

مكثتْ تنظر إليهن بينما سِرن مبتعداتٍ، كلٌّ تمسكُ بذراع الأخرى. وظل في الهواء عبق العطر الوردي الذي يلفهنَّ.

لم تشعر كيت بتلك الخفة من زمن بعيد.

أَغلقتِ البواباتِ بمرارةِ شيءٍ فُقِد ولن يُعثرَ عليهِ سليمًا. أدارتِ المفتاح مرةً ثُمَّ أخرى.

تصرف جورج بأناقةٍ، وانحنى إنحناءه بسيطة أثناء عبورها. تشعر كيت بداخلها أنها مُسنة ولم تعد قادرة على الاستمتاع بإيماءةٍ كتلك، ولا الرد على رسالته. استطاعتِ الابتسامَ، مجرد تقوُّسٍ إجباريٍّ لشفتيها.

مِن على سلالم المدخل ألقتْ عليه نظرة. ليستْ حبًّا، ولكن هل يمكنه أن يصبحَ كذلك؟ وإذا أصبح، كيف ستحكي له أو لأي شخص آخر حقيقةَ ابنتها؟

صعدت إلى آنَّا. كان هناك طقسٌ مسائيٌّ آخرُ عليها أن تقوم به. في الحقيقة هو الطقس الوحيد المهم، وهو أيضًا الذي يضعها أمام مسؤوليات جِسام أحيانًا عليها التصدي لها بمفردها: العودة على الفور لابنتها بعد الانتهاء من كلِّ مناوبة عمل.

حممت آنَّا وهي تقص لها عن يومها. ألبستها ملابسَ النوم، ومعًا تسلَّلتا تحت الأغطية.

- ماما، هل تقُصي عليَّ حكاية سندريلا؟

في نسخة كيت من الحكاية، لا يوجد وصول خارق لأمير، بل كفاح فتاة للتحرر من الشرِّ والأذى. لا توجد عروض زواج منقذة ولا أحذية رقيقة لارتدائها كتعبير وحيد عن القيمة. تتمنى كيت أن تلتقي آنَّا بالحبِّ يومًا ما، ولكن حتى ذلك الحين، عليها أن تجعل منها امرأةً قادرة على أن تختار الرجل الذي تعيش معه ليس بدافع الاحتياج، ولكن من أجل شعورٍ لا يمكن أن يحولها إلى أسيرةٍ، أبدًا.

نامتا قبل أن تصلا إلى فقرة «وعاشت طويلًا فخورةً وسعيدة».

استيقظت كيت فزعةً. بدا لها أنها سمعت صوتَ انفجارٍ وأن المصباح يرتجف. تنام آنَّا سعيدة. استرقت السمع. ربما كان بداية كابوس ما.

ولكن بعدها ارتفع الصراخ في الشارع. نهضت لتطلَّ من النافذة. كانت منطقة ثياترلاند، التي لا تبعد عنهم سوى بضع بناياتٍ، تحترق. تتصاعد سحابةٌ سوداء تنيرها ألسنة اللَّهب. رفعت كيت عينيها نحو السماء وتعرفت فورًا على الشكل القاتم للآلة البعيدة التي توزع المتفجرات، رأتها مرَّاتٍ، أكثر مما ينبغي، على صفحات الجرائد.

حتى تلك اللحظة، كان الساحل بطوله هو فقط ما استهدفته المناطيد الألمانية ذوات المحركات، ولم تذهب إلى أبعد من ذلك. تأكيدات القيصر بأنه لا يرغب في مهاجمة المدنيينَ لم تكن سوى هراء.

طرق أحدهم الباب وطلب منها النزول. يبتعد المنطاد ولا بد من التفكير في الجرحى. تشعر كيت بالرعب حدَّ أنها لم تتعرف على صاحبة الصوت. ربما كانت هيزيل أو أولغا. تنام آنَّا سعيدة، ولن تدرك شيئًا. دثَّرتها بالأغطية، ونزلت.

كانت فلورا ولويزا بالفعل في القاعة الرئيسة، منهمكتين في توزيع المهام.

عادتْ غريس ومعها الزميلات الأخريات أيضًا، لم يصبنَ، ولكن كُنَّ في حالة ذهولٍ.

لقد وصلت حرب القنابل إلى إنكلترا!

٣٤

لندن، ١ يونيو ١٩١٥

كان وقتًا للبكاء والحداد. وقت ارتفاع أصوات الألحان المتألمة من بطون الكنائس قرابينَ للربِّ، وقت البحث بين الركام وفي الحطام للتشبث بالأمل.

تحول قلبُ لندنَ إلى هوة مشتعلة أصابت أبناءها بالدهشة.

نتج عن هجوم *الزبلين* سبع وفيات وعشرات الجرحى. أصوات الصراخ في الطرقات تعكس بالفعل حجم المأساة. لقد أمطروا لندن بتسعٍ وثمانين قنبلةً وثلاثين قذيفة.

استطاع العدو أن يتقدم إلى حيث لم يتوقع أحد. في السماء الملبَّدة بالغيوم، وبين السحب السُّود، تسلل في صمتٍ.

صعدت كيت السلالم متعبَةً. بزغ الفجر كترابٍ من النحاس دون أن تغمض عينيها. فتحت باب الغرفة ورأت السَّرير خاليًا. وللحظة مكثت تحدِّق فيه.

- آنَّا؟

بحثت عنها تحت دثار الأغطية وخلف الستائر وفي الخزانة، حيث

كانت تذهب لتختبئ حين تلهو. بدأت تنفعل. خرجت إلى الممرِّ، ذهبت إلى الحمام، سألت عنها كل مَن قابلتهم.

لم يرها أحدٌ. كانَ مستشفى شارع إيندل كبيرًا جدًّا، وخطيرًا، بالنسبة إلى طفلةٍ في سنِّ الخامسة.

انفجرَ التوتر في صدرها. كانت البوابات مفتوحةً طوال الليل لاستقبال مَن هم بحاجة للمساعدة بعد الهجوم. لم ترغب كيت في التفكير بالافتراضات الأسوأ. ابنتها وحيدة في شوارع لندن. ماذا لو اختطفها أحدهم؟

زفرت أنينًا، ذهبتْ لتطرق باب مينا وجوزيف طلبًا للمساعدة. شحبتْ الصديقةُ.

- لا أعلم لماذا لم أطلب منك أن تعتني بها يا مينا.

أمسكتها الصديقة من كتفيها.

- كنا جميعًا مصدومين، لا تخافي، سنعثرُ عليها.

ذهبوا معًا ليبحثوا عنها في كلِّ مكان، ولم يتركوا ركنًا واحدًا دون أن يفتشوا فيه، ولكن بدا وكأن آنًا قد اختفت.

حتى قالت لهم أولغا إنَّها رأتها.

- كانت مع دكتور موراي.

- أين؟

- في المطبخ، كانتا تطلبانِ إفطارًا.

شعرت كيت بأنها ستفقد الوعي من الارتياح.

- تفطران معًا؟

- لا. دكتور موراي طلبت أن تؤخذ الصينية إلى مسكنها. كانتا ذاهبتين إلى هناك.

ركضت كيت إلى الطابق الذي تتشارك فيه فلورا ولويزا السكن، وطرقت البابَ.

شعرتْ بارتياحٍ لم تشعرْ به في حياتِها، قطُّ، رغم أنها كانت مدركةً تمامًا أن اليومَ قد يصبح يومها الأخير في مستشفى شارع إيندل.

فتحت لها لويزا. يقفز كلبان للأمام والخلف بين رداء صاحبتها.

- ويليم، غارت، ابتعدا! لتدخلَ الضيفةُ.

دعتها للجلوس.

وجدت كيت آنَّا جالسة على ركبتيْ فلورا. كانتا تفطران. وكانت المرأة تضع لها الزبد على الخبز، وترش عليه بعض السكر وتعطيه للطفلة.

- ماما وصلت.

أرادت كيت أن تهرع لتحتضن ابنتها، لتنهرها، لتغمرها بالقبلات، ولكنها مكثت متسمرة، مصدومة.

- إنها طفلة ذكية. لقد ربيتها جيدًا على الفضول.

- سأحاول ألاَّ أجعلها تغيب عن ناظريَّ.

بعد أن أمسكت بيد ابنتها، بدت الإجابةُ سخيفة حتى لكيت نفسها. صححتها: بقدر ما يسعني ذلك...

ابتسمت فلورا ابتسامة بسيطةً.

- لقد أمضيتُ جزءًا كبيرًا من حياتي مع أطفال وأمهاتهم. أعرف جيدًا مقدار الطاقة المطلوبة لهذا الغرض، والخوف الذي يتسببون فيه. هوِّني على نفسك، لست مقصِّرةً.

أشارت إلى لويزا، كي تعطيها كيت الطفلة.

- هل يمكنكما أخْذ ويليم وغارت للساحة، من فضلكما؟ إنهما بحاجة ماسَّة للتريض. آنَّا، قبل أن تذهبي أعطِ قبلةً لأمك.

لم تتردد آنَّا، حيث كانت سعيدة وهي تمسك لجام صديقيها الجديدين. أمسكت كيت نفسها عن أن تتشبث بها ولا تتركها تذهب.

مكثت بمفردها مع فلورا. جلستْ أمامها.

- يؤسفني ما جرى يا دكتورة موراي. كنت أتمنى أن أقول أن هذا لن يحدث ثانية، ولكن لا يمكنني أن أعِد بهذا. المسألة صعبة.

أخذت فلورا فنجانًا من البورسولان وصبت فيه الشايَ، وقدمته لها.

- وما الذي لم يكن صعبًا في السنوات الأخيرة؟ لكلٍّ منا، على ما أعتقد.

- تستيقظ آنَّا كل ليلة لتبحث عني. بدأت تفعل ذلك منذ أن رحلتُ إلى فرنسا.

- أفهم. وأفترض أن زوجك تخلَّى عنك، وأنك لست أرملةً، كان يمكن أن تقولي لي هذا بهدوءٍ. في نهاية الأمر، أنت محظوظةٌ. هناك أزواج عندما يرحلون يأخذون الأطفال من أمهاتهم. يكفي أن يقولوا إنَّهم يرغبون في ذلك، أو يتهمون الأمَّ بالجنون.

ربما لحدث هذا لو كانت آنَّا ولدًا. فلن يتخلَّى أحدٌ عن وريثٍ ذكر.

ضحكت كيت. وضعت وجهها بين يديها وضحكت. ضحكة حزينة، كان يمكن الاعتقاد بسهولة أنها نشيج بكاء. كانت لحظة الإفصاح عن الحقيقة.

- تستمرون في تسميته زوجي، ولكن لم يكن لديَّ زوج، قطُّ.

ثم أطلعتها على خاتم الزَّواج:

- إنَّ الخاتم الذي أضعه في إصبعي درعٌ أردُّ بها عن نفسي اتهاماتِ الناس. اشتريته بمبلغ زهيد، فهو لا يساوي شيئًا، مثل الكذبة التي يوحي بها. عندما حملت لم يرغب فيليب أن يراني مرة أخرى. وهجرتني عائلتي. إذا لم أكن قد تقابلت مع جوزيف ومينا، لا أدري ما الذي يمكن أن يخبئه لي القدَر.

- احكِ إذا أردتِّ.

رفعت كيت كتفيها، وكأنها ترغب في إنكار ألمٍ لم يخمد بعدُ.

- لقد كبرتُ في إيطاليا. أبي إنكليزي انتقل إلى هناك حبًّا في الفن والمُناخ، وليمارس الطبَّ وسط الجاليات الإنكليزية العديدة. بعدها بقليل التقى بأمي الإيطالية. عندما كبرت شجع شغفي بالعلم، وبخاصة الطب. عندما بلغت العشرين، عدنا إلى إنكلترا لأكملَ دراستي.

- ولكن؟

- لكن... الذهاب إلى أبعد من ذلك كان قصة أخرى. عندما أَدرك

أن الطب لم يكن مجرد هواية، وأنني أنوي ممارسته وأن أصبح طبيبةً، تغيَّر موقفه. لحسن الحظ، استطعتُ في كل الأحوال التخرج والحصول على المؤهِّل. إلا أن ما حدث بعد ذلك تسبَّب في قطيعة نهائية. حبلتُ ووجدت نفسي مشرَّدةً. في إحدى الليالي العاصفة، أخذني جوزيف من الشارع، حرفيًّا. ومنذها لم يتركا ذراعي، هو ومينا.

أخذتْ فلورا رشفةً.

- ولكن كنت قد تخرجتِ ومعك مهنة واجتهدت لتستمري فيها.

- أطلب المعذرة لكذبي عليكنَّ.

- أوه، ولكنك لم تكذبي. لم أسألك شيئًا بهذا الصدد، قطُّ. على كلِّ الأحوال لم يكن هذا ليشكِّلَ أي فارق.

- حقًّا؟

- لا يمكن أن تكون المرأة جرَّاحة وزوجةً في الوقت نفسه، لأنَّ أيَّ زوجٍ لن يسمحَ بهذا. يوافق الآباء بصعوبة على هذا، كما أكدتِ للتوِّ بنفسك.

- ويمكن أن تصبح أمًّا؟ هل يمكن أن تكون هناك أمهات وجرَّاحات حرب؟

أنهتْ فلورا فنجانَها.

- لا يوجد حل يا عزيزتي للأمومة. تصبح الواحدة منَّا أمًّا وتستمر في ذلك إلى الأبد. والكثيرات منا أمهاتٌ ولم ينجبنَ قطُّ.

٣٥

أرياف محيطة بأميان، فرنسا، أغسطس ١٩١٥

في الصيف، أصبحت الحرب تحت الأرض. على أبواب الخريف أضحت عبارةً عن ثكنات أكثر عمقًا، من انتظار لا نهائيٍّ يحاول الجنودُ تجاهله بأي وسيلة. حفرَ الألمانُ أولًا، واختاروا الأراضي الأفضل، على المنحنيات. حَبسوا أنفسهم في الخنادق وكانوا يخرجون فقط ليلقوا بالغاز. ولم يجد الفرنسيون والإنكليز أمامهم سوى السهول الرطبة التي يحتلها البعوض في بيكارديا، بين أميان وباريس.

على الأقل وصلت أخيرًا أَسِرَّة المعسكرات، واستبدلوا القبعات الخفيفة بالخوذ. قلَّ عدد الموتى من الصدمات وثقوب الرصاص في الرأس، وإن كان وزن الخوذة يُضاف إلى السبعين ثقلًا الأخرى لباقي المعدات.

قال سيسيل وهو يلعب بخوذته:

- ربما بقيَ الفريقُ بيننا لو كان يرتديها.

دق أوليفر عليها لحنًا بالملعقة.

- أراهن لا. كانوا سيجدون طريقة للتخلص منه، ذلك الوغد.

يعلِّم ألكسندر أندرو قواعد البوكر. الأوراق قديمة وعليها علامات، وأحد الجنود، لا أحد يعلم مَن، وضع عليها عبارات فرنسية.

سأل الصبي:

- ماذا تعني.

يجيب أوليفر بين ملعقة حساء وأخرى.

- تفيد في إيصال حالات الطوارئ. احفظها جيدًا، يمكن أن تفتح لك أبوابًا غير متوقَّعة.

- أي طوارئ.

ابتسم ألكسندر.

- من الأفضل ألا تعرفها. ستزيدك همًّا.

جحظت عينا أندرو:

- إنها عبارات حبٍّ للنساء؟

ألقى ألكسندر بثلاث ورقات متشابهاتٍ

- في الحقيقة، ليست عباراتٍ رومانسية.

ثم نظر إلى ساعته، لم يعد صمويل بعدُ من جولته التفتيشية.

ارتفع الصخب في البداية، أسفلهم، حتى بدا أنه مقدمات رعد ما، ولكنه كان يصل من تحت أقدامهم. ارتفعت الأرض وقلبتهم. تصاعد كأنه الفوران ثم انفجر مخلِّفًا حفرةً. شعر ألكسندر بقوة الانفجار تمزق ملابسه، وترفعه وتقذف به بعيدًا.

عندما استطاع أن يقف مرة أخرى على قدميه، لم يكن يسمع. في أذنيه

طنينٌ مؤلم تزداد حدته، يكاد يثقب صدغيه. لا توجد أي نقطة ثابتة، كل شيء تغير، وانتُزع من مكانه. أجساد متناثرة على الأرض، بِرك قرمزية تعكس اللَّهب. لم يستطع أن يتعرف على جنوده. لم يعرف أن كان عليه جمع تلك القطع أو إذا دُفع أندرو وسيسيل وأوليفر بعيدًا كما حدث له. بين شعره تهب أنفاس الموت، وتغني الرياح. بدا له أنه يستمع إلى جوقات أسفل الأرض تنوح على البؤس الإنساني. لمس صدره، قلبه ينبض وجسده أسود. هُويَّته المعدنيةُ تحملُ اسمًا، وجد صعوبةً في تذكره وقتذاك.

فكر في صمويل. وسار مضطربًا تجاه تلك التي كانت نقطة المراقبة الأقرب، حيث لا بد أن يعثر على صديقه. لم يجد سوى الدمار والصمت.

في النهاية عثر عليه حيًّا، وقد غُرست فيه إحدى قوائم الحاجز.

صرخ، حنجرته ضاقت بسبب الغاز. حاول أن يرفعه، ولكن الحِملَ كان ثقيلًا، والألمَ لا يُطاق. أسنده وهو يمسك ساقيه، وعندما رفع عينيه بدا له أنه يرى عذاب المسيح المصلوب. هكذا كانوا جميعًا في نهاية الأمر؛ مُسْمرينَ على صليبٍ لم يختاروا حمله.

نزلتْ دموع صمويل عليه، وهزَّةٌ أخرى حملته بعيدًا.

انفجار آخر. سقط ألكسندر أرضًا، لتنزلَ على وجهه أمطارٌ من الدَّم.

٣٦

كاليه، فرنسا، سبتمبر ١٩١٥

فتح ألكسندر عينيه على سماءٍ بيضاءَ، كان العالم ساطعًا بشدة، كأنه مصنوعٌ من انعكاسات حادة تخترق الرأس. تساءل إذا كانت لحظة الميلاد تؤلم إلى هذا الحد. أم هي لحظة الانبعاث.

تحلق بالقرب منه مئات النَّوارس، تندفع مهتاجةً في طيرانها. بدا صياحها كمن تُنبئ عن عاصفة. في طفولته، أخبره فلاَّح مزرعة أبيه أن الحيوانات تتنبأ بوصول الطقس السيئ وتخرج بحثًا عن أكثر كمية ممكنة من الطعام، دون الابتعاد كثيرًا عن مخابئها وأعشاشها.

لا بد وأنه يوجد الكثير من الطعام في تلك الأنحاء.

يجد صعوبة في التنفس. الهواء مُشبَّع برائحة مألوفة نوعًا ما له.

يدٌ واحدة، هي كلُّ ما استطاعَ تحريكه، رفعها ورأى ما عليها من وسخ.

تذكر كلَّ شيء. عندئذ أغمض عينيه. سالت دموعه نارًا على خدَّيه.

رفع أحدهم النقالة. شعر ألكسندر بنَفسه يُنتزع. في الخلفية صفير سفينة.

فهم الرائحة التي تحيط به، إنَّها رائحة الدم.

وسمع أصوات الأنين أسفل زقزقة العصافير والأوامر الجافة للأطباء والممرضين الذين يفحصون النقالات ويفصلون الموتى عن الجرحى.

وأدركَ كذلك أي لحم تستهدف النوارس.

٣٧

قصر باكنغهام، لندن، سبتمبر ١٩١٥

يتميز قصر عقيلة الملك بالتطريز، كان مغطى بالحرير الأزرق. يفِدُ الحرفيونَ، من مستعمرات ما وراء البحار، ليمنحوا المكانَ سحرًا نادرًا.

تتميز ماري دي تيك بشخصية حيوية مثل خصلات شَعرها المصففة بأناقة، والمرفوعة لأعلى، كاشفةً عن عنق طويل ناصع البياض. إلا أنه توجَّبَ عليها إخفاء تلك الشخصية في أغلب الأوقات، انسجامًا مع قواعد وأعراف البلاط الملكي.

يُقدر إرنست صحبتها، ليس فقط من أجل امتياز أن يكون بالقرب من ملكة، ولكن لأنها امرأة لطيفة وساخرة.

كانا يطرزان معًا، لساعاتٍ. ممثل مسرحي وملكة بريطانيا العظمى وأيرلندا، وامبراطورة الهند. يبتسم دائمًا عندما يفكر في الأمر.

يطرزان ويثرثران، يتحدثان عن سطحية وقصص حُب الطبقة العليا.

- عابرة مثل زهور الهندباء.

كانت تحب أن تقول. تكفي هبَّة ريح لمحو تأثيرها ودقات القلب، ولخلق قصصٍ جديدة.

ماري في الثامنة والأربعين، أكبر من إرنست باثني عشر عامًا، ولكنهما تفاهما بسرعة مذهلة. عثرا في التطريز، وفي تجاذبهما أطراف الحديث، على توازنٍ مشتركٍ، ربما هي منطقة حرة يحتاجها كلاهما. تسأله الملكة إذا كان يمكنها رؤية عمله عن قرب، فيضعه إرنست أمامها.

- أوه يا سيِّد ثيسيجر. إن غُرزك... رائعة.

- مجرد ممارسة يا سيدتي. فقط الممارسة الدؤوبة.

- بدأت في فرنسا، أليس كذلك؟

لمس إرنست سُترته، وتأكد أن رباط عنقه الحريري غير مطويٍّ حيث يتقابل مع وسطه.

- أجل. وُلِدت الهوايةُ في الأسواق الصغيرة ومحلات الأنتيكات. لا يمكن، جلالتكِ، أن تتخيلي القطعَ النادرة التي يمكن العثور عليها، قطعًا مطرزة، ثمينةً جدًّا تعود للقرن السابع عشر. رائعة. وإسكتلندا أيضًا بها كنوزٌ غير متوقَّعة.

- لهذا السبب كانت ماري ستيوارت مُطرِّزة استثنائية. ولكنها للأسف كانت تخفي رسائل عدائية للملكة بين الغرز التي تطرزها. أي الأشكال تُفضل يا إرنست؟

- الورود، دون أدنى شك.

- وأنا أيضًا، والتطريز هل يبهجك؟

- إنه العمل الوحيد الذي يمكنني القيام به قبل أي عرض. يساعدني على التركيز، والتحرر من أي فكرة أخرى.

أعادت له ماري الستار.

- أتفق معك في كل كلمة، وخاصة في هذه الأزمنة المظلمة. حاربتَ حضرتك أيضًا، أليس كذلك؟

تظاهر إرنست أنه يركز في عيب غير موجود في عمله.

- أجل يا سيدتي، في فرنسا، ولكن لم أمكث هناك كثيرًا.

لم يتحدَّثْ عن الحرب قطُّ. ذلك اليوم، على كلِّ حال، لامسَ كلاهما الموضوع أكثر من مرة. بالقرب من قصر باكينغهام، جُففت بحيرة حديقة سان جيمس ليقيموا فيها أول مستشفى ميداني ويواجهوا التدفق الشديد للجرحى القادمين من الجبهة.

حكى لها عن الخطاب الذي تلقَّاه اليوم السابق.

- رسالة من مستشفى شارع إيندل. المسؤولات -جميعهن من النساء- يطلبن مساعدتي للمرضى.

- نساءٌ فقط، أجل، قِيل لي هذا، ويطلبن مساعدتك؟

- أجل، عبر السيدات اللاتي يقمن بعمل تطوعي هناك. يرغبن في تعريف المرضى بالفن.

- جنود ممثلون؟ عرضٌ غريبٌ. لماذا سيهتمون بالمسرح في خضمٍّ الحرب؟

شدَّ إرنست الخيط وتأكد من الغُرزة، كانت رائعة.

- جلالتكِ، إنَّهم مصابون إصابات خطيرة. لن يعودوا إلى الحرب. لن يعودوا أبدًا. يمكنهم العمل، بصعوبةٍ. ولا ينبغي للعلاج أن

يتعلق بالجسد فقط. أطلعتني طبيبةٌ لطيفةٌ بدقة على فوائد الأنشطة الترفيهية والفنية.

- فهمت. هل ستوافق؟

وضع إرنست الإبرة. كان قد فكّر في الأمر طوالَ الليل. أرّقته المسألة، وذكّرته بالمعاناة التي مرَّ بها. تفحّصَ بنظرته نصف القفاز الحريري الأسود الذي يرتديه. تكاد جروح الحرب أن تندمل، ولكنها ما زالت مغروسة في أعماق النفس.

أمسك الإبرة من جديد.

- لديَّ بالفعل التزاماتٌ كثيرة يا سيدتي، فأنا أُعد لمسرحية جديدة، عرض ساحر سيُقدم على مسرح الكريتريون. أعتقد أنه العمل الذي سيكون انطلاقة مشواري الفني. الكريتريون مبني تحت الأرض، هل تعرفين هذا؟ مكان آمن في حالة أي هجوم جوي. إنهم يُعدون حاليًا الإعلانات ليطمئنوا الجمهورَ.

صوَّبت ماري نظرها نحوه. خشيَ إرنست أنَّها، بحدسها القوي، أدركتْ ظِلًّا بداخله يحتاج أن يتلاشى.

- بالتأكيد أنت تعرف أن الأميرةَ، ابنتي، تزور المستشفيات العسكرية بصفتها عاملة في الصليب الأحمر، وتهتمُّ بتنظيم مبادرات لدعم الجنود وعائلاتهم؟

- أعرف هذا. إنَّ عمل سمو الأميرة جدير بكلِّ تقدير.

ابتسمت ماري.

- إذا كانت هي تستطيع ذلك، لماذا إذن لا تستطيعه أنت؟

٣٨

لندن، مستشفى شارع إيندل العسكري، سبتمبر ١٩١٥

في نهاية دورة عمل أرهقتها، استُدعيتْ كيت لإجراء عملية لا تحتمل التأجيل. دخلتْ غرفةَ العمليات وكانت لويزا بجوار السَّرير الصغير ومعها فريقها متأهِّبًا.

بين مُلاءات تصبغها الدماء والعربة بما عليها من أدوات، رأتْ جسدًا ممزَّقًا بعشرات الشظايا المعدنية، من منتصفه حتى أسفله. جعلت الممرضة تربط لها قميص الجراحة.

- أتيت بأسرع ما يمكن. ما المشكلة؟

كانت لويزا تضع يدها على جبهتها. لم ترها كيت قلقةً بهذا الشكل من قبل.

- هبط الضغط بسبب النزيف، كان نزيفًا بسيطًا ولكنه مستمرٌّ. ولتجنب صدمة نقص الدم نظمت له بالفعل عملية نقل دم وتزويدٍ بالسوائل. وتبدو فعالة. بدأتُ لتوي انتزاع الشظايا، ولكنَّ الساقَ اليسرى تقلقني. حالة صعبةٌ، والصداع النصفي يقتلني.

كانت تلتمسُ منها رأيًا، دعمًا لرؤيتها، تحتاجان أن تقررا معًا إذا كان ينبغي عليهما البتر أم الاستمرار بمحاولة إنقاذ السَّاق.

فحصته كيت. نخرته الغرغرينا بالفعل. التحلل لم تتسبب فيه الغازات، بل الأيام التي تُرك فيها الجرح للتقيح. يحتاج الجرحى قرابةَ أسبوعين لنقلهم من جبهات القتال في فرنسا وبلجيكا إلى لندن. يتكدسون بالآلاف على أرصفة الموانئ، قبل أن يعثروا على مكانٍ شاغرٍ ليبحروا.

تلفَ جزء كبير من الأنسجة واسودَّ لونها، ولكن ربما يستعيد الدم دورته بفضل عملية نقل الدم، ويحرَّر الدم من السموم التي سبَّبها التلوث. فحصت كيت صور الأشعة التي قامت بها هيزيل، وحاولت أن تجد فيها تشخيصًا متفائلًا.

الممرضةُ تنتظرُ، والمنشار على الصينية.

تراجعت لويزا إلى الوراء.

- قرري أنت يا كيت، أنا لست في حالة تسمح لي بإجراء جراحة.

كانت بالفعل حالة حرجة. إذا خدع النظر والتخمين والخبرة كيت، وبقيت ولو قطعة لحم فاسدة، قطعة صغيرة جدًّا داخل الجرح، سيعني ذلك موت هذا الرجل مصحوبًا بألم لا يُطاق.

نظرت كيت إلى الوجه، كأنَّها تختبرُ مجدَّدًا حدثًا مَرَّ بها من قبلُ. تعرفت على الندبة الخفيفة التي تعبُر صدغه، أصبحت الآن غير مرئية. كانت تلك هي بصمتها التي تركتها على وجهه.

- ما اسمُ المريض؟

سألتْ، رغم أنها كانت تعرف. الحياة تلعب ألعاب المصادفات، ألعابًا ساخرة، قاسية ومؤلمة إلى أقصى حدٍّ.

ألكسندر آلان سايمور.

كانت على وشك القول إنَّها لا تستطيع أن تتخذ ذلك القرار، وإنَّ تفكيرها ليس صافٍ، وإنَّ النَّقيبَ يمثل لها، وإنْ لفترة وجيزةٍ، إشراقةَ أملٍ في حياتها، أمل على هيئة ابتسامة نزعتها منها كلمات بسيطة بدت لها على الفور عزيزةً ومألوفة.

عليها، الآنَ، أن تقرِّرَ أن تنزع منه مستقبله، هُويته كرجل وبطل، واستقلاله مع ساقهِ.

لم يكن العالم مستعدًّا، حتى الآن، لاستقبال المعاقين. إنَّما قدَّمتهم الصحف للمجتمع أبطالًا ورومانسيينَ. لا بد أن يهتم أحدهم بهذا. ليست إرادة الرَّبِّ أن تتركهم عائلاتهم -ولا نساؤهم- وحيدينَ.

سيغيِّرُ البترُ بشكلٍ مأساوي حياةَ الرجل، الماثل بين يدي كيت، إلى الأبد. ألا يمكنها بالفعل عمل شيء سوى الحكم عليه بهذا؟

٣٩

يشعر ألكسندر بأنه يحترق، عاريًا ومحمرًّا من الدماء، لحمًا يتمزق إلى أنسجة، كلُّ شيء فيه مشدودٌ إلى أقصاه. يفجِّر الألمُ جسدَه.

ثم فتح عينيه وصمت كل شيء، فيما عدا المعاناة. كان المصباح خافتًا مثل صوت العالم. وُضِعَ على طاولة السرير الجانبية، وبجواره الصَّليب الذي نحته له صمويل.

رؤى الحرب ليست سوى كوابيس، حية جدًّا إلى حد أنها تنزع منه الأنين.

اللحظات الأخيرة من الانفجار تمر أمام عينيه. رأى بعضًا من الجنود ينفجرون في الهواء. رأى نفسه يتهشم، وصمويل يتوسل إليه من الصليب.

سقط مرة أخرى في النعاس، ثم استيقظ لأكثر من مرة، محمومًا غارقًا في عَرقه، ينتابه ارتعاش لا دخل لها بالحمى. الألم، الذي يشعر به في قدمه، مبرِّحٌ. على الأقل هذا يعني أنها لا تزال هناك في مكانها متصلةً بباقي جسده.

أحدهم نادى عليه باسمه أكثر من مرة، وكأنه يوقظ طفلًا يعاني الكوابيسَ.

أدار ألكسندر وجهه بصعوبةٍ. رأى رفاقه على الأَسِرَّة الأخرى. سيسيل وأوليفر وأندرو. تظهر على وجوههم الآلام، ولكنهم أحياء.

غياب صمويل حجر مذبح يجثمُ على صدره. سيقيم عليه ألكسندر طقوسه احتفاءً بفدائه ما بقيَ حيًّا.

لم يستطع أن يحمي جنوده. خلال أيام الرحلة اليائسة، في لحظات الإفاقة، سأل نفسه إن كان بوسعه تجنُّب ما حدث. أن يتنبأ بالهجوم القادم، أن يسمع الاهتزازات مبكرًا، أن يحثهم على التراجع، على الهروب. سأل نفسه إن كان هو أول من تخلَّى عن حذرهِ، ومَن شُغِلَ وعرَّضهم لهذا المصير.

مجدَّدًا، أغمضَ عينيه تحت وطأة ثقل جفنيه، ورعبٍ لا يُحتمل. تمنَّى ألاَّ يحلم مرة أخرى بالجحيم. كان يعيش في الجحيم حقًّا، بل وجذب إليه أعزَّ أصدقائه.

٤٠

عَهدتْ كيت، لمينا، بنوم آنّا. نزلتْ إلى الجناح، حيثُ أطلَّ قمرُ اللَّيلةِ الكاملُ عليهم، مُتخلِّلًا زُجاجَ النَّوافذ العالية شُعاعًا من أزرقَ قاتمٍ... يخفتُ، أحيانًا، آنَ تمرُّ السُّحبُ وينتشرُ السَّديمُ. بدا لكيت كأنَّها تسيرُ فوق السَّماء بخُطىً ثقيلةٍ، ومُعذَّبةٍ.

قابلت أولغا في الممر الصامت. كان دورها بمناوبةِ «ساعة النفوس»، تلك التي يترك فيها العديد من الجنود -ممَّن لم يتمكنَّ من مساعدتهم- الحياةَ الأرضية منتقلينَ إلى مكانٍ آخرَ. تقريبًا، لا يحدث ذلك خلال النهار، عندما يكون صخبُ العالم عنيفًا للغاية والحياة تغزو كلَّ شيءٍ بقوةٍ.

بدا وكأن الظلامَ جسرٌ يساعدهم على العبور. يدعوهم الموت همسًا، وذلك الهمس يحبسُ أنفاسهم.

ليس الليلة، فكرت كيت. ليس الليلة! ربما ستتحولُ، إنْ لزمَ الأمرُ، إلى ساحرةٍ لتمنعَ ذلك.

أضاءت المصباح وخففت ضوءه. الجميعُ نيامٌ.

اقتربت من سرير ألكسندر. وضعت كفها على جبهته، كانت باردة. رفعت المُلاءة وفحصت الضمادات. بدت لها ناعمة، لم يعاود الجرح النزيف. بصبر رفعت الشاش الموضوع ليمنع نزيف الجرح، ووضعت آخر بدلًا منه.

لم يكن من السهل خياطتها. بإصرار أعادت الخياطة واحترست مع كل وعاء دموي، وطاردت في كل نسيج، بمهارة فنان، محنيةَ الظهر لساعات على الجسد الذي ترمِّمه، دون أن تستسلم للهزيمة، حتى عندما تفجَّر الدم نازفًا مرةً أخرى، بعد المرة المئة التي وثقت فيها أنَّها انتهت. كان جسدًا قويًّا، يتشبَّثُ بالحياة بشدة، وينبض تحت أصابعها.

وصل ألكسندر، إلى مستشفى شارع إيندل، مع مجموعة من جنود فرقته. صِبيةٌ وشبابٌ فجَّرهم العدو بشحنات زرعها تحت ثكناتهم.

أصرت فلورا على وضعهم معًا وعدم تفريقهم، في غرفةٍ أصغر من باقي الغرف، لأن ذلك سيسمح لهم بإفاقةٍ أسرع من الصدمة. لم تكن الغرفة الصاخبة مثاليةً في تلك الحالة.

لم يُصب النَّقيبُ على الفور، من بين تلك المجموعة البائسة، بالصدمات الأسوأ، ولكنه في هذه اللحظة كان يعيش ظروفًا قاسية بسبب تلوث جرحه. ستكون الساعات التالية حاسمة لنعرف إذا كان جسده قادرًا على تجاوز تسمُّم الدم.

كل قلب رجل، وضعته كيت تحت مشرطها، ترك فيها أثرًا لا يُمحى. أعطاها لمحةً عن قوة الطبيعة الغاشمة ووحشيتها، ولمحةً أُخرى عن جَمال الولادة الثانية، المتألمة.

تساءلتْ إذا كانت المرأةُ، صاحبة الخطاب العاشق، تعرف بأنه موجود هنا.

فكرت، وهي تلمس معصمه، أنت بحاجة إليها. أنت بحاجة لقلب قوي يؤازر قلبك.

يخفق قلب كيت. ربما لأنها تلمح السحب السُّود تلوح في الأفق، أو ربما لأنه لا يوجد مخلوق جُبِلَ على السكون التام. يمكن أن ينامَ نومًا طويلًا لأعوامٍ، لفصولِ شتاءٍ باردةٍ، ويستيقظَ فجأةً، بفعل دفء أنفاسٍ أخرى.

مكتبة
t.me/soramnqraa

٤١

استيقظ ألكسندر وغطَّ في النوم مرات عديدة جدًّا إلى حد أنه فقد الإحساس بالوقت. عندما فتح عينيه على سماءٍ تشتعل، اعتقد للحظة أنه ما زال على الجبهة، تحت أمطار النيران. رفع ذراعيه ليغطي وجهه، وشعر بهما ثقيلتان ومتعبتان، كأنهما حَفرتا حتَّى بلغتا قلب الأرض.

إلاَّ أن النيران لم تكن سِوى الغروب البنفسجي خلف زجاج تلك النافذة المجهولة. تذكر ألكسندر اسمه، وتذكر العائلة التي تميزه أكثر من العظام التي تقيمه على قدميه، ولكن إذا كان يجب عليه وصف اللحظات الأخيرة التي عاشها، لن يعرفَ إذا كان عليه التحدث عن ثوانٍ أم قرون.

كانت المشاهِدُ التي لمحها أثناء رحلة العودة تتراقص، في ذهنِهِ، عشوائيًّا. كأنها هي ساحرات حول نارٍ مُوقَدة، والتي تعني البعث ربما أو الموت القاسي، أو التلاشي في الرماد. بدا له أنه يشعر برماد المجمرة على جلده.

التفت ليبحث عن الآخرين. وبدأ يحسب، ذهنيًّا، الأعضاء التي فقدوها.

سيسيل فقد ساقيه. باقي جسدهِ ممدَّدٌ على المُلاءات مضمَّدٌ بدءًا من فخذيه. لن يستطيعَ ركل كرة الرغبي بعد الآن.

سيحتاج أوليفر إلى تعلُّم التدخين بذراعهِ الأخرى لأنّه فقد اليُمنى.

يبكي أندرو منكمشًا، يرى ظهره. لم يفهم ألكسندر إذا ما كان ينقصه عضوٌ أم أنَّ الانفجار سلبه عقله. وكان يعرف مصير صمويل.

مَن بوسعه أن يقول، الآنَ، إن هؤلاء الرجال، مثل عشرات غيرهم، قطعوا نصف ميدان المعركة ليرشدهم إلى النَّجاة؟

- يؤسفني هذا.

لم يتعرف على صوته، حدَّ أنه تساءل إذا ما كانت شظيةُ قذيفةٍ قد مزَّقت حنجرته واستقرَّتْ في سقف حلقهِ.

شيءٌ ما في نظراتهم إليه جعله يعي أن الحسابَ لم ينته بعدُ.

نظرَ إلى نفسه. بدا أن ساقيه موجودتان تحت المُلاءة، ولكنَّ اليسرى كانتْ محميةً بدِعامة ترفع النَّسيج.

مدَّ ألكسندر يده بصعوبة، عندما وصلت الممرضة لتوقفه.

قال: تحرقني. وكان صادقًا.

قال: تؤلمني.

هذا أيضًا كان حقيقيًّا، ولكن لم تستطع أي من تلك الأحاسيس أن تؤكد له الفكرة التي قفزتْ أمامه. يمكن أن تكون مجرد ذكريات جسدية نحتتها الأعصابُ، ذكريات تبقى حيةً حتى لو لم يعد العضو موجودًا. يحدث هذا أيضًا في حالات الحب أحيانًا.

أفلت من قبضتها. طلبت الممرضة المساعدة بصوت عالٍ، ولكن بعد فوات الآوان. لمس ألكسندر انتفاخ الغطاء، إلا أن القماش سقط في الفراغ.

لم يكن ثَمَّ لحمٌ تحت اللِّحاف. لم تكن هناك حياة، ولا دماء، ولا عظام. لم تكن هناك أوتار أو عضلات.

٤٢

في الجناح الذي يستضيف النَّقيب سايمور تتطاير الأواني والكلمات الصاخبة. سمعت كيت صخب المعدن عند السلالم.

لم تكن المرة الأولى ولن تكون الأخيرة. يحدث ذلك عادة عندما يدرك الرجال بأنهم ليسوا كاملينَ كما دخلوا. يعتقدون أن أجسادًا سُلبتْ منهم؛ طالما اعتبروها من المسلَّمات، فكيفَ تُمزَّق بطرق غير متخيَّلة وبشعة! كانوا مقتنعين بأنهم حُرِموا من استقلالية لا يمكن استعادتها، من صورة اعتادوا أن يعكسوها في المجتمع. من أجل ذلك وأشياء أخرى كثيرة كانوا يلومون نسوةَ مستشفى شارع إيندل.

استعدت كيت لتواجه الثورة، وتهدئ النفوس، وتمتصَّ الاتِّهامات التي تتحدث عن شيء آخر، والتي تكشفُ في جوهرها -فيما وراء الكلمات السُّوقية الظاهرة- عن ألمٍ بشعٍ. المعاناة، الظاهرة مثل الجلد العاري، تجعل من رجولة أولئك الرجال هشَّةً، ولكن بالتأكيد غير مهزومةٍ. إذا استطاعوا فقط أن يروا أنفسهم عبر عينيْ كيت والأُخريات، سيفهمون أن القيمة ليست فيما فقدوه من أرطال لحمٍ.

كانوا بحاجةٍ إلى المزيد من الوقت كي يهادنوا البداية الجديدة، ولكن

بعضهم للأسف، لم يمنح نفسه فرصةَ أن يفهمَ قطُّ، وحكم عليها بألمٍ لا يسكن. لقد جمعت كيت نفوسًا بائسةً من على الأرض، بعد أن قطعتْ رسغًا أو تدلَّت بحبلٍ حول العنق. ولكنها استطاعت أيضًا مواساة نفوسٍ أخرى، تبللها الدموع يرسلون من خلالها اعترافات صادقة ويائسة، ربما لم تكن لتصلها لو كانت طبيبًا رجُلاً.

أحيانًا تشعر بثقل غير إنساني، ولكنها بدأت تلمح بعض علامات الأمل: إيماءة بابتسامة، شكر هامس، نبرة صوت أكثر لطفًا. المرضى المقدَّر لهم الإقامة الطويلة هم المستعدون أكثر لهذا السلوك. الامتنان يصنع المعجزات، ولكن ربما ما يقود إليه بالفعل هو ذلك اللقاء اليومي بين عالمين، ولا بأس من أن يندلع من حين لآخر تصادم بينهما. تتقاسم النساء مع الرجال المجهوداتِ والأقدارَ في مستشفى شارع إيندل، وأكثر من مرة اضطر الطرفان أن يتأبط كُلُّ منهما ذراع الآخر لتجنُّب المصير الأسوأ.

ثبَّتتْ كيت شَعرها بالدبابيس، بطريقة أفضل على عنقها، وشمَّرت عن ذراعيها. ليس نادرًا أن تتحول انفجارات الغضب إلى اختبار قوى، لا بد للطبيبات والممرضات والمساعدات أن تستخدمنَ أثناءها القوى العضلية مع القوى الذهنية.

قابلتْ أولغا عند خروجها من الغرفة، وهي تحمل بقايا مصباح جمعتها في المريلة.

قالت: أحضرت له واحدًا آخرَ، ولكن كنت أُفضل أن أعطيه إياه على رأسه. أفضِّل النَّقيبَ فاقدًا وعيه. ألا يمكننا أن نرسلهم جميعًا إلى عائلاتهم قبل أن يستيقظوا؟

زفرت كيت التوتر الذي لم ترغب في الاعتراف بوجوده.

- فكرة جيدة يا أولغا، سأخبرُ عنها الدكتورة موراي.

أصبحت أولغا جادةً مرة أخرى.

- لا تدخلي يا كيت. انتظري قليلًا.

تسببت كيت في تدمير وجوده. هذا ما سيفكر فيه ذلك الرجل عند رؤيتها، والفكرة ربما يعقبها تصرف ما. إلاَّ أنها لم تقبل فكرة ترهيبها.

- مرت ثلاثة أيام ولا بد لي أن أفحصه. بعصبيته هذه يمكنه أن يُعرض الجراحةَ للخطر. سيعود النزيف...

خفضت أولغا صوتها: ليس وقتًا مناسبًا. لقد مرت من هنا المتطوعات من المدرسة الملكية لأعمال الإبرة. وكانت لديهن شجاعة أن يعرضنَ على النَّقيبِ ورجاله التطريز قليلًا من أجل الهدوء وشغل الوقت.

- يا إلهي، يا له من توقيت!

- كان قد عرف لتوه عن البتر. فتخيلي ردة فعله أمام هكذا عرض!

تسببُ عمليةُ البتر صدمةً، وتجلب معها مخاوفَ أخرى بخلاف تلك المتعلقة بالإعاقة. وأحد تلك المخاوف هو العجز الجنسي.

وصلهما من الغرفة المزيدُ من الضوضاء، وخرجتْ ممرِّضةٌ بسرعة.

قالت كيت: سأدخلُ.

- سأهتمُّ أنا بهذا الأمر.

وصلت فلورا. كانت لا تزال تعقد أزرار معطفها، بالتأكيد جاءها

استدعاء عاجل عن حالة أصعب من الحالات الأخرى. تركتهما أولغا بمفردهما. ولم تتوقع كيت أنها ستصرفها.

- يمكنني أن أفعل هذا يا دكتورة موراي.

- أوه، أعلم أنه يمكنك السيطرة عليه حتى تهدئته، ولكنني لا أريد لكِ أن تستنزفي طاقةً ثمينةً. أحتاج إليك بكامل قواك في غرفة العمليات.

- إنَّه مريضي، وواجبي أن أتابع مرحلة ما بعد الجراحة.

قادتها فلورا جانبًا، نحو القاعة.

- ستتابعينه، ولكن ليس مبكرًا هكذا. لا تذهبي إليه لبضعة أيام. إنه هائج. امنحيه بعض الوقت ليتقبَّل ما حدث.

- تقصدين ما فعلته به.

توقفت فلورا، ولاحَ استياءٌ على وجهها الغامض في العادة.

- لا أريد أن أسمع التُّرَّهات. الحرب هي التي بترتْ له ساقه، ولست أنتِ. سيستسلمُ لواقع حياته الجديدة. سيستسلم، كما فعل الآخرون من قبله.

٤٣

دخلت المرأة إلى الغرفة وأعادت النظام بنظرةٍ، وسؤالٍ من عبارة واحدة:

- أيُّها السادة؟

كانتْ لها نبرة عميد ولهجة إسكتلندية. فكر ألكسندر أن النبرة تبدو مستفهمةً عمَّا إذا كانوا هنا فعلاً، سادة، نظرًا لأنَّ ما يقومون به يصعِّب الحياة على أي شخص آخر يحاول الاقتراب منه. نبرةٌ وضعتهم أمام مسؤولياتهم في أن يتصرَّفوا بالفعل كما يتصرَّف السادة.

تذكرها. لقد قابلها من قبلُ في ويميرو. إنَّها الدكتورة موراي.

تقدمت بين الأَسِرَّة. التزم أوليفر وسيسيل السكون والصمت. حتى أندرو، الذي يعتزلُ عادةً في عالمه البعيد الخاصِّ، التفتَ لينظر إليها.

اقتربتْ الطبيبة من ألكسندر، وجلست على كرسي بجوار سريره. لم تقلْ شيئًا، حتى أنَّها لم تنظر إلى وجهه. بمساعدةِ ممرضة تمرر لها الأدوات الضرورية، رفعتِ المُلاءة كعازف بيانو يرفع غطاء الآلة، وبالبراعة نفسها بدأت تحلُّ الشاش بأصابعها.

- وهكذا نتقابل من جديد حضرةَ النَّقيب.

- هل تتذكرينني؟

- أتذكر الجميعَ.

راقبها ألكسندر دون أن يحاول إخفاء هذا. الآنَ لم تعد الرسميات جزءًا من حياته. صوَّبَ عينيه عليها، وبدا أنها لم تهتم كثيرًا بتلك النظرة، أو ربما لم تهتم على الإطلاق.

- هل حضرتكِ من بترت ساقي؟

سألها فجأة.

- هل سيشكِّل هذا أي فارق؟

- هل بترتها حضرتك؟

- كلا! ورفْع صوتك، على كل حال، لن يساعدك على استعادتها.

- لا أصدق ما قلتِه الآنَ.

وأخيرًا نظرتْ إليه، واضطرَّ أن يعترف لنفسه أنه لا يؤثر فيها البتة. كان واضحًا، ومخجلًا نوعًا ما.

- أوه، صدقنا أيُّها النَّقيبُ! هنا نلقي بالدعابة، بالإضافة إلى إنقاذ الحياة ببتر الأعضاء. بما في ذلك ساقك. نعتقد أن روح الدعابة يمكن أن تساعد المرضى على التعافي أسرع.

شتمَ، ليريها كم كانت دعابتها رائعة! بينما ابتسمت هي ببرود.

- مقابل كلِّ شيء ستكسره حضرتك، أو واحدٌ من رجالك، ستؤدون ساعة عمل في هذا المستشفى، بطبيعة الحال تبعًا لاستطاعة كلِّ

منكم، وأنا متأكدة أننا يمكننا العثور على أعمال تتناسب مع إعاقاتكم.

- هل تعتقدين بأنَّ هذا مسلٍّ؟

- على الإطلاق. وسأوضح لك على الفور أمرًا آخرَ: أنتم في مقرٍّ عسكري، فما زلتم جنودًا. وعندما أستخدم صلاحياتي كمديرة، فأنا أفعل ذلك من موقعي كمُقدَّمٍ، وهي الرُّتبة التي مُنِحْتُها من وزارة الشُّؤونِ الحربية. فلتطيعوا، وإلاَّ ستطيعون في كلِّ الأحوال. والآنَ، هل تريد أن تراها؟

لم يفهم ألكسندر عمَّ تتحدث.

- هل تريد أن ترى ساقك أيُّها النَّقيب. أن تنظر إليها.

قالتْ بنبرة أرق.

- لا.

- لتفعل ذلك، اعثر على شجاعتك، سينزع ذلك ثقلًا من على صدرك.

- يا لكِ من قاسية.

قرَّبتْ الدكتورة موراي وجهها من وجهه. وبدا لألكسندر أنه يشمُّ رائحة عطر «بودرة التَّلْك»، وهو أمرٌ مستغربٌ من مُقدَّمٍ في الجيش.

- أيُّها النَّقيب! كلَّما أسرعتَ في التكيُّف مع ما أصبحتَ عليه، ستسرع في العثور على القوة لتعيد اكتشاف وجودك.

كان ألكسندر يعرف جيدًا مكانته السابقة، ولكن في هذه الحالة،

أي نوع من الرجال سيكون؟ بلا عمل وبلا مستقبل. مُعاقٌ، ثقيلٌ على نفسه، وعلى عائلته، وعلى كارولين.

أدار رأسه ونظر نحو النافذة، وقرر ألاَّ ينطق بكلمة واحدة. استمرت في مداواته. كانت رقيقةً وسريعة، لم تمكث أكثر مما يلزم. عندما انتهت، حيَّتهم وهي تشجعهم أن يطلبوا استعارة كتبٍ من المكتبة.

- هنا، في مستشفى شارع إيندل نطلق على ذلك «العلاج بالقصص». إنَّه نافع.

رحلت دون أن توصي ألكسندر بأي شيءٍ، أو تتحدَّاه.

- سَيِّدي النَّقيب!

كان سيسيل.

- لا تستمعْ إليها. فنحن مَن أصبحنا أنصافًا.

لم يكن ألكسندر قد واجه رفاقه بعد. كلٌّ منهم انغلق على نفسه في صمت خَلق مسافةً استبدلتْ ما كان قبلًا أواصرَ أخويةً. اكتشفوا عدم قدرتهم على التواصل، واكتشفوا خوفهم الشديد.

يسمع الرجال يصرخون في الليل في هذه الغرفة وفي الأجنحة الأخرى. لم يحدث مثل هذا أثناء المعركة، قطُّ. فألم الذهن أكثر عصفًا بكثير من ألم الجسد.

الفكرة الوحيدة المواسية كانت: لا يمكن أن يحدث ما هو أسوأ. وبهذا عليهم فقط العثور على طريقة لينهضوا من جديد.

جذبت طَرقات خفيفة انتباهه. على وجْه الرجل الذي ينظر إليه،

عند الباب، تجاعيدُ أكثر مما يتذكره، وشَعره أغزر شيبًا. أما الملابس فكانت تظهر أناقته التي رآه عليها دائمًا. وعيناه كذلك لم تتغيرا، تشبهان عينيه.

تقدم أبوه بخطوات لورد، تقبض كفُّه داخلَ القُفَّاز على العصا التي يستند عليها، عصا تحْيي لدى ألكسندر ذكريات الطفولة مثل تيار بارد. كان صوت وجوده في البيتِ، ذلك الصوت الذي يوقف العائلة كلَّها على أقدامها، أو يهربون منه متظاهرين بأنهم مندمجين في أعمالٍ لا تنتهي.

مدَّ شارلز لويس سايمور يده. شد عليها ألكسندر قبل أن تُنزع منه، ربما أسرع مما ينبغي. جلس أبوه حيث جلستْ قَبلًا دكتورة موراي، وضع ساقًا على أخرى كاشفًا عن حذاء شديد اللمعان، بدا كأنَّه اقتناه للتو من المتجر. خلع قبعته ووضعها بعناية على ركبته.

- كيف حالك يا ألكسندر؟

الصوت أيضًا لم يتغير، وتر مشدود بلا تنوعات، سواء تحدث عن ريع أملاكه أو عن ابنه المصاب إصابة مميتة. لا شيء يتغير.

- بتروا لي ساقًا!

- عرفت. أمك ترسل لك سلامها وتمنياتها بالشفاء العاجل.

- أتمنى أن أراها.

- المستشفى العسكري ليس مكانًا مناسبًا لامرأة.

كاد ألكسندر يضحك، وتمنى لو كانت دكتورة موراي موجودةً لتسمعه.

- هذا المستشفى *تديره* النساء. فقط النساء. أنت أول رجل أراه، فيما عدا المصابين.

- أقصد ليس مكانًا لامرأة محترمة.

انطفأت ابتسامة ألكسندر، وتذكر فجأة خاصية أخرى من خصائص أبيه، نسيها لبُعده عنه الفترة السابقة في الجبهة: الاستخفاف والاحتقار اللذين ينظر بهما إلى العالم البعيد عن ممتلكاته، وهو يعد العائلة أيضًا من ممتلكاته.

استمر شارلز سايمور دون أن يلاحظ تبدل حال ابنه.

- ستستعيد عافيتك يا ألكسندر وستعود مثلما كنت.

- فقدت ساقي.

- أنت ما زلت تشكو، ولكن أنا سأنخسك، لا بد أن تقاوم.

اكتشف ألكسندر أنه يفضل قسوة الدكتورة موراي الساخرة والخفيفة على ذلك الرجل الذي لا يستطيع حتى أن ينظرَ في عينيه.

لم يكن أبوه شريرًا. لم يضرب أبناءه قطُّ، ولا زوجته، ولم يُسئْ إليهم بكلماتٍ، ولم يتأخر عن مساعدتهم ماديًّا. ولكن، أيضًا، لم تخرج كلمةٌ رقيقةٌ من بين شفتيه، قطُّ. كان كائنًا باردًا ومتباعدًا إلى حدٍّ أنه متهم بجلبِ التعاسة في حياة الآخرين.

- لقد عقدتُ اجتماعًا مع أخيك يا ألكسندر.

- اجتماع!

- فكَّرتِ العائلةُ في مستقبلك. جيمس سيأخذك لتعمل في مؤسسة

العائلة، في مكتب لن تحتاج أن تتحرك فيه كثيرًا. عندما تعود إلى المنزل، بعد بضعة أسابيع، ستستقر في حجرة في الطابق الأسفل، ولن تحتاج إلى سَلالم. تهتم أمك بالفعل بهذا مع الخدم. وطلبت مني أن اسألك إذا كنت تحب الحرير الأخضر، أم تفضل شيئًا آخرَ.

- حريرٌ أخضرُ؟

- للون الجدران.

- تقابلت عينا ألكسندر مع عينيْ سيسيل وأوليفر، خلف كتفيْ أبيه. رأى فيهما استياء عميقًا جدًّا بلغ حدودَ الألم. الآن ربما يفهمون لماذا اعتبرهم أسرته. أسرته التي اختارها، والتي وصلتْه هِبةً.

- لا ضرورة للتجديد يا أبي.

- بالتأكيد التجديد ضروري. نريدك أن تشعر براحة.

قالَ متجنِّبًا النظر إليه، أو إلى مساحةٍ في السَّرير خلتْ منها ساقُه.

تحدث معه أبوه كأنه نصف رجل، طفل غير قادر على اتِّخاذ قرار، وكأن مصيره قد تحدد ولا يمكنه سوى أن يسير في اتجاه واحد: وضع ترقيعات يختارها الآخرون للسير قُدمًا، وكأن البتر نزع عنه أيضًا حقه في تقرير مصيره.

لم يستطع ألكسندر التفكير في تحمل تلك الشفقة دقيقةً أخرى.

مدَّ يده.

- أشكرك! ممتنٌ لك.

نهض أبوه على الفور وكأنه استراح للانصراف. شدَّ عليها.

- إلى لقاء قريب يا ألكسندر. سأرسل سائقًا ليأخذك بمجرد أن يسمحوا لك بالخروج.

قبل أن يخرج، أوقفه ألكسندر بكلمة واحدة، تجنَّباها بحرصٍ حتى تلك اللحظة.

- كارولين؟

بالكاد التفتَ له أبوه، منهمكًا في وضع قبعته.

- ستصلُك أخبارها قريبًا. فهي مضطربة بطبيعةِ الحال. تحتاج لبعض الوقت كي تعتاد... الفكرةَ.

لا بدَّ لها أن تعتادَ الفكرة؟

عندما خرج شارلز، نظر ألكسندر إلى المصباح الجديد على طاولة السرير الجانبية.

خمَّن أوليفر أفكارَه.

- لا تفعل ذلك سَيِّدي النَّقيب! سيكلفك ساعةَ عملٍ بناءً على أوامر تلك المرأة المتسلِّطة. هل يستحقُّ الأمرُ ذلك؟

أمسك ألكسندر بالشيء. وألقى به فتهشم لفُتات، تمامًا مثلما بدتْ عليه حياته في تلك اللحظة.

٤٤

خرج الرجل من الغرفة واصطدم بكيت فأوقع الملفات التي تمسكها بين يديها، وفي الوقت نفسه، على الجانب الآخر من الغرفةِ، سُمع صوت شيء يتهشَّم.

فكَّرتْ: المصباح. انفجرَ تحكُّم النَّقيب الذاتي!

أشار سايمور الأبُ معتذرًا، وساعدها بعجلةٍ أن تجمع الأوراق. صُدمت كيت من التشابه مع الابن. العينان الخضراوان نفسهما، ولكنهما فارغتان. الطريقة المتعالية، دونَ حسمٍ، تفاخر فحسب.

وضع الأبُ في يدها الورقة الأخيرة، ولمس قبعته مُحيِّيًا، ورحل كأنما كتيبة ألمانية تُطارده. سمح الوقت لكيت بأن تلمح الخوف على وجهه، فقط. الخوف من أنَّ عليه عِبئًا لا يعتقدُ بأنه يستحقُّ تحمُّله على الإطلاق.

سمعت كيت الحوار بين الأب وابنه ولم تشعر بالخجل من ذلك. فهنَّ لا يعالجنَ، في مستشفى شارع إيندل، الجسدَ فقط، بل يبدأنَ بلملمة أشلاء النفس الشاردة، وخاصة عندما يبدو أنها قد هربت بعيدًا، ويحاولن علاجها، عندما تحضرُ بجُرحها. والإلمام بماضي هؤلاء الرجال،

واكتساب الثقة ومعرفة ذكرياتهم أمرٌ ضروريٌّ لخوضِ رحلة الشفاء الحقيقي.

لمست كيت البابَ الموارِبَ. أرادت أن تدخل وتقول له إنه توجد عائلات تبدو رائعة، ولكنها في الواقع، وأسفل تلك الطرق التي لا غبار عليها، المزيَّنة والمجمَّلة، والبدل الحريرية وأضواء الصالونات اللامعة يختبئ الفراغ والظلال الأكثر قتامة. كانت عائلتها أيضًا هكذا. هي أيضًا مرت بالشيء نفسه.

يمكن للمرء أن يستمر وأن يستعيد القليل مما تبقى. يمكن أن يختار مصيره، بعيدًا عن اسم العائلة، وربما استطاع أن يتفادى ضربات الحياة، ولكن ليس من الجميع، وبالتأكيد فإنَّ ذلك لن يمنحه الدِّفءَ الذي يحتاج إليه شخصٌ له طباعهما، أبدًا. فهذا يكلف ألمًا، ودموعًا.

أرادت كيت الدخول، ولكنها في الوقت نفسه ظلت بعيدة عن تلك الهُوَّة التي تمثلها: عتبة الذكريات، النظر إلى المرآة وسؤال نفسها إلامَ وصلتْ، التجربة الأخيرة التي لا بد من اجتيازها، الوداع الحاسم إذْ تودعُ كيت التي كانت.

ثم، مَن هي لتقول له كيف يواجه الحياة؟ إنَّها تحمل على كاهلها الأكاذيب التي غطت بها نفسها.

نظرتْ إلى يدها، إلى كذبتها الكُبرى: الخاتم اللاَّمع.

نزعت خاتم الزواج وشعرت، للحظةٍ، بأنها حرة، ولكن عارية. مكشوفة لدرجةِ أن عظامها ترتجف. وكم ارتجفت -ومعها حياة أخرى في حِجرها ينبغي حمايتها- في ليالي الوحدة، يومَ لم تكن قادرةً على حماية نفسها.

هل هي مستعدة لتظهر نفسها على حقيقتها، ما كانت وما أصبحت عليه؟

حبستْ الإجابةُ أنفاسها.

ارتدت الخاتم مجدَّدًا، وابتعدت عن الباب، عن لحظةٍ حميميةٍ أفزعتْها.

٤٥

على قائمة المهام التي وزعتها فلورا، بعد ذلك ببضعة أيام، وجدت كيت اسمَها قريبًا تمامًا من جناح النَّقيبِ.

قالت لها غريس الواقفة خلفها: تعتقد الدكتورة موراي أنه مستعد أو ربما أنت مستعدة لمواجهته.

تبعت كيت الخط بإصبعها لتتأكد من وجود اسمها بجوار الجناح.

همست فزعةً: ربما لا أحد منا مستعد.

- سرعان ما سنكتشف ذلك.

- أنت لا تطمئنيني هكذا.

- ليس عليَّ طمأنتُكِ، *فأنا أنخسك*.

برفقٍ دفعتها كيت بيدها. فهذا التعبير التعس وجَّههُ سايمور الأب لابنه ألكسندر، وأصبحَ الآنَ شعارًا ساخرًا بين طبيبات مستشفى شارع إيندل. يبدو أن المستشفى كلَّه كان مصغيًا للرجلين.

باشرتْ الزيارات الطبية وتركت غرفة النَّقيبِ للنهاية. عندما دخلتها، كانت معدتها تؤلمها. رأته على الفور جالسًا ينظر من خلال النافذة، وظهره

إلى الباب. من المكتبة وزعت إليزابيث بالفعل كتبًا لهذا الأسبوع. ظلت كتبه على حالها فوق طاولة السرير الجانبية. اقترحتْ امرأتانِ من مؤسسة المتطوعين التطريزَ، من جديدٍ، وعاملهما المرضى معاملةً سيئة:

- هل ترغبان في تحويلنا إلى نساء لأننا كرجال لم نعد نصلحُ لشيءٍ.

كان سيسيل ويلسون هو مَن تحدث، الفتى الذي يقول إنه كان ظهيرًا في فريق ويلز القومي للرغبي. يردد عليهن ذلك حدَّ الإنهاك. تؤيِّدُ الذراعان القويتان والحجم الضخم كلامه. لقد تحمَّل بتر ساقيه المزدوج أفضل من الآخرين، ولكن بسبب طبيعته الحيوية، لم يكن من السَّهل السيطرة عليه، وإجباره على المكوث في السَّرير، وأصبحَ يمثِّلُ مشكلة.

اقتربتْ كيت منه:

- ملازم ويلسن! ليست نوايانا تحويلكم إلى أي شيء كان، ننوي مساعدتكم فقط على النهوض في أسرع وقتٍ ممكن.

نظر إليها بعينينِ شبه مطأطِئتينِ:

- دكتورة، هل تقولين «لي»، النهوض مرة أخرى؟ ليست لديَّ ساقانِ، بحق السماء!

خجلت كيت. أحيانًا، مثَّلَ اختيار كلمات مناسبة، كي لا تتسبب في اضطرابهم، أمرًا غايةً في الصعوبة. تسبَّبت في لغط. ولم تحتج إلى أن تلتفت لتعرف بأنَّ النَّقيبَ ألكسندر ينظرُ إليها. ربما هو يتساءلُ الآن مَن بهذا القدر من الحماقة ليقولَ شيئًا كهذا.

تنحنحت كيت.

- أطلب المعذرة، لم أقصد... كان مجرد تعبير مجازي لا أكثر.

- بالتأكيد لم تستخدمي رأسك.

لم تستطع كيت أن تخطئه، وكان عليها أن تهدأ وتتصرف محتفظةً بمسافة.

ولكنه انفجر في الضحك:

- هيا يا دكتورة لا تقلبي وجهك بهذه الطريقة، كنتُ أمزح.

وغمز لها بعينه، ولكن لم يبد عليه التحمس، ولم تكن تلك الضحكة سعيدةً بأي حال من الأحوال:

- بكلِّ الأحوال لا دخلَ لي بالتطريز.

في النهاية، بدأ يتحدث معها... وكانت بدايةً.

سألته: ولم لا؟

- لأنه لا يناسبني.

- كيف ستعرف ذلك إذا لم تجربه؟

اقتربت واحدة من المتطوعات، متفائلةً. كانت ليدي جوديث، أحد الوجوه الأكثر مثابرة في مستشفى شارع إيندل.

- جرِّب يا سيسيل! سترى كم من السلام سيمنحك.

- زوجتي تطرز، أنا لا.

جلست المرأةُ بجواره. ربما كانت في سن جدته، وبحنانِ جدَّة أخذت تنظر إليه.

- وما الأشياء التي تطرزها زوجتك؟

- وكيف لي أن أعرف؟ أشياء نسائية. للطفل الذي على وشك القدوم.

- يا له من خبر رائع! ستصبحُ أبًا. وإذا طرزتَ أنت شيئًا لابنك؟ لديَّ قطعة من الكتَّان يمكن...

- دعيه وشأنه.

التفتتا، كيت وليدي جوديث، وابتسمت العجوز لألكسندر.

- معذرةً، ماذا قلت؟

نهض ألكسندر سايمور، مستندًا على السَّرير. كان أطولَ كثيرًا مما تخيلته كيت، ولكنها المرة الأولى التي تراه فيها غير مستلقٍ. ولم يعد الرجلَ الذي كتب لها كلمات رقيقةً. حينذاك ثمَّنتْ حيويته، ولكنه بدا الآنَ مجرَّد نفْسٍ سمَّمَها البؤسُ والنَّدم.

بصعوبةٍ يقفُ النَّقيبُ ليواجهها؛ بجرأة المبتور المشدود بالضمادات.

- أقول إننا اكتفينا من إزعاجك يا سيدتي. هنا لن يمسك أحدًا بإبرةٍ، أؤكد لك. وفِّري وقتَ حضرتكِ، ووفري علينا عذاب الإصغاء لثرثرتك.

لم تستطع كيت أن تتماسك.

- إذا كان هناك مَن ترغب في أن تصبَّ عليه غضبَك، حضرةَ النَّقيبِ، فهي أنا. أنا التي اتخذت قرار بتر ساقِك.

لم تعرف كيت لماذا قالت هذا. خرجت منها العبارة كالاعتراف. ربما كانت متعبة من الاختباء، من تجنُّب الحقيقة، من الشعور بالذنب على شيء لم يكن خطأها.

وضعت ليدي جوديث يدها على ذراعها.

- اصمدي يا عزيزتي. سأعود على الفور بالدعم.

مكثت كيت بمفردها مع أولئك الرجال الذين ينظرون إليها كالمجنونة، ولم تشك في أنها فعلت شيئًا مجنونًا للتو. إلا أن ألكسندر بدا وكأنه يبحث في ذلك الوجه عن إجابةٍ ما، عن شعور لم يستطع فهمه. عندما فهمه، لحظة اعتراف كيت، تغيرت تعابير وجهه.

- أنتِ! أنتِ التي قررتِ مصيري؟ مجرد...

لم يستطع أن يقول الكلمة: مجرد قابلة!

- أنا طبيبة جرَّاحة.

- كنتِ، حتى الأمس، تحترفين توليد النساء.

اقتربت كيت، وغرست أصبعها في صدره:

- اسمعني جيدًا يا عديم الأدب. بالأمس كنت في صالة العمليات لأكثر من اثنتي عشرة ساعة، مثل كل يوم في الشهور التسعة الأخيرة. لقد حصلت على لقب طبيب في قاعات الجامعة أولًا ثم بين دماء الجنود بعدها. استطعتُ ذلك لأنني أترك أمثالك خلفي وأتقدم نحو الأمام.

واستدارت لترحل ولكنه أمسك بمرفقها.

- أنتِ من بترتْ ساقي لأنَّ غيركِ لم تقوَ على ذلك؟ هل اسمي ثقيل إلى هذا الحد؟

لم يفهم حتى الآن.

- بترتُ ساقكَ لأنني أستطيع ذلك. لأنني قيَّمت الوضع واتخذت القرار الصائب. ولأنك كنت ستموت لو لم أفعل ذلك.

تركها ألكسندر لترحل. بدا فجأة منهكًا. فكرت هي. يائسًا بشدة تحت ثقل الغضب الذي يغلي بداخله. شعرت بأن عليها منحه هدنة.

- جسدك في وضعه الجديد لن يغير حقيقتك.

أهداها في المقابل أكثر ابتسامة تعيسة رأتها في حياتها.

- حقًّا؟ تقولين ذلك عن تجربةٍ؟ لماذا أنت متأكدة إلى هذه الدرجة؟ أم أنَّها الشفقة؟

إذا أرادت أن تساعده، إذا أرادت أن تجذبه خارج البئر السَّوداء التي سقط فيه، لا بد أن تظهر أمامه قاسيةً.

- أنا لا أشعر بأي شفقة تجاهك. أنا طبيبة. أفعل ما هو ضروري.

- ماما؟

شعرت كيت بتنورتها تُشد. كانت ابنتها تنظر إليها بابتسامة متسخة بالشكولاتة. حملتها على الفور بين ذراعيها. محاولتها للظهور بمِهنيةٍ تبخَّرت في الهواء.

- آنَّا، أين مينا؟

- نلعب الغميضة.

أخذت الطفلة تنظر للرجال بفضول، وكانوا يتبادلون معها الفحص بنظرات غير مشجعة بالمرة. رفعت الدمية التي تمسكها بين يديها، وأطلعتهم على الشريط الأحمر المربوط في ذراعها.

- ماما ستصلحكم.

أجابها الجندي المدعو أوليفر بطريقة سيئة وهو ينظر لأمها:

- هنا لا يصلحون شيئًا، هنا يقصون فقط.

غضبت الطفلة:

- أمي ماهرة، وأنت لا تفهم شيئًا.

- أوه، يا لها من صغيرة مغرورة...

أجابتها كيت:

- آنَّا، لا نتحدث بهذه الطريقة، حتى لو كنا غاضبين.

إلاَّ أن انتباه آنَّا تحول إلى الرجل المحني الواقف أمامها. أشارتْ لألكسندر بإصبعها الصغيرة.

- تنقصه ساق!

كتمت كيت صيحة. واعتذرت:

- أنا آسفة.

وخرجت مسرعةً. شعرت بوجهها يشتعل وأعقبتها ضحكة. كان هو يضحك. يضحك عليها، على نفسه، على الحياة. مَن يدري؟ لم يكن مهمًا.

كانت معجزة.

٤٦

مسرح كريتريون، لندن

على مبعدةِ بضع دقائق من بيكاديللي سيركس، يزدحم مسرح كريتريون، وهو الأمر الذي لم يحدث منذ أكثر من عام. قُدمت عليه بعض العروض، ولكن الحرب في شهورها الأولى أخمدت الحماس والموارد، فأفقرت المكان. إلاَّ أن الخريفَ يبدو واعدًا بثمار غنية.

ملأ إرنست ثيسيجر صدره بالهواء العبق، برائحة بودرة الوجه والزيوت التي تنتشر في كواليس المسرح. لُوِّنت الخلفية من جديد. تَمُرُّ الخيَّاطة، ومعها مساعدتان، من غرفة لأخرى، على أذرعهنَّ أكوام من القماش المُخملي وأوشحةٌ حريرية، وشرائطُ لأخذ المقاس ملفوفةً حول الرقبة. ما زالت أمامهم بضعة أسابيع على الافتتاح، ولكن العمل محموم، يعملون على تلميع شُرف ورخام صالة المسرح.

- ما الذي تعده حاليًا؟

سأله ذلك الصباح أحد أصدقائه الصحفيين، أثناء غدائهم المتأخر المعتاد.

لم تكن قد حانت بعدُ لحظة التصريح القوي.

أجابه إرنست: زلة اللسان.

وتركه متعطشًا للأخبار: زلة اللسان العزيزة القديمة.

تعِد مسرحية (A Little But of Fluff) بالنجاح، وبأن تصبح انطلاقة مشواره الفني، وتصنعَ منه ممثلًا مشهورًا، لا موهوبًا فقط. أدرك إرنست ذلك من الطريقة التي يستقبلها بها «الكومبارس» والموسيقيون، والملقِّنون، ومساعدو مشاهد الدعابات، ومن لغة جسد الممثلين، ومن سلاسة القصة التي تبدو وكأنها تلغي الزمن.

سحر، تفاعل، نادرًا ما يراهما يحدثان أمامه.

كان يدرب صوته، وهو يجرب الدعابات ببعض النبرات المختلفة، عندما طرقَ أحدهم باب غرفته الصغيرة.

أدخل تومي، عامل الاكسسوار الصغير، رأسه من الباب. كان للفتى شنبٌ أسودُ مستعار.

- سيِّد ثيسيجر! هناك ثلاث سيدات يبحثن عنك.

- ثلاث؟ هل أحصيتهن جيدًا؟

- أجل يا سيدي!

- لتدخلهن إذن! لا تُترك السيداتُ منتظراتٍ، أبدًا.

ضبط إرنست وشاحه، وفرش روب النوم الذي كان يرتديه، وأدار مقعده بحيث يُظهر أفضل بروفايل لديه.

لم يكنَّ ثلاثًا، بل أربع سيِّداتٍ. لم يكن تومي يعرف العد ولا الكتابة، ولكنه كان بارعًا في العثور على الأشياء الصغيرة التي يحتاجها المشهد،

حتى الأصغر منها، ولكن أيضًا تلك المنسيَّة في الصناديق المرصوصة على الأرفف التي لا يمكن الوصول إليها. فأرُ مسرح، سريع وذكي.

نهض إرنست، وهو يحرك الروب في إيماءة مدروسة. كان يعرف الزائرات. حيَّاهنَّ بلطف مخلص، وبإيماءة.

كُنَّ من السفرغيت. انضمَّ إرنست لرابطة الرجال لدعم نساء، السفرغيت، وأثناء مظاهرات ١٩٠٩ سار معهنَّ في شوارع لندن، وتلكما اليدان الرقيقتان، في قُفاز من الدَّانيلا، ألقتا بلا تردد الحجارةَ والعصي يومذاك.

بعد التحيات، والذكريات المتبادَلة سريعًا، سألهنَّ إرنست عن سبب حضورهن إلى لكريتريون.

تظاهرت ليدي جوديث، أكبرهنَّ سنًّا، وأيضًا أكثرهن حيويةً، تظاهرت بأنها تصفعه على يده.

- إرنست، هل تتظاهر بأنك لم تتلقَّ الخطاب؟

- الخطاب؟

- أجل يا عزيزي. الخطاب الذي طلبنا فيه مساعدتك.

- لقد تلقيت خطابًا في الحقيقة. كان مُوَقَّعًا من... لا أتذكر.

أمسكته ليدي جوديث من ذراعه:

- من السيدة إليزابيث روبنز، ودكتورة كيت هيل، ومني. أنت لم تتغير ولذلك نحبك. نحتاج إلى فنِّك الرائع يا إرنست، في مستشفى شارع إيندل، ومستشفيات أخرى.

- أوه، أجل. أتذكر الآنَ. لكي أعلِّمَ الجنودَ الجرحى المسرحَ.

- ليس فقط المسرح.

- آه، فعلًا؟

- نحن لسنا هنا فقط من أجل موهبتك الرائعة بالتأكيد كممثل. ولكننا مؤخرًا فكرنا في إضافة نشاط يمكن للعديد من الرجال المعوَّقين والمجبَرين على المكوثِ في أَسِرَّتهم إنجازه بسهولة.

- وهو؟

- التطريز بطبيعة الحال!

أشارتْ ليدي جوديث للغرفة الصغيرة بإيماءة أنيقة من ذراعها. المقعد، و«الشازلونغ»، الطاولة من خشب الجوز الصغيرة، موضوع عليها نماذج للغرز الصغيرة الرائعة.

اعترف إرنست أنه فوجئ.

- كنت أتوقع كلَّ شيء سِوى هذا. يا للجرأة سيِّداتي! جنود يطرِّزون! هل ترغبنَ في إخضاعهم لرغباتكنَّ الأكثر خبثًا.

أضحكهنَّ، واحمرَّتْ وجوههنَّ. عدلت ليدي جوديث غطاء قبعتها.

- إننا نجلب تلك الوسيلة لقضاء الوقت إلى مختلف مستشفيات إنكلترا. والاسبوع القادم سيكون دور مستشفى شارع إيندل يا إرنست. إذا كان يمكنك فقط الانضمام إلينا وطمأنة أولئك الرجال...

- أطمئنهم على ماذا بالتحديد؟

- على خصائصهم الذكورية. يخشونَ فقدانها. يبدو أنهم يعدون التطريزَ نشاطَ إخصاء.

٤٧

لندن، مستشفى شارع إيندل العسكري

تحلَّقوا دائرةً من الرجال حول سرير أندرو، كما كان يحدث في الجبهة، عندما يجتمع ألكسندر والرجال حول شعلات التدفئة، في الساعات التي تصمت فيها المدافع. النيران الآن هي تلك المشتعلة في الأجساد.

لم يكن أمامهم سوى أنفسهم للتقدم للأمام، ولا أحد سواهم. ربما انتهت أيام الدم والمعارك في الوحول، ولكن بدأت للتو معارك البقاء على قيد الحياة.

جلس ألكسندر على السَّرير. ساقه تنبض، ربما لم يكن عليه حتى أن ينهض، ولكن كان أندرو تائهًا، ويجب عليه أن يحاول استعادته مرة أخرى. ليس للصبي الذي كان عليه، ولكن إلى ذلك الرجل الذي عليه أن يكونه من الآن فصاعدًا. لقد فقد صمويل بالفعل، ولن يقبل أن يترك خلفه واحدًا آخر منهم. علق الصليب على عنقه. كان يتدلى على صدره مع هُويته المعدنية. كل خفقةٍ منه تذكره بصديقه.

منذ أن وصلوا مستشفى شارع إيندل لم يتفوه أندرو بكلمةٍ واحدة.

تمر لياليه في أرق يشوبه الارتجاف والأنين، بينما الصباح في عذاب ساكن. لمس ظهره، وشعر بتيبس عضلاته المشدودة، قشرة لا يمكنها حمايته في كل الأحوال. ممَّ لا يزال منكمشًا كالطفل يدافع عن نفسه، ما الذي استمرت عيناه في رؤيته، والتي يغلقها تقريبًا طوال الوقت، وماذا يا ترى تسمعُ أذناه عندما يسدهما يائسًا؟

- أندرو، انظر إليَّ.

عاد ليرتجف مرة أخرى.

- لن نتركك وحدك. نحن جميعًا هنا. سيسيل وأوليفر أيضًا هنا.

قال سيسيل: قِطَعًا منا، ولكننا هنا، لا بد وأن ترى أوليفر وهو يدخن بيده اليسرى.

- ماذا لديك لتقوله عن طريقة تدخيني؟

- تبدو كزير نساء مسنٍّ من الطريقة التي تحرك بها يدك. على كل حال هي كل ما تبقى له، يا أندرو. التفت، هيا.

يعطيهم أندرو ظهره، يهمس:

- إنهم يصرخون، ليلًا ونهارًا، في رأسي. على الرغم من أنني رأيتهم يموتون. كل ذلك الدم. ما زلت أشمُّ الدم حتى الآن. لا أستطيع التحمل أكثر من ذلك.

كان يتحدث عن الموتى وكأنهم سيصلون إليه، وسيجذبونه معهم إلى أسافل الأرض.

حاول ألكسندر أن يُدير وجهه، ولكن غرسَ أندرو وجهه في وسادته.

قال له:

- يحدث هذا لنا نحن أيضًا، مع ما سلبونا إياه. أنا ما زلت أشعر بساقي. طلب أوليفر من إحدى الممرضات أن تحك له ذراعه المبتورة، عندما أفاق من البنج.

أكد صديقه على ذلك.

- كان الحرقان غير محتمل.

- والأمر نفسه حدث لسيسيل مع ساقيه.

- كنت مستعدًّا لأن أقسم بأنني أشعر بثقل الأغطية على الجرح. والحرارة والبرودة. إلاَّ أن شيئًا لم يكن هناك، تحت الأغطية.

نظر ألكسندر عبر النافذة. يبدو له أنه هكذا يُحرر كلماته، ويمنح لتلك النفس المتألمة بعض الصدق. لم تعد المواساة تنتمي إلى عالمهم الآن.

- ربما هي الطريقة التي نتماسك بها لمواجهة ما فقدناه. لنخدع أنفسنا، على الرغم من المعاناة، بأننا ما زلنا هنا. نشعر من خلال شك الدبابيس بالألم، وهو أفضل من اللاَّشيء، من فقدان الأوتار والعضلات.

نظر إلى مكان ساقه المبتورة، لم يفعل ذلك من قبل، كان يتجاهله مثلما يتجاهل صديق لا يستطيع هزيمته. اختار أبوه الطريقة نفسها، عندما أتى لزيارته، يحمل في طيات نفسه خجلًا مزعجًا يصعُب الاعتراف به. ارتعش ألكسندر عندما تذكر هذا. الإحباط والإهانة ما زالا ينبضان مكانَ الطرف المبتور. إنَّه في استشفاء عبر الألم، ولا توجد إمكانية شفاء دون مواجهة الحقيقة.

فهو لا يريد أن يصبح مثل أبيه. الآنَ تحديدًا، لن يمكنَه ترك نفسه فريسةً للخوف. يدين بهذا لصمويل، الذي لم يحظَ حتى بفرصةٍ كهذه.

مكان البتر لم يعد بشعًا إلى هذه الدرجة. لمسه بيده، لمسة خفيفة، وجيزة جدًّا. ضمادات ملفوفة، شيء تافه جدًّا، ومأساوي للغاية. مرَّرَ راحة يده عليه. باقتناعٍ أكبر لم يعد يؤلم، ليس كثيرًا.

هل كان بشعًا عند رؤيته؟ لا.

هل يحوله إلى وحش؟ ليس أكثر من أشخاص بأجسادٍ كاملة، عرفهم ألكسندر في حياته.

كان معوقًا، ولكنه لن يظل كذلك طويلًا. أقسم بهذا لنفسه في تلك اللحظة.

رفع نظرته إلى الآخرين.

- ما زلنا أحياء. وسنستمر في حياتنا بطريقة أو بأخرى. ولن نعاني مثل النفايات، بل سنعيش كالرِّجال.

بحث أندرو عن يده على المُلاءة، وأمسكها وشد عليها بقوة غير متوقَّعة.

رد ألكسندر بقبضة مماثلة.

- عُد إلينا يا أندرو، وأنا أعدك أن الصَّرخات التي تسمعها ستصمتْ.

٤٨

تمرُّ الأيام، وكل يوم مختلف تمامًا عن سواه في مستشفى شارع إيندل.

لم يتوقف تدفق الجرحى، نزيف يجفف الأعداء والحلفاء من دماء جيلٍ بأكمله. في الأجنحة استمرت الكتب والأشياء تتطاير، والتي يلقي بها الرجال تعبيرًا عن اعتراضهم على مصير كاد يقتلهم أولاً؛ ثم سلمهم إلى أيادٍ وعقولٍ ضعيفة للغاية. عمومًا، كانت الاعتراضات تأتي من قِبل الوافدين الجدد، فقط، وفي حالات نادرة. ببطءٍ، مع بعض الدموع، يتغيَّر شيءٌ ما. ترى كيت التغير منعكسًا في أعيُن الجنود. ينظرون إليها باحترام أكبر، يشوبه الإحراج، أمَّا الرَّفض العنيف والأعمى فقد اختفى.

يصل الجرحى من جميع أنحاء الكومنولث، واللهجات المختلفة تعني خبراتٍ مختلفةً أيضًا، وقد كان هذا يساعد قضية النساء. لا يقلق الأستراليون عندما يصلون إلى مستشفى إدارته نسائية بالكامل. في بلادهم تعمل النساء طبيبات منذ زمن؛ فلا يظهرون سوى الامتنان. كان هذا السلوك يعلِّم أيضًا الآخرين، يطمئنهم أيضًا، ويحرجهم في بعض الأحيان. كان الجنديُّ منهم يلوم زميلاً إنكليزيًّا لأنه تحدث مع كيت أو واحدةٍ من رفيقاتها بطريقة رآها خالية من الاحترام.

أصبحَ، ذلك العالم الذكوري، يتخذ أشكالًا جديدة. واقتنعتْ كيت بذلك، أكثر، عندما دخلت إلى القاعة التي يستخدمونها لتخفيف آثار صدمة نقص حجم الدم. المرضى الذين تعرضوا لنزيف حاد يُغمرون في أحواض استحمام مُلئتْ بماء ساخن، بحيث يتوزع حجم الدم في الأوعية الدموية بطريقة مناسبة. عادة ما كانت تتم عملية الاغتسال تلك بمجهودات كثيرة من قِبل النساء المجبَرات على جلسات لا تنتهي لإقناع المرضى الرافضين للتعري على التجرُّد من ملابسهم، ولكن منذ فترة أصبح ذلك يحدث بطريقة مسالمة؛ وبهدوء إلى حد أنه يمكن سماع موسيقى الجرامافون في الخلفية.

فكرت كيت، أخيرًا انتهى الجنس من قاموسهم بالكامل، حيث كان ما يحدث تقريبًا في البداية أنهم كانوا ينظرون إليهنَّ فقط على أساسه ولا شيء آخر، فهنَّ مجرد نساء، بما تحتويه الكلمة من إجبار ومنع وإخضاع لآلاف السنين، حالة وراثية للإقصاء.

بين أبخرة وأواني الأعشاب الطبية، تتحرك كيت الآن بحرية أكبر لمراقبة عمل المتطوعات. فقد وصلت إلى مستشفى شارع إيندل طبيبات وممرضات جديداتٍ، ليس فقط من بريطانيا العظمى، بل وأيضًا من أستراليا ونيوزيلندا، لإحلالهنَّ محلَّ من سرَّحتهن فلورا ولويزا. بالنسبة لدكتورة موراي كان الأمر بسيطًا: إذا استطعت تحمل العمل تمكثين، إذا لم تستطيعي، ترحلين. تقول هذا لجميعهن منذ اليوم الأول للعمل، وتستمر في ترديده من حين لآخر، بحيث لا تنساه إحداهن. لم يكن تهديدًا، بل مسؤولية مشتركة. أي فشل سيُستخدم ذريعة لإعادة وضع المرأة إلى ما كانت عليه في القرن الماضي.

تتمرن الطبيبات والممرضات في أزواج، لأن التضامن في الجناح يفوز عادةً. فكل منهما مقدَّر لها معارف جوهرية، ولا بد من التعلم خلال الحركة بتناغم.

اثنتان منهما كانتا في مشكلة، فهما لا تستطيعان إخراج مريض من الماء. عندما رأت كيت الرجل فهمت المشكلة. يبدو النَّقيبُ سايمور مخيفًا حتى وهو صامت، وهو يصمت طوال الوقت تقريبًا. تسميه أولغا «الجنرال»، حتى عندما تتحدث معه. لم تنجح، قطُّ، في رسم ابتسامةٍ على وجهه. الضحكة التي سمعتها منذ بضعة أيام بدت وكأنها من قرنٍ مضى، أو في حلم ما. منذ التصادم الذي تحدى فيه كلًّا منهما الآخر، لم يتحدثا بعدها. عادت كيت لتكشف عليه، وأشرفت على أدويته وساعدت الممرضات في شدِّ الضمادات بحيث يعطون البتر الشكل القُمعي الصحيح المناسب للطرف الصناعي المستقبلي.

لم يطرح عليها أي سؤال ولم يطلب رؤية الجرح قطُّ. ينظر إلى كيت دون أن يفتح فمه، حتى الآن؛ وهي لا تعرف كيف تفسر ذلك الإصرار الصامت، وما إذا كان عليها الإعداد لمعركة قادمة. لم يكن عدوانيًّا، ولكنه ليس مستسلمًا أيضًا. كان صعبَ المِراس.

إذا أراد الخروج من ذلك الحوض، في كل الأحوال، فينبغي عليه التعاون.

جثت بجوار طرف الحوض، حيث الطرف المُصاب كان لحسن الحظ مستندًا على قماش جاف، وطلبت من الممرضة أن تقرب الكرسي المتحرك. رفعت عينها عن جسده. لم تكن ترغب في رؤيته ضعيفًا إلى هذا

الحدِّ، بلا أنفاس ويتصبب عرقًا بسبب كل تلك المحاولات الفاشلة. ولكنه لم يكن كذلك، لم يكن منهزمًا.

قالت، لتنزع الحرج الذي يشعر به حتمًا: امرأةٌ بوسعها أن ترفع رجُلًا، أليس هذا عجيبًا؟ يكفي استخدام ذراعين وساقين من أجل نظام الرفع.

توقعت دعابةً عن ماذا تعرف هي عن الرافعات، ولكنه لم يقل شيئًا. أخذت ذراعه ولفته حول كتفيها.

- اضغط، بلا خوف.

- أنا لست خائفًا.

ثلاث كلمات، بدت أشبهَ بالانتصار.

- لقد فعلنا ذلك من قبلُ، أيُّها النَّقيبُ، هل تتذكر. بساحة المعركة في الفلاندرز.

بدا لكيت أنها تعود إلى تلك اللحظة. كادت تشم تلك الرائحة بدلًا من روائح الأعشاب والصابون. تلاقت نظراتهما وفهمت أن ذلك ما حدث له هو أيضًا. فقد خرجا معًا من ساحة الموت والنيران تلك، ماذا الذي يمكن أن يكون أصعب من ذلك؟ لا شيء.

- يومذاك، كان ثمَّة حصان، على ما أتذكر.

ضحكت كيت.

- تتذكر جيدًا، ولكنك كنت فاقدَ الوعي، تقريبًا. الآن أنت في كامل قواك. سأسندك ولن أدعك تسقط.

- لن تجرئي، أحذرك.

- سأعد حتى ثلاثة، ثبت قدمك على القاع، واستخدم ذراعك الأخرى، وارفع نفسك. واحد، اثنان، ثلاثة.

أجلسته على حافة الحوض. لفته الممرضة بمنشفة ساخنة وجففته كيت، وهي تدعك بقوة.

سألها هو: وماذا يا ترى حدث لذلك الحصان.

- يتمتع براحة استحقها في حظيرة السيِّد برنارد في ويميرو. لم يرغب الجيش في استعادته. قالوا إن الصدمة جعلته غير موثوق فيه، لقد جُنَّ، ولكننا نعرف أن هذا ليس حقيقيًّا.

- لا بد أنه كان مجنونًا بعض الشيء ليجري بين النيران والقذائف، مثلك تمامًا؛ أنتِ من دفعه إلى ذلك.

مررت كيت المنشفة للممرضة ولفته بأخرى جافة واهتمت بالجرح.

سألته: لماذا عندما يفعل رجل شيئًا خطيرًا وبائسًا يُقال عنه بطل، وعندما تفعل امرأة الشيء نفسه يقولون إنها مجنونة؟

صمتَ للحظةٍ...

- لم أرغب في إهانتك.

- لم تفقد وزنًا عضليًّا، وهذا خبر رائع. مع بعض الممارسة سيمكنك القيام بتلك الحركات بمفردك.

- نظرتِ إليَّ إذن.

حاولت كيت التركيز على الشاش الذي كانت تفكه.

- أنظر إلى كلِّ مرضاي، وكأنهم أولادي.

- شيء مطمئن وأنا أسمعك تقولين هذا. أحيانًا يكون الخجل شديدًا.

لم يكن يتحدث فقط عن نفسه، ولكن عن جميع الرجال الذين يشعرون بأنهم تعروا فجأة وظهروا بكامل هشاشتهم.

- لا يجب أن تشعر بالخجل. لا يوجد شيء لم أره من قبل، لا فيما يخص الجرح، ولا فيما يخص الجسد العاري.

- وما رأيْ زوجك في هذا؟

توقفت كيت.

- إنها المرة الثانية التي تسألني فيها عن رأيْ زوجي فيما أفعله. دعني أقول لك إن أي رأيْ مغاير سيكون بالنسبة لي بلا أهمية. فأنا أقرر لنفسي ما أفعله.

نظرتْ إليه، وأدركت أنه يلاعبها. فكان مبتسمًا.

شعرت بوجهها يضجُّ حُمرةً.

- وجنتاك تشتعلان بسهولة يا دكتورة هيل.

- هذا بسبب كل هذا البخار.

طيبت كيت الجرح، دون أن تضيف كلمة أخرى، وربطته بقوة وهي تُطلع المتدربة كيف تُشكل الجزء المتبقي من الفخذ. وكل تلك الفترة لم تر سوى يديه المتشبثة بحافة الحوض وكأنه هاوية. يدان قويتان، معتنىً

بهما على الرغم مما يعبرها من خدوش. يدان عليها من الآن فصاعدًا أن تخترعَ لهما دورًا جديدًا.

أشارت كيت للممرضة، التي أتت نحوها مسرعة ومعها عكازين.

- عليك أن تتعلم التعامل معهما بالطريقة الصحيحة.

نظر إليهما وكأنهما شتائمُ على جدار كنيسة.

- كنت أعتقد أنه لا توجد سوى طريقة واحدة لاستخدامهما.

ولم يحاول الامساك بهما. كررت كيت الإيماءة:

- هيا، تناولهما.

- واحدة تكفي.

وكأنها تكفي لإصلاح العطب. ولكن العطب لا سبيل لإصلاحه. عندما يخرج من مستشفى شارع إيندل سينبغي على ألكسندر أن يُظهر شخصيته الجديدةَ، سواء كان راضيًا عنها أم لا.

- حضرةَ النَّقيبِ! ستبذل مجهودًا أكبر بعكاز واحدةٍ، ولن يتوازن الثقل.

- سأجعلها كافيةً.

كان عنيدًا، نهضتْ كيت.

- سأطلب مَن يساعدك.

- ساعديني أنت. أم تفضلينَ الهروب؟

- ما هذا الهُراء.

قامتْ هي بدور العكاز الأُخرى. على امتداد الممر، ومع كلِّ خطوة،

تصطدمُ هُويَّته المعدنية بصليبه الخشبيِّ، كقلبٍ ثانٍ، ويلامسان وجنتها. لن يعودَ النَّقيبُ إلى الجبهة مرةً أخرى، سيُسرَّح قريبًا. تساءلت إذا ما كان سيخلع هُويَّته المعدنية تلك. سيشعر بالحرية حين يكون شخصًا آخرَ، غير ذلك الجندي.

لم يكونا مختلفين تمامًا، هما الاثنان، تشعر كيت أحيانًا بأنَّها على وشك أن تغيبَ عن الوعي إذا ما واجهتْ مجتمعًا يرسم النساء بأناقة، نحيفاتٍ وشاحبات. هو أيضًا مثلها، لا بد أن يجد لنفسه صورةً مختلفة عن تلك التي يعدها الجميع مثاليةً للرَّجُل.

عندما دخلا إلى الحجرة، توقفت الحوارات.

لم يكن رفاق القائد بمفردهم. كانت إليزابيث روبنز معهم. وبدا على السيدة أنها فهمت بنظرة واقعية المعجزة الصغيرة التي حصلتْ. ابتسمت لكيت، بشيءٍ من الخبث، وأعادت الانتباه إلى أوليفر الذي كان يملي خطابًا لوالديه.

- ألا تريد أن تضيف فقرة وجيزة عن العمل الرائع للنساء، في مستشفى شارع إيندل، يا أوليفر؟ هلاَّ أضفنا ذلك!

تُحضر إليزابيث للأجنحة الكتب من المكتبة، ومع الكتب يسودُ الشعور بالأجواء الطبيعية. عادةً تمكث بعض الوقت لتتحدث معهم عن المسرح والموسيقى والأدب. كانت كاتبةً أيضًا. وبالاشتراك مع المتطوعات الأُخريات، تساعدهم على كتابة خطاباتٍ أطول قليلًا من تلك الأسطُر القليلة الشَّحيحة التي يمليها المرضى، خجلًا أو لنقصٍ تدريبهم على التعبير عن مشاعرهم. وكونها ناشطة محنكة فهي تحثهم دائمًا

على وضع فكرة أو اثنتين عن المساواة بين الرجل والمرأة وحول أهمية منح النساء حقَّ التصويت. كانت عذوبتُها تغلبُ كلَّ مقاومة.

القراءة والتدريب على الكتابة حسَّنا بوضوحٍ القدرة الحوارية والتعبيرية للعديد منهم. فإذا ألقتْ بهم الحرب نفاياتٍ، فإنَّ نساء مستشفى شارع إيندل سيُرسلنهم إلى العالم رجالًا أفضلَ مما كانوا عليه عندما دخلوا المستشفى أوَّلَ مرَّةٍ.

صحبت كيت ألكسندر إلى سريرهِ. ترك نفسه ليسقط منهكًا.

طمأنته: لن يكون الوضع متعبًا إلى الأبد. ستعتاد على ذلك. سيعتاد جسدك أن يتعامل مع التوازن الجديد.

نظر إليها ألكسندر بجدية.

- هل تسألين نفسك إذا كان ذهني أيضًا سيقبله.

وضعت له العكازين بجوار السَّرير:

- أعتقد أنه يقوم بذلك فعلاً يا ألكسندر.

اهتمت كيت بالمرضى الآخرين. كانت سعيدة لرؤية آندرو الشاب وهو يتحسن من يوم لآخر. يتحدث كلمات قليلة، ولكن الكوابيسَ الليليةَ اختفت تقريبًا، بينما بدأت شهيته تعود، حتى وإن كانت مثل شهية عصفور. يرسم مناظرَ طبيعية رائعة، تسكنها حيوانات مُتخيَّلة، ويرسم بكل سرور إليزابيث وليدي جوديث على شكل حُوريات. عندما لا يمسك بقلم، يلتهم الكتب. يبدو أنه يجد السلام الذي يحتاجه في القصص. جروحه كلها كانت غير مرئية، ولكنها بدأت تلتئم ببطء.

عندما جاء دور سيسيل، لاحظتْ كيت أن الفتى يلتزم بوضع جانبيٍّ

معين. نجحت عملية البتر المزدوج بجدارة، إلى حد أن استعادته لصحته السريعة أدهشت كلَّ الطبيبات. إلاَّ أن شيئًا ما يضايقه.

- هل تشعر بألمٍ يا سيسيل؟

- لا.

قلبته كيت على ظهره، فخرجت منه أَنَّة.

- يبدو لي العكس.

- ليس شيئًا مهمًّا.

- أنا متأكدة، ولكن أخبِرْني.

- لا، لا!

أعادته على جنبه.

- أين تشعر بالألم؟

لم يجبها سيسيل ولكن أشار لها بيده.

أنزلت كيت بعض الشيء السروال ولباسه الداخلي. رأت أحد ردفيه متورمًا، أحمرَ ومنتفخًا. كانت هناك إبرةُ تطريز مغروسة تحت جلده في هذه المنطقة، إبرةٌ بها خيط، خيط تطريز.

دُهشت، فتحت فمها لتسأله كيف حدث هذا، ولكن أدركت بأنها تعرف الإجابةَ. لم تقل أيَّ شيء. فعلتْ الضروري، نزعتها وعقمت مكانها. لا بد أن سيسيل حاول بلا فائدة نزعها بمفرده، وبالتأكيد لم يستطع أن يطلب مساعدة أي من رفاقه.

- لا شيء خطير يا سيسيل، الآن ستصبح أفضل.

تمتم هو شكرًا وظهره لها، بينما كانت أذناه محمرَّتين وكأنهما جمرةٌ متقدة. في تلك اللحظة نادت غريس كيت من الباب.

- تعالي بسرعة! لقد وصل إرنست ثيسيجر، الممثل.

٤٩

ممثلٌ في شارع إيندل! شاعَ النبأ من حجرةٍ لأخرى، مضفيًا الحماس على رتابة الروتين اليومي. رآه ألكسندر وأوليفر من نافذة الطابق الأول وهو يترجل من السيارة. حتَّى أن أندرو بدا متأثرًا. ترك الرواية التي كان يقرأها، ونظر إليهما مترقبًا الأخبار.

ينفض أوليفر رماد سيجارته، التي أفلتتْ من بين إصبعيه، فيسقط إلى أسفل، حيث سلالم المدخل. شاهدته أولغا وتوعَّدته بنظرةٍ. فأرسل لها قبلةً.

قال لها: تلك اليد لا تريد أن تتعلم.

أشارت له أن يصمت.

ومن على سريرهِ سأله سيسيل كيف يبدو الممثل.

- لديه سائق خاصٌّ. لا بد أنه مهم. أو يهتم بالمظاهر جدًّا.

- أجل، ولكن كيف هو؟

- يبدو لي أنيقًا، ولكنني لا أفهم في هذه الأشياء. ولماذا يهمك؟

عقد سيسيل ذراعيه خلف رأسه، وحدَّق في السقف:

- زوجتي تتحدث دائمًا عن الممثلين.

وثب ألكسندر إلى سريرهِ. بقيت العكاز حيث تركتها الطبيبة. عندما جلس أخيرًا كانت ضربات الألم متتابعة.

سأله: منذ متى لم ترها؟

- شهور. قال لها الطبيب إنها لا يجب أن تقوم بأي رحلة على القطار قبل الولادة بأسابيع قليلة. هذا أفضل. فأنا لم أعد الشخص الذي تعرفه.

فكَّر ألكسندر في كارولين. فلا ظلَّ هو الخطيب الذي ودعته عندما التحقَ بالجبهة، كما أنَّه يشك بكونه الشخصَ نفسه حتى قبل أن يصبح معاقًا.

- لا بد أن تراها إن آجلًا أم عاجلًا، ولن تنمو لك ساقٌ في تلك الفترة.

- كتبت لي أن هذا لا يهمها. تريدني أن أعود حتى ولو نصفي فقط. هكذا كتبت لي. ولكن الأمر يهمني أنا.

ابتعد أوليفر أيضًا عن النافذة.

- الحرب مستمرة بدوننا. لا يريدوننا هناك، ولن يريدوننا في أي مكان آخر. وقريبًا لن يريدوننا هنا أيضًا. لا يعرفون ماذا يفعلون بجنود لا يصلحون للقتال، ولا برجال لا يستطيعون العمل. هنا ما زالوا ينادوننا بألقابنا، ولكنهم يعرفون جيدًا أين وضعوها لنا.

من الممر تصل ثرثرات متحمسة، وأضواء فلاش تصوير. فالممثل

يتبعه بعض الصحفيين. تَسبَّب ذلك الصخب في توتر أندرو إلى حد أن أوليفر اضطر لتهدئته وتطويقه بذراعه السليمة.

يدور ثيسيجر على الأجنحة. جاءت أولغا لتخبرهم بأن يجهزوا.

- هيا صففوا شعوركم واعقدوا أزرار سُترات مناماتكم. أيُّها النَّقيبُ، بحقِّ السماء، على الأقل حضرتك، كُن القدوة!

- ألم أعد الجنرال بالنسبة إليك يا أولغا؟

- لتكن ما تريد! هيا اعقدوا تلك الأزرار. ألم يعد أحدٌ يَحلِق هنا؟

غمز لها أوليفر بعينه:

- أحتاج لمساعدة مع السُّترة.

لبَّت طلبه، وعقدت الأزرار بسرعة، ثم قالتْ له:

- عرفت رجُلًا كان يستطيع أن يربطها بقدميه، أيها الملازم.

- هذا ما كان يفعله بقدميه فقط؟

ردت عليه بابتسامةٍ حادة.

- تذكَّر بأنني أنا من تعطيك الحقن الخطيرة، تذكَّر ذلك!

- يمكنني أن أتزوجك يا أولغا.

- ويمكنني أيضًا أن أرسلكَ إلى الجحيم.

رفع أوليفر ذراعه المبتورة.

- لقد كنت هناك بالفعل يا عزيزتي. وأكلتْ مني جزءًا.

- ولكن لم يأكلْ أحدهم لسانك قطُّ. والآن اضبط نفسك وإلاَّ سيكون حسابك معي عسيرًا.

لدى أولغا القدرة على تحويلهم إلى أطفال، وكانتْ تلك القدرة مُنقذةً لعقولهم. أحيانًا يحتاجون إليها لتسليم الأسلحة المُشهرة ضد الحياة وضد الموت، وأن يتركوا للآخر قيادة خطاهم، وجمع شتاتهم، وإخبارهم بما ينبغي عليهم فعله.

من جهة أخرى، فإنَّ نساء مستشفى شارع إيندل يعرُّونهم بالفعل، ويُغسِّلونهم ويطعمونهم. كأنهم أطفالٌ. الكلمة نفسها التي قالتها دكتورة كيت هيل. إلاَّ أن المجهود الذي شعر بها تبذله لتتنفس بينما تقف أمامه، يقولُ شيئًا آخر، ليست مجرد عناية مخصَّصة للطفولة. ولكن ربما كان هذا ما توهَّمه هو، مجرد سرابٍ تراءى له بفعل مشاعره، مشاعر شخص يعاني من التهيُّؤاتِ.

أخيرًا، وصل الممثل جناحهم، وفكر ألكسندر أن الحجرة امتلأت بكيمياء خشبة المسرح. شخص يثقُ في نفسه، يتحكم كُلِّيًّا بأي إيماءة مهما كانت طفيفة، كان إرنست ثيسيجر رشيقًا ونحيفًا وأنيقًا. لا بد وأنه يكبر ألكسندر ببضعة أعوام، ولكن من الصعب بالنظر إلى وجهه تقدير سنه. أنف رفيعٌ حاد، عينان كبيرتان زرقاوان، مألوفتانِ ظاهريًّا مثل عينيْ قط سمين. البشرة اللامعة تقدم شخصًا يقدر الجمال، يحب الجمال حتى أنه يصنع من نفسه عملًا فنيًّا. كان أوسكار وايلد سيؤيده. يرتدي بذلة لونها أحمرُ أرجواني، ذات إضافات من الحرير، والمعطف ملقىً على إحدى كتفيه، ويداه في قفازٍ من الأزرق الياقوتي.

تصحبه السيدات المتطوعات اللاتي حاولنَ دفعَ ألكسندر والآخرين إلى تجربة التطريز. قدمته ليدي جوديث، أكبرهنَّ سنًا، بكل الألقاب

التشريفية المناسبة. مع كل صفة مغالى فيها، يشير ثيسيجر بيديه رافضًا، ليصحبَ اعتراضه هذا بابتسامة امتنان. يبدو مخلصًا، وعندما ينظر إلى المرأة فهو ينظر إليها بمحبة.

يراقبه ألكسندر بفضول. أرادَ أن يرى بالفعل ماذا لدى الممثل ليقدمه لهم، لأنه بالتأكيد لم يكن موجودًا لزيارة شرفية. فقد تعلم أن يعرف ولو قليلًا ليدي جوديث ومَن تحميهن في تلك الأيام، وكانت لديهنَّ خطةٌ مُعدة بالتفاصيل الدقيقة، هجوم لا يمكن التهاون به.

وبعد أن انتهت المرأة من المديح، تركت الكلمة للضيف.

احتلَّ ثيسيجر المشهد. طوى بلا عناية المعطف على ذراعه ودار بين الأَسِرَّة ينظر لكل منهم كأنه يعرفه بحميمية:

- أعزائي جدًّا، لقد أعطيتم الكثير لهذا البلد، إلى حد أن كلمة تضحية تجسدت عليكم. الآن حان وقت شفاء الجروح الأكثر عمقًا، تلك التي لا يمكن للعين أن تراها.

سأله أوليفر: هل أجد معك سيجارةً؟

التفت ثيسيجر، ربما استطاع بنظرة سريعة أن يقيِّم الرجل الذي يجذبه من على خشبة المسرح.

- بالتأكيد.

أخرج علبة سجائر فضية من الجيب الداخلي لسترته، فتحها بإيماءة انسيابية وقدم له محتواها.

لم ينتظر أوليفر أي مجاملات وأخذ سيجارتين، ثم ثالثة. مررها أسفل أنفه واستنشق عبق التبغ.

وقال ببطء:

- لا أثق بمن يمتهنون التمثيل.

- ولماذا؟

- لأنهم يميلون للتمثيل خارج المسرح أيضًا.

جلسَ ثيسيجر على حافة سريرهِ، حلَّ أزرار سُترته ورتبها خلفه.

- يجب أن أؤيدك، ولكن من بين كل الخطايا ليست هذه الأسوأ، أليس كذلك؟ ثمَّةَ في الأمر بعض الخُيلاء، بحسب الظروف. وبعض الرفاهية كذلك، كلها منصبة عليهم أنفسهم. ولكن، على كل الأحوال، لا تخلط ذلك بالكذب.

- آه، فعلًا؟

- لا. لا يوجد شخص أكثر إخلاصًا من ممثل يحب التمثيل. سيسخِّر نفسه لك ليجعلك تصدق أنك في حلمٍ ما، ولكن فقط خلال الوقت المسموح لدعابة.

نظر ثيسيجر للآخرين.

- أنتم مهنتكم جنود، ويمكنكم فهم ما أقوله. حتى أنتم لا يمكنكم التوقف عن ذلك، ولا حتى الآن، بينما أنتم مجبرون على التزام أسرَّتِكم. لا تُطفأ المواهب كما يحدث مع المصابيح.

شعر ألكسندر أنه حانت لحظة مواجهته. سأله:

- نحن نقدِّر كلماتك، ولكن لا بد أن هناك أمرًا آخر. ما الذي أردت أن تقوله لنا بمجيئك سيِّد ثيسيجر؟

نهض الممثل برشاقة راقصة باليه.

- تدخل في الموضوع مباشرة، لا بد وأن حضرتك القائد هنا، أليس كذلك؟

- لم أعد أقود أحدًا.

- أوه، هذا أمر يجب البحث فيه. منذ قليل تحدثت عن الصدق. حسنًا، سأكون صادقًا ولن أتحايل بالكلمات. أنا مقتنع تمامًا بأن التطريز يمكن أن يخفف من آلامكم ويساعد في مواساتكم.

ظل ألكسندر ينظر إليه دون أن يجد دعابة، تليق بتلك التي سمعها الآن.

فهم ثيسيجر هذا على أنها علامة مُشجعة، لأنه استمرَّ بحماسٍ:

- أعرف أن أولئك النساء الرقيقات حاولنَ أن يعرضنَ عليكم الأمر من قبل، دون نتائج مشجعة. ولكنني أقول دائمًا: لن تخسر شيئًا إذا جربت. إنه شعار يجعل الحياة مليئة بالمغامرات الممتعة.

أجلس أوليفر نفسه.

- لقد قطعوا لي ذراعًا وليس عصفورًا.

قطَّب ثيسيجر حاجبيه. ولم يجرؤ ألكسندر على النظر للسيدات.

- لا أشك في ذلك يا عزيزي.

- إذن لماذا يجب عليَّ أن أجلس وأطرز.

- أنا أيضًا أطرز قبل أي عرض، لأعثر على تركيزي. كما ترون، أنا أيضًا أرتدي البنطلون ولم يتحول صوتي إلى زقزقة.

قاطعة سيسيل:

- تقول زوجتي إن الممثلين يستخدمون مستحضرات التجميل.

ثيسيجر بثقةٍ:

- بالتأكيد، أثناء العروض.

- لماذا؟

- لأن ضوء المسرح بشع، يحوِّل لونك إلى الأخضر، ولا أريد أن أبدو مريضًا على خشبة المسرح. اسمعوا لن تكونوا الوحيدين. لقد بدأ بالفعل بعضٌ من زملائكم، وهذا يحدث في مستشفيات حربية عديدة في البلاد- أجل يا سادة: جنودٌ استسلموا لسحر ذلك الفن النسائي الرائع. لقد شاهدت بعض الأعمال، وأجدها رائعةً من ناحية الصنعة، ولكن ربما ينقصها بعض الخيال وبعض الصور.

أشار إلى ليدي جوديث ومررت له السيدة بسرعة بعض الأقمشة المُطرَّزة.

- لهذا أحضرت لكم بعضًا من نماذج أعمالي، حتى تُحفز إلهامكم وتحرر خيالكم.

بسطها على سرير أندرو. حتى هو مدَّ عنقه لينظر إليها. تظاهر أوليفر بتعبير مزدرٍ ولكنه نهض ليقترب.

استمر ثيسيجر:

- حقيقة أنها مُنفَّذة جيدًا، يجعلني على ثقة من أنها ستثيركم، وستفتح

أمامكم آفاقًا جديدةً: يمكنكم أن تقدموا عملًا، وتضمنوا مصدرًا للدَّخلِ.

استند سيسيل على مرفقيه:

- عمل؟ هل تسخر منا؟

- لا يمكنني ذلك أبدًا. أغطية وسائد، أبسطة مختلفة، أعمالٌ فنية لكنائس، وأردية كهنوتية. ليس لديكم فكرة عن الطلبات التي نستقبلها لترميم مقاعد ثمينة من القرن التاسع عشر، كلها مُطرزة بغرز صغيرة أو كبيرة. يصعبُ العثور، اليومَ، على الحرفيين الذين كانوا يهتمون بذلك.

أصغى له الجميع باهتمام، بل كانوا مسحورين أيضًا، واضطرب ألكسندر من هذا. يغريهم ثيسيجر بتوقعاتٍ لن تتحقق أبدًا. حان دوره ليحطم الوهم.

- شكرًا يا سيد ثيسيجر، ولكن لا أحد منا يهتمُّ بالتطريز.

بمجرد أن قال هذا تغير سلوك الآخرين. ظهر هذا من خلال وضعهم الذي تغير بعض الشيء، ولكن بوضوح، وبنظراتهم المبتعدة.

بدا أن ثيسيجر لاحظ هذا، وفهم الإشارة التي أعطاها لهم. كان رجلًا ذكيًا وأنيقًا، ليس فقط في سلوكه ولكن أيضًا في أفكاره. ارتدى المعطف وابتسم للجميع وودعهم وهو يتمنى لهم كل خير، ولكن قبل أن يرحل اقترب من ألكسندر.

همس له في أذنه وكأنه يسر له بشيء:

- هؤلاء رجالك، يثقون بك ويبحثون عن تأييدك. تصرُّف حضرتك هذا لا يفيدهم. فكِّر في هذا الأمر إذا كانوا يهمونك بالفعل.

٥٠

رحل إرنست ثيسيجر، ولكن عطرَهُ بقيَ عالقًا في الغرفة، مع الكلمات الأخيرة التي أَسَرَّها إلى ألكسندر. ولم يستطع الهواء الذي يدخل من النافذة المواربة إزالة آثار تدخين أوليفر في السِّر، ولا ذلك الحضور.

ظلت الأقمشة المُطرزة على سرير أندرو، مُغريةً لامعة بخيوط من الحرير.

نظر ألكسندر إلى رفاقه. أي رجل هذا الذي سيرغب في تطريز أشكال ورود وأرابيسك على قطعة من الكتان، ولأي غرض؟

- هل تريدون تجربة هذا بالفعل؟

كان رد فعل سيسيل هو الأول:

- لماذا تنظر إليَّ؟

أوليفر شاتمًا:

- أتعرف أين سأضع له الإبرة إذا جاءته الشجاعة وعاد مرة أخرى. لسنا نساء صغيرات.

ثيسيجر قال شيئًا صائبًا: كانوا جنودًا وسيظلون دائمًا جنودًا،

حتى هنا، وهم مجبرون على المكوث في غرفة المستشفى، هذا ما سيظلون عليه إلى الأبد، لأنَّه اختيارهم. ولكن لا يمكنهم العودة إلى الجبهة، ولا حتى بين صفوف الفريق. لذلك من الصعب تعريف مَن يكونون حقًّا.

خشيَ ألكسندر أن يكون قد حُمِّلَ ثقلاً لا يستطيع حمله. لا يعرف إلى أين يقودهم. بل هو غير قادر حتى على قيادة نفسه.

جمع أندرو عينات التَّطريز.

- لا بد أن الأمر يحتاج بالفعل إلى مهارةٍ كبيرة. تبدو الزهور حقيقية، وتبدو هذه الآنية النحاسية كأنها تتلألأ.

لكم أوليفر الوسادة مرتين واستلقى:

- حتى هذا لا يمكنني عمله. هل يمكن الحياكة بيد واحدة؟

- يمكنك أن تجرب وتكون الأول في هذا.

- أجل، ولم لا يا أندرو. تبدو احتماليةُ أن أكون أوَّلَ من تنمو له ذراع جديدة أرجحَ من هذا.

تنحنح أحدهم. على الباب وقف رجل ذو شعر رمادي تصحبه أولغا. يضع على رأسه قبعة عاليةٌ لامعة، يبدو كأنه ينتمي لعصر آخر. فزع أندرو وجلس وكأنه جُلد بسياط.

قال: سيدي!

عندما اقترب الزائر، لاحظ ألكسندر السَّوط الذي يمسكه بين يديه، خلف ظهره.

توقف أمام سرير أندرو، وحدق فيه بجفاءٍ.

- سُترة منامتك مفتوحة، وتوجد بقعة على ياقتها. وشعرك مبعثر.

غطى الصبي نفسه بيديه.

- إذن لم تصب.

- لا يا سيدي.

- ولماذا يختبئ ابني غير المصاب في مستشفى؟

حنى أندرو رأسه، وأجابت أولغا:

- بسبب تأثير الانفجارات على أعصابه يا سير غراي.

- عذرُ الضعفاء.

فكر ألكسندر: رجل آخر لم يخض حربًا من قبلُ، جاء يعلمنا كيف نحارب. على الأقل أبوه لم يأمل في الكثير واكتفى بأن يشفق عليه.

استعلم الرجل المهذب عن وضع أندرو وكأن ابنه غير موجود. وتحدثت معه أولغا عن أندرو بصوت منخفض جدًّا. لم يبدُ أي قلق على سير غراي، فقط ذلك الضيق الغريب لشخص عليه حل المشكلة نفسها مرات عديدة. إلاَّ أن شيئًا ما جذب انتباهه.

بطرف السَّوط رفع أحد الأقمشة المطرزة. ونظر إليها بريبةٍ.

- لماذا هذه الأشياء على سرير ابني؟

شرحت له أولغا عن النشاط الذي أرادت السيدات أن تشرك المرضى فيه.

- البعض منهم يا سيدي بدأ بالفعل يستفيد كثيرًا. إنه نشاط يهدف

إلى استرخاء الذهن ويبعد عنهم الأفكار السلبية. عند رؤية أولئك الرجال العمل يكبر بين أيديهم، يشعرون بسعادة كبيرة.

ضرب الرجل السَّوط بعنف على السَّرير.

- أبعدوا هذه القاذورات على الفور، أو سأدخل ابني مصحَّةً عقلية. لا تجعلوه يصبح مُتحوِّلًا!

أبعدَ ألكسندر غطاءه متأهبًا للتدخل. لا يعرف ما يمكنه عمله، ولكنه كان متأكدًا أن هذا الرجل سيبدأ في تخطي الحدود.

يُظهر أندرو بالفعل بعض الملامح المخنثة، المسكوت عنها، أدركَ جميعهم ذلك على الفور، ولكن لم يتفوه أيٌّ منهم بكلمة. قاموا بحمايته دون أن يأمرهم أحدٌ بذلك، ولا تناقشوا فيه. كان قرارًا صامتًا، مشتركًا، وغريزيًّا. بالنسبة إليه لا شيء يمكنه أن يدينه، ولا أحد يحتاج للمغفرة. لم تكن المشكلة مشكلة أندرو.

أسرعت أولغا لتستدعي زميلة وفعلت ما أُمرت به. واختفى التطريز.

أمسك سير غراي بكتابٍ كان أندرو يقرأه.

- كتاب كتبته امرأة. «كتاب حب».

يكاد يبصقُ الكلمات.

- ماذا يجب عليَّ أن أتحمل بالإضافة إلى هذا؟ هل المرة القادمة سأجدك والشرائط في شعرك يا أندرو؟

ضرب طاولةَ السرير الجانبية بالكتاب. فزع الصبي وبدأ يرتجف. كان قد توقف منذ أيام تمامًا عن هذا.

اتَّكأ ألكسندر على السَّرير وانتصبَ واقفًا.

- يمكنك أن تهدأ يا سير غراي. ليست لأحدٍ النيَّة في أن يصبحَ مُتحوِّلًا.

بدا الرجل وكأنه ارتاح من هذا التأكيد المستبعَد.

وصلت أيضًا فلورا موراي، بعد أن نبهتها أولغا، وأمسكت بزمام الأمر. هدأت سير غراي بالكلمات المناسبة واصطحبته إلى الخارج. أثناء تقاطع نظرته مع الطبيبة، رأى فيها ألكسندر غضبًا هادئًا، قويًّا.

لم يتوجه سير غراي لابنه، ولا حتى بنظرةٍ أخيرة.

غاص أندرو بين المُلاءات، منهَكَ القوى.

إذنْ، كل شيءٍ انتهى. فذلك الرجل البشع قد رحل، إلاَّ أن ألكسندر شَعر بأن شيئًا ما تحطم. حدث هذا عندما نطق هو بنفسه تلك الكلمة، متحول.

تطلَّع من النافذة. غربت الشمس بالفعل، كان الهواء لاذعًا وتُشمُّ فيه رائحة الأمطار القريبة، ولكن ستظل السماء صافية هذا المساء.

تنفس نقاء الرياح. وشعر بنفسه متسخًا، فاسدًا، متآمرًا. كان عليه أن يقول أكثر من ذلك، أن يفعل المزيد، أن يلكمه، ولكن الحمقى تحميهم التقاليد التي يخشى الآخرون تحطيمها.

نظر إلى أسفل ورآها. كانت الدكتورة هيل تقف في الظل، وبادلته النظرة، تقف في سكون حتى بدت تمثالًا.

فكر ألكسندر في العكاز الموضوع في مكانه بجوارسريره كما تركته

هي. لم يلمسه، وقفز حتى الممر، لكنه بعد ذلك عاد إلى الوراء وهو يعرج وأخذه.

سأله سيسيل: إلى أين أنت ذاهب؟

- في مهمة.

نزل بصعوبة مجموعتيْ السلالم وخرج إلى الساحة. في الخارج تفوح رائحة خفيفة للهواء المحترق، رائحة الخريف والشاي الساخن على النار. بحث عنها بين الظلال، ما زالت في مكانها حيث لمحها من النافذة. انضمَّ إليها، وجلس بجوارها على المقعد.

سألها: ماذا تفعلين هنا في الظلام؟

قالت وهي لا تزال تنظر إلى السماء.

- أنظر إلى النجوم والكواكب. كوكب المشتري متلألئٌ هذا المساء، وسيظل هكذا بعض الوقت.

أشارتْ ناحية الغرب فوق خط أسقف البنايات.

- وأراقب ابنتي. يحب الأطفال اللعب في الظلام. يختبرون الخوف وينتصرون عليه.

في الحديقة الدائرية في وسط الردهة، بين الأشجار والسياجات، تلعب الصغيرة وهي تجري خلف مخلوقات من نسج خيالها، أو ربما فراشات ليلية.

دخل ألكسندر في الموضوع.

- سمعتِ كلَّ شيءٍ، أليس كذلك؟

- حتى لو منعتُ نفسي، كان من الصَّعب تجنُّب ذلك.

- هذا المستشفى مكتظٌّ بالآذان.

- لا بد من ذلك، فأنتم الرجال قليلو البوح! ونحن علينا أن نفهم.

- هل يجب التصريح عن كلِّ شيءٍ؟ بالكلمات؟

- هذا يجعل الأمور أسهل.

- تخدعنَ أنفسكنَّ. لأن الكلمات لا تخرج صادقة دائمًا، حتى عندما يرغب الشخص في ذلك. وأحيانًا أخرى لا تكون هناك كلمات كافية لقول المطلوب.

نظر إليها، وبحث عن عينيها، ولكنها كانت تنظر بعيدًا، بإصرارٍ. حاول مرة أخرى.

- بعض الصمت يمكن أن يفعل الكثير.

عند هذه الملاحظة غضبت هي.

- تعتقدون ذلك لأن بعضه كان من نصيبكم.

- وحضرتكِ؟

- أكثر مما ينبغي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

صمتت ثم أكملت:

- أنا أيضًا تساءلت عن الصورة الأبوية في حياتي. ولم تهب لي الأفكار أي مواساة. ربما من الأفضل ترك المياه تجري بما فيها من وحل، دون ضرورةٍ لغمر أنفسنا فيها حتى الرؤوس. إن آجلًا أو عاجلًا ستجري صافيةً.

- وماذا كانت تلك الأفكار؟

- كثيرة ومضطربة حقيقةً. كنت أحاول أن أجد تفسيرًا منطقيًّا لأشياء عارية عن المنطق.

- تتحدثين بلهجة أجنبية.

- أمي إيطالية.

من الطريقة الجافة التي أجابت بها فهم ألكسندر أنها لا تريد أن تسترسلَ في الكلام، ولكن كانت تلك الإشارة كافية ليفهم الكثير بالفعل.

بعد لحظة، بدا وكأنها استعادت هدوءها. بدا وكأن الذكرى التي هزتها تلاشت، مثل السُّحب التي أخفت القمر للحظات.

- هل لاحظتَ أمرًا أيُّها النَّقيبُ؟ عندما يرغب أحدهم في إهانة امرأة يقول لها إنَّها سيئة الأخلاق، وعندما يرغب في احتقار رجل يقول له إنه متحوِّل. ولكنني عرفت عاهرات أكثر استحقاقًا من ملكات، وصِبيةً قيل عنهم مخنَّثون كانوا أشجعَ من كل الجنود المحترفين. الأمر يحتاج إلى شجاعة حقيقية وقلبٍ قويٍّ لكي يستطيعَ المرء العيشَ في عالم يرفضه.

- لماذا ترتجفين؟

- لأن هذا يغضبني!

- لا يمكنكِ تغيير العالم.

نهضتْ. حاولت أن تبتسم، ولكنه كان من الواضح أن عاصفةً في داخلها تهبُّ.

- بمفردي لا يمكنني ذلك. ولا يمكن لأيٍّ منا. ولكن هل تعرف أمرًا؟ في يوم من الأيام قالت لي امرأة في باريس إننا لسنا بمفردنا في مواجهة التغيير. وهذا حقيقي. سيكون هناك أحدهم في مكان ما، يحارب من أجل الأشياء نفسها التي ندافع عنها، حتى وإن لم نكن نراه. لا بد أن نؤمن بوجوده، ولا ننسى ذلك أبدًا، ونتقدم للأمام. بطريقة أو بأخرى لا بد لنا من أن نتشبث بموقفنا.

نادت على ابنتها، ومدت يدها لتجذب الصغيرة.

قالت له شيئًا أخيرًا، وجده ثمينًا للغاية، وغيرَ متوقَّعٍ.

- هل تعرف أن كلمة أب من اللاتيني تُقال pater؟ وpa، من pascere، بمعنى تغذية وحماية. هذا هو الدور المنوط بأي أب. تمامًا وعلى القدر نفسه الدور المنوط بأي أم.

فكر ألكسندر أن طريقتها في نطق الحروف الساكنة وتلك المتحركة تعجبه، كانت واضحة وسلسلة.

- أنا لست أبًا، ولكن وأنا أسمعك تتحدثين عن الأمر بكل هذه المشاعر أتمنى أن أتمكن يومًا...

ثم وقعَ نظرُه على طرفِ منامتهِ الملفوف والمثني عند الركبة، وتوقفت الكلمات.

استقبلت هي الموضوع الحميمي الذي رغب في التحدث عنه، ولم ترغب في تركه يتلاشى في الصمت.

- يومًا ما سيكون لديك ابناؤك، لا يوجد أي سبب عضوي يمنع هذا، ولكن يمكن للمرء أن يصبح أبًا بطرق عديدة، وحضرتك

بالفعل أب لأندرو. تحميه ولا تدينه، تُغذيه بالاهتمام الذي أخشى أنه لم يذقه قطُّ.

دعتِ الطفلةَ لأن تتمنى له ليلةً سعيدة، وفعلتْ هي بالمثل، ثمَّ دخلت مع ابنتها إلى المستشفى، جسدان بارزان في مواجهة نور المدخل. قبل أن تختفيا، التفتت الطفلةُ وأخرجت له لسانها، وبادلها ألكسندر الإيماءة بمثلها.

لم يغب عنه أن هذا منزلهما. ولكن أين الأب؟ وأين الزوج؟ مات، أم في الجبهة؟ لم يره، قطُّ، في هذه الأنحاء.

اختفى «المشتري» وراءَ سحابة. مكث ألكسندر بعض الوقت على مقعد الحديقة. أراد أن يطلب منها المكوث، ولكنه لم يعد يعرف كيف يتحدث مع امرأةٍ. ستجد كارولين أن هذا غيرُ مريح، ولكن ماذا كان وماذا لم يكن؟ لم يعد يعرف. أحرقتْ رياحُ الحرب مرحلةً، ربما لن يُكتب لها العودة، بخيرها وبشرِّها. نشرت الموت وبذور التغيير كذلك. وكيت هيل لم تكن كارولين.

تزحلقت العكاز وسقطت على ساقه. بدت وكأنها تبحث عن صحبةٍ أو ربما مَن يمنحها أو يسألها المساعدة. نظر إليها.

- هل أنتِ التغيير الذي طرأ عليَّ؟

تشبث بها، ونهض على ساقه الباقية وببطء عاد إلى غرفته.

تظاهر الجميع بأن شيئًا لم يكن. ولكنْ إذا كان يعرفهم جيدًا، وبالتأكيد هو يعرفهم، فإنَّ أوليفر -على الأغلب- تمركز خلف النافذة وأخبرَ سيسيل عن نتيجةِ المهمة.

توجَّه ألكسندر نحو سريرهِ، ثم غيَّر رأيه ليجلس على سريرِ أندرو. أخذ بين يديه الكتاب المغلق الذي ظل على طاولة السرير الجانبية. يظهر على الغلاف أربعةٌ وعشرون رسمًا ملونًا. في الوسط ميدالية زرقاء بيضاوية الشكل، امرأة ورجل يقف كلٌّ منهما وظهره للآخر، ويحيط بهما شريط يمسكه كيوبيد من فوق رأسيهما. هي مستقيمة وحاسمة، وهو يقف مستقيمًا بغموض، عنيدًا بالتأكيد. أدركَ ذلك من الذراعين المضمومتين إلى صدره.

سأله ألكسندر: هل بالفعل يتحدث عن قصة حب؟

أنزل أندرو المُلاءة التي كان يغطي بها وجهه. كانت عيناه لامعتين.

- وإذا كان الأمر كذلك، هل هناك خطأ ما في أن اقرأه؟

- كلا! هل هو كذلك؟ هل يتحدث عن الحب؟

- أجل! وعن الأشياء المسكوت عنها، وعن تلك التي قيلت أكثر مما ينبغي، وتلك الأكثر التي لم تُفهم.

فكَّر ألكسندر أنه لا بد وأن يقرر على أي جانب هو، وأن يُظهر ذلك للآخرين. قلب الكتاب بين يديه.

وقرأ بصوت مرتفع: «كبرياءٌ وهوى»، يبدو أنه مكتوب من أجلي. إذا لم تمانع أريد أن أقرأه هذه الليلة.

تعبير الدهشة الذي ظهر على أندرو كان غريبًا. إلا أنه أومأ موافقًا. لم يتنفس سيسيل وأوليفر، ولكن شعر ألكسندر بنظرة متسائلة تجاهه.

بدا وكأنهما يرغبان في سؤاله، ستفعل ذلك حقًّا!

بالتأكيد.

تمدد على سريره وفتح المصباح، وفتح الكتاب على الصفحة الأولى.

لن ينام بسهولة هذه الليلة. كلمات أكثر مما ينبغي، كلها خاطئة، في نظر والدٍ لن يستطيع، أبدًا، أن يكون أبًا. وكلمات أخرى، أكثر وداعة وحقيقية، لم تُقَل، لأنها الكلماتُ لا يمكن التصريح بها.

استخدم كعلامة الخطاب الذي أرسلته أمه هذا الأسبوع والذي بخلاف كلمات المواساة ومحبة الأم، بدا وثيقة تحوي البرنامج المستقبلي لألكسندر دون الوضع في الاعتبار أيٍّ من رغبات ألكسندر.

غيَّر رأيه، ووضع الكتاب. وأخذ دفتر اليوميات الذي كان معه في الجبهة، وكان يدون فيه أفكاره اليومية، وآماله، والمشاريعَ التي لا معنى لها الآن. منذ أن مات صمويل توقف عن الكتابة فيه.

عثر على الورقة التي يبحث عنها. ورقة مربعة بيضاء، بعض الكلمات المكتوبة. كلمات من امرأة، كلمات أضحكته في ليلةٍ من ليالي الحرب، لتثبت له أنه لا يزال هناك، في مكانه.

وضعت كيت آنَّا لتنام مفعمةً بشعور يكبرُ في صدرها. تشعر بأن ابنتها أغلى من أي وقت مضى، ثمرةُ الأمل العنيدة. ربما لا يكون لديها أب، ولكن حب أمها لن يشعرها بأي احتياج. مع الوقت سيتخذ أشكالًا مختلفة، أحيانًا متعارضة، ولكنها جميعها مخلصة. الحماية والتشجيع، المواساة والصمت، العناية والصون، اللوم والصفح. الاستقبال... بمعنى القبول.

أغمضتِ الصغيرةُ عينيها وتشبَّثت بأمِّها. تنفست كيت طويلًا.

ستغذيها على الثقة بنفسها، على الأحلام والحماس. ستنشئها حُرَّةً، دون إهانةٍ أو ضربٍ أو تجريحٍ، أبدًا.

وعدتها: ستكونين ما ترغبين أن تكوني.

٥١

لم تكن ليلة ألكسندر الأولى بلا نوم، ولكنها كانت الأسوأ بالتأكيد. لم يستطع أن يُنحي جانبًا التفكير في والد أندرو، والطريقة التي يظهر من خلالها خوف الصبي منه، تابع مسحوق يرزح تحت إرادة طاغية. رأى ألكسندر حيوانات تُعامَل بعناية أكثر من هذه المعاملة.

هو أيضًا واجه مخاطرة أن تبتلعه ظِلال أسرة لها تاريخها القديم الذي كاد أن يطغى على تاريخه الشخصي، ولكن ساعدته مهنته العسكرية في العثور على طريقه الخاص في ذلك الاضطراب، على هُوية لم يكن سهلًا التفكير فيها. ولكن أندرو في خطر. سرعان ما سيعود إليهم ويصنعوا منه الرجل الذي يريده المجتمع، أو سيُسحقَ. مكتبة سُر مَن قرأ

نظر إليه وهو نائم ولم يستطع التفكير في أنه سيسمح بحدوث هذا. لقد تشاركا الخبزَ في الجبهة، تقاسما الضحكات والخوف، الخوفَ الحقيقي، الخوف من أن يتحوَّلا إلى أشلاء، ويشعرا بلحم أحدهما يتمزق، وفي النهاية حدث هذا بالفعل. الخوف من الموت كُلًّا بمفرده، ولكنهما اكتشفا أنهما ليسا وحيدين. ربما لو كانت لهم حياة أخرى لم يتقابلْ أندرو وسيسيل وصمويل وألكسندر قطُّ، ولا عرف كلٌّ منهم الآخر. ولكنهم

أمام الصعوبات أصبحوا إخوةً... بل وآباء أحدهم للآخر. أزاح الأغطية بعصبية. فهو يشعر بالبرد والحر ثم من جديد تنتابه التشنُّجات.

تلك المرأة. تلك الكلمات حول كونه أبًا تستمر في إيقاظه بلمسات عنيدةٍ عندما يلوح له النعاس ليهبه الراحة. مثل ريح عاتية، تَضرب مصاريعَ ضميره.

يتقلب في السَّرير ويلحظُ غيابَ سيسيل. لا بد أنه انزلق مبتعدًا دون إصدار صوت. الرَّبُّ وحده يعلم كيف فعل ذلك بلا ساقين وعلى الكرسي المتحرك.

يسمعه ألكسندر كلَّ ليلة، تقريبًا، عندما يستيقظ ويذهب إلى الحمام الموجود في نهاية الممر، ويمكث هناك وقتًا طويلًا. لم يستطع بعدُ العثور على طريقة ليتحدث معه بشأن هذا الأمر، ولكنه يشعر بالقلق. يخشى أن يكون قد أصابه عطبٌ ما ويخشى البوحَ به.

نهض، وتسبب ألمُ جرحِهِ الحادُّ في سقوطه مرة أخرى على السرير. دعك البتر. يحدث هذا من حين لآخر، وأكدت له الطبيبات أنه أمر طبيعي. فالعظم المبتور يتماثل للشفاء وحين يحدث هذا لا بد من أن يهتاج وأن يخلق جلدًا قاسيًا مكوِّنًا طبقةً جديدةً.

حاول مرة أخرى وتحسن الوضع. أمسك بالعكاز بضيق وكأنها تُزعجه، وكأنه لا يحتاج لأن يستند عليها، قائلًا لها «سآخذك معي، حسنًا». ذهب إلى الحمام في صمت مثل طلعة استكشافية. دفع الباب ببطء ورآه جالسًا على المرحاض، وعلى ضوء مصباحٍ كان سيسيل يطرز.

نظر كلٌّ منهما للآخر، دون أن يقولَ أيٌّ منهما شيئًا، أو ربما قالا أكثر مما ينبغي.

كان سيسيل يطرزُ -أو يحاول تطريز- غطاءً صغيرًا. ورودٌ صفرٌ مثل الشمس. عصافيرُ زُرقٌ صغيرة تطير حول البتلات التي تبدو كأشعة الشمس.

أصبح وجه سيسيل أكثر احمرارًا من ذقنه وشعره، تمتم:

- أشعر بالسعادة وأنا أفعل شيئًا من أجل الطفل القادم. لماذا... لماذا لا يمكنني هذا؟

لم يجب ألكسندر. حاول الكلام عبثًا. إلاَّ أن سيسيل استعاد صوته. تحدث عن رغبته في فهم دوافعه.

- لقد خاطرت بأن أُصابَ بتلوث في ردفيَّ حتى أخفي الأمر أيُّها النَّقيب. التطريزُ يسعدني. لا أريد أن أشعرَ بالخجل منه.

ألكسندر هو من كانَ يشعر بالخجل. استند على الجدار الحَجري، وقد هزمته حقيقةٌ مؤلمة. فهو لم يساعد رفاقه في أشد أوقات احتياجهم. وكان أول مَن أدانهم.

وعده:

- لن يختبئَ أحدٌ بعدَ اليوم.

خرج من الحمام وأسرع نحو غرفة الممرضات. هناك عثر على أولغا وبين يديها فنجان شاي، وكتاب مفتوح على مكتبها. كانت في نصف مناوبتها الليلية. عندما رأته نهضت على الفور:

- هل يشعر أحد بوعكة، حضرتك؟

- لا. أرغب في كتابة خطابٍ من فضلك.

- في هذه الساعة؟ ألا يمكنك الانتظار طلوعَ الفجر على الأقل؟

- للأسف لا.

وضعتْ أولغا الفنجان.

- حسنًا، إذا كنت بالفعل لا ترغب في النوم أيُّها «الجنرال»؛ فسأحضر المطلوب إلى غرفتك. ولكن خفِّفْ ضوءَ المصباح.

- إذا لم يزعجك الأمر، سأكتبه هنا، على الفور.

- لا بد أنه أمر عاجل جدًّا.

هو كذلك، لا بد من إصلاح التمزق، أو تطريزه.

كتب ألكسندر بضعة أسطر على ورقة صغيرة ووضعها في ظرف. كتب عليها الاسم واللقب وعهد به إلى أولغا، وهو يسألها أن تسلمه في أقرب فرصة.

أثناء عودته إلى الجناح، في غَمرةِ عَتمة الممرِّ، عثر على شخص بدا وكأنه ينتظره.

- دكتورة موراي!

تقدمت فلورا موراي تحت ضوء مصباح الجدار.

- تبدو محبَطًا، هل كنت تتوقع شخصًا آخر؟

- لو كنت أقابلك للمرة الأولى لفكرت في سخرية صوتك، ولكن اللعبة لا تخصك.

- اللعب شيء تربوي في أي مرحلة عمرية، وأنا أمارسه بكل سرورٍ. ما الذي يقلقك حضرةَ النَّقيبِ سايمور؟ الأفكار أم الألم؟

عَبَرَ هو الخطوات القليلة التي تفصلهما. لم يَفُت عليه أنها لاحظت الطريقة التي يتحكم فيها بالعكاز، وبدت راضيةً.

- اسمي ألكسندر. يبدو لقبُ «نقيب» الآنَ كأملٍ ضائعٍ لمسنٍّ موهوم.

- بحق السماء. إنها بالتأكيد أفكارٌ جارحة تلك التي تبقيك يقظًا.

انتزعت منه ابتسامة.

- ليست أكثر ألمًا مما هو معتاد. وحضرتك؟

- نزلت لأطمئن على مريض أجرى جراحةً منذ قليل.

- هل هو بخير؟

- ليس بعد، ولكنه سينجو.

أومأ هو وعاد ليسير.

- سأتركك إذن لعملك.

- أيُّها النَّقيب!

- نعم؟

- لا تتألم كثيرًا بسبب ما حدث أثناء زيارة سير غراي.

التفت إليها.

- يؤلمني ما سيحدث بعد ذلك، عندما يعود الصَّبي إلى المنزل.

رآها تشير بابتسامة، حذرة مثلها، مثل أفكارها وكل شخصيتها.

- يكفي أن نتجنب عودته. أنا متأكدة أننا سنعثر على طريقةٍ ما. حاول أن تنام جيدًا الآن.

إذن هي أيضًا رأت العنف والمعاناة، وقررت ما ستفعله.

قبل أن يعود إلى سريرهِ، أشار ألكسندر للحمام خلفه وسألها ما كان في واقع الأمر حقيقةً.

- كنتِ تعرفين أمر سيسيل.

- كنا جميعنا نعرف.

- هل أخبركم بسرِّهِ.

- ليس بالتحديد. ولكن يقضي سيسيل الليالي وقد أغلق على نفسه الحمام. أحيانًا يقضي أوقاتًا طويلة، أطول مما ينبغي. عندما ذهبتْ إليه أولغا بما يلزم لعمل حقنة شرجية. اعترفَ.

٥٢

قصر باكنغهام، لندن، سبتمبر ١٩١٥

كانت ظهيرةً مملَّةً، لا تصلُح سوى لحوار أمام فنجان منعش من الشاي، وقطعة قماش على الركبتين لملئها بغُرزة الصليب، ولكن أدرك إرنست أنه لا يميل إلى الثرثرة المتحمِّسة، وأنه شاردٌ مع أفكار أخرى.

أطلعته الملكة على عملِها.

– ما رأيك في هذه الغُرزة؟

– ممتازة جدًّا.

– أنتَ لم تنظر إليها حتى يا إرنست. إنك شارد الذِّهن ومتعجِّل، والآن لديَّ الدليل. لقد أخطأتُ فيها عمدًا.

– أوه.

– وأنت نظرت أكثر من مرة للساعة على الكونسول، وكأنني لن ألحظ هذا.

تقاطعت عينا إرنست مع النادل الذي يحدق فيه.

– إن تصرفي الفظ هذا لا يُغفر، جلالتُكِ، ولكنني أسألك الصفح.

- ما الذي يعذبك؟

- يعذبني؟ لحسن حظي لا شيء يعذبني جلالتك. يمكنني أن أتحدث عما يسعدني بشدة.

وضعت الملكة الإبرة.

- الآن لا يمكنك الصمت.

وضع الإبرة هو أيضًا.

- أعترف لك أنني تلقيت دعوة لم أتوقعها. فالشخص الذي كنت أُعد نفسي للحرب معه يدعوني إلى مائدة الصُّلح. هل تتذكرين الجنود الذين أخبرتُك أنهم رفضوا التطريز تمامًا؟ رغم كونهم في أشد الحاجة لممارسته.

- أتذكر، أتذكر. يبدو أن الأمر مثير للغاية، استمر. ماذا تدبر يا إرنست العزيز؟

بحث هو في جيب الصديري على الورقة الصغيرة التي تلقاها في ذلك الصباح.

- لقد تلقيت أخبارًا أن القُساة استسلموا يا سيدتي. ليس لدينا وقت لنضيعه.

أمسكت ماري بالورقة، وقرأتها.

- لقد وضع القائد أسلحته، على حسب ما أرى. إذن ماذا تفعل هنا؟ هيا، اذهب! وأخبرني عمَّا سيكون، بطبيعة الحال. هذه القصة ممتعةٌ للغاية.

٥٣

لندن، مستشفى شارع إيندل العسكري.

عاد إرنست ثيسيجر إلى مستشفى شارع إيندل، مفعمًا بالحيوية الأنيقة التي تليق به، فكر ألكسندر. بدا قادرًا على تحويل الأسئلة المعقدة إلى دعاباتٍ خفيفة، بعيدة كل البعد عن التفاهة والملل، وبارعةٍ دائمًا.

يتحسن مزاج الأشخاص بمجرد دخوله إلى مشهد حياتهم اليومي. كان أمرًا واقعيًّا يلاحظه ألكسندر بارتياحٍ، وبمرارةٍ أيضًا، لأنَّه لم يستطعْ فعل ذلك لرفاقه. إلا أنه سلَّمهم إليه، بثقةٍ حملتْ الكثير من الأمل.

خصص ثيسيجر وقته لهم بمرونةٍ ليحرِّرهم من شعور الإدانة تُجاه أنفسهم. التطريز يُشعرهم بتحسُّنٍ، لا شيءَ آخر يهمُّ.

من حين لآخر، بتكرارٍ صارَ معتادًا، ينظر ثيسيجر نحوه. لا يعلِّق، ولكنه يبحث من جهته عن شكل ما من أشكال التفاعل تأخَّرَ حدوثه.

لم تكن لدى ألكسندر نية التطريز. ترك الآخرين أحرارًا في الانخراط بالأمر ظانًّا أن هذا يكفي، ولكن يبدو أن هذا لا يكفي بالنسبةِ للممثل، وازدادت نظراته إليه إصرارًا.

لم يكن الوحيد الذي يصوِّب نظره عليه، بل أوليفر وسيسيل وأندرو

كذلك، ما بين غُرزة وأخرى، يتفقَّدونه، وكأنهم يخمِّنونَ أفكاره. أدار ألكسندر وجهه نحو النافذة، وقرر أن ينظر للسماء والطيور المارة، حتى نهاية الجلسة، التي قد تستمر لساعات. وربما أسعفه الحظ وغرق في النوم.

بدأ ثيسيجر، فجأةً، بالتحدث عن الحرب.

- لقد حاربتُ أنا أيضًا في فرنسا، أتعرفون هذا؟ لقد تطوعت. حملت رقم ٢٥٤٦ في صفوف جنود مشاة جلالة الملك.

نسي ألكسندر غرضه بأنه يريد أن يتجاهله، وعاد ليتلفت نحوه.

كان الممثل يميل ناحية تطريز أندرو، يومئ راضيًا:

- تتعلم بطريقة جيدة يا أندرو، جيدة جدًّا.

سأله أوليفر: حضرتك أيضًا كنت من المشاة؟

- أجل، ولكن لم يستمر الأمر طويلًا. في يناير الماضي سُرِّحتُ نظرًا لإصابتي وعدت إلى لندن.

انتقل ثيسيجر ليفحصَ غطاء سيسيل. فك له غرزة وصحَّحها، وهو يريه كيف يفعل هذا.

- شِد الخيط أكثر، ولا تخف.

وضع أوليفر العمل الذي كان يحاول أن ينجزه بيدٍ واحدة فقط.

- وكيف حدث هذا؟

- كنت أرتاح مع باقي الفرقة في حظيرة. اكتشفَنا الألمان، وقرروا أن يرجمونا بالقذائف.

لم يرد أحد عليه. ذكريات الانفجارات الكثيرة التي تعرضوا إليها كانت حية جدًّا إلى حد أنهم يشعرون بها على أجسادهم. وسيستمر هذا طويلًا، ربما طوال حياتهم.

- مات أغلب رفاقي، أما أنا فأصبت في يدي.

رفعهما ليريهم نصف قُفازيه الحريريين.

- أول محطة استقبال للصَّليب الأحمر كانت بعيدةً. وللتأكد من أنني لن أحركهما وأتسبب في المزيد من الأضرار، ربطوهما على رأسي. سِرت في ذلك الوضع لساعات؟ الآن يمكنني أن أنزع القُفازين، لم يعد هناك أي أثر للتلف الذي حدث، ولكن الجرح لا يزال مفتوحًا هنا، في ذهني.

ثم دق بأصابعه على جبهته، وعاد لينظر إلى يديه.

- أحيانًا تؤلمني عندما أطرز. في الأيام الممطرة أنجح بصعوبة في إمساك الإبرة بين أصابعي. ولكن الاستمرار في الحياة بعد أن تُطرحَ أرضًا، ليس أمرًا خاليًا من الألم على الإطلاق. أنتم يمكنكم أن تُدركوا هذا، والآن تعرفون أنني أنا أيضًا أقدِّر ما تمرون به.

كان ألكسندر هو المستهدَف. يشعر أنه سقط في يده، وهو يجذبه بعينيه الفاتحتين، اللتين تبدوان شفافتين.

ابتسم له. بدا وكأنه يتحدث معه بمفرده.

- وكما ترون، لستم أول الجنود المُطرزين. ولستم الوحيدين أيضًا. بدأوا يستجيبون للدعوة في مختلف مستشفيات إنكلترا. إلى حد

أنني فكرت في أن أصمم صندوق أدوات خياطة وأوزعه على كل الجنود.

تساءل ألكسندر لماذا الإصرار الشديد على إدخاله في الموضوع، فقد كان هو مَن استدعاه إلى هنا، وطلب منه أن يحاول مع أندرو وأوليفر وسيسيل. ألم يكن ذلك كافيًا؟

وبقلق رآه يأخذ عينة من القماش من بين تلك التي أحضرها، ويختار إبرةً ويضع فيها خيطًا، بعد أن قيَّم لونها مقرِّبًا إياها من النَّافذة. وهكذا اقترب منه مُسلَّحًا وهمس له، بما يشبه التحدي:

- إذا كنت تعتقد أن مجرد نظرتك إليهم بعين الرضا سوف تساعدهم فأنت واهم حقيقةً، mon capitaine!

وقدم له الإبرة والقماش.

استطاع ثيسيجر أن يجذب انتباه الجميع نحو ألكسندر، الذي لم تكن لديه نية للإذعان.

- لا، أنا لا.

- أوه بلى، حضرتك أيضًا.

- أنا الضابط ذو الرتبة الأعلى لهؤلاء الرجال.

- بالتأكيد.

كاد ألكسندر يُبعد ما قُدِّم إليه عندما رأى تعبير الآخرين. فهو لا يرغب أبدًا في جرح مشاعرهم، إلاَّ أنه يفعل هذا الآن. بانسحابه يبدو أنه يدينهم.

زفرَ كلَّ ما في رئتيهِ من هواء. واتَّسعتْ ابتسامةُ ثيسيجر.

أخذ ألكسندر ما يلزم. أخذ ما يلزمه من وقت ليُدرك، أنه على وشك أن يفعل ذلك حقًّا. وبدأ غُرزته الأولى، غرس الإبرة وشدَّ الخيط.

مرَّر إرنست ذراعه حول كتفيه.

- هل مت الآن؟ هل أصابك حادث؟

- كلا!

- هل ذاك بين ساقيك لا يزال سليمًا معافىً؟

- أجل!

- أرأيت؟ أنه ليس شيئًا مؤذيًا.

- ماذا يجب عليَّ أن أطرِّزَ؟

كانت يده مترددةً. أمسك ألكسندر بالبندقية مرَّاتٍ لا تُحصى، والآن يتقدم من ذلك الشيء الرَّقيق مثلما يمكن لدب أن يفعل.

جلس إرنست بجواره.

- ما هذا الذي تطرزه. زهرة السَّوسن.

زهرة السوسن. لم يكن ألكسندر يعرف أسماء الزهور، بل وبدا له أنه لا يعرف حتى نفسه. لم يتخيل، قطُّ، أنه سيجد نفسه ممسكًا بإبرة وخيط بين يديه، ليس ليرقع بطريقة ما السُّترةَ التي انسلَّ خيطُها، ولكن ليعيد إنتاجَ جمال بتلة زهرةٍ على ما بدا مفرشًا.

أعطاه الممثل التعليمات، وقاد يده، حتى أصابعه، بطريقة منهجية ذات دقة هندسية وجمال فني لِحِرفي موهوب.

ثم سأله بعد قليل:

- ما الذي يسبب لك اضطرابًا أيُّها النَّقيبُ؟ ألا تحبُّ الزهور؟

- لم أفكر كثيرًا في الزهور من قبل.

- حقًّا؟

لا، ليس حقيقيًّا. أدرك ألكسندر ذلك لحظتها. تذكَّر كم كان يراقب زهور الخشخاش التي تنمو في ساحات المعارك. كان يبحث عنها بعينيه عندما يضطرُّ جسده إلى الاختباء خلف مصدَّات الخنادق. بدت له هشةً ولكنها مقاوِمةٌ، عنيدةٌ، مُصرَّةٌ بجنونٍ أن تزهرَ بين القصف. تحارب لأجل البقاء، ولها لون الدماء، ليس فقط تلك التي سُفكت، إنَّما أيضًا تلك المهتاجة بالداخل، والتي يدفعها القلب، ولا يزال، لتزهر حياةٌ، وتستمرَّ.

قال: أحب زهور الخشخاش.

- ولكن هذا رائع. أخيرًا تحكي لي شيئًا عن نفسك.

لم يفوِّت إرنست تلك الفرصة:

- اسمعني يا ألكسندر. سيكون من الأسهل، بل من الأروع أن تعمل على شيء تهتمُّ به. صف لي صورةً غالية عليك، صورة تحكيك. سيساعدنا أندرو أن نرسمها على قماشة خالية ثم يمكنك تطريزها. ما رأيك؟

لم يحتج ألكسندر أن يفكر كثيرًا. تلك الصورة التي تسكنه منذ فترة. أدرك أنه يراها في قلبه.

٥٤

مرَّت كيت، ذلك المساء، لتفقُّد المرضى قبل أن تنهي يومها. العديد منهم كانوا منكبِّين على التطريز، يفردون الأقمشةَ مثل خرائط مناطق يرغبون في استكشافها، يظهر التركيز على تعابيرهم، ولا أثرَ للملل أو توتر. اختطفتهم خيوط الحرير الدقيقة، والكتان، من كلِّ توتر إلى عالم من الهدوء والصمت.

قضت كيت يومها كلَّه في صالة العمليات، ولكن خبر زيارة إرنست ثيسيجر الجديدة وصلها هناك. هذه المرة كان نجاح العملية واضحًا والآثار طويلة المدى. توقفت العصبية وهدأت تشنُّجات الصدمة، حتى «جناح جوني ووكر» صمتَ أخيرًا.

عندما مرَّت كيت بين الأَسِرَّة، غطى العديد منهم الأقمشة المطرزة بخجلٍ، وكأنهم ضُبطوا متلبسين بالسرقة. آخرون، مغامرون بطبعهم ويميلون للتغيير، كانوا يطلعونها على ما يفعلونه لطرد شكوكهم المستقرَّة، مازحينَ ومتحمِّسين كانوا، وغالبًا مندهشين من قدراتهم. آخرون اختاروا أن يطرزوا الحرب، ولكنهم غير منساقين بالعنف والكره، بل كانت تلك طريقتهم للتخلص من تأثيرها. يثبتونها بصور

يرغبون في تذكرها، ولكنهم في الوقت نفسه يرغبون في تحرير أنفسهم منها. بعضهم كان منكبًّا على رسم بِدل الحلفاء العسكرية، وبعضهم الآخر اختارَ رمزًا لفرنسا المحاصَرة، لقطةً لباريس وطائرات الدفاع تحلق فوق المدينة. يمكن التعرف فيها بوضوح على برج إيفل وكاتدرائية نوتردام.

كانوا يعملون في غرفة النَّقيبِ سايمور أيضًا. جميعهم فيما عداه.

حلق الرجال ذقونهم، وصففوا شعورهم، وغيروا مناماتهم. مكَّنهم ثيسيجر من شيءٍ آخرَ بخلاف التطريز، مكَّنهم من العودة إلى سابق عهدهم الذي لا بد وأنهم كانوا بحاجة ماسَّة إليه، ولئلاَّ يكونوا خشنين أو يائسين؛ وإنَّما هم بشرٌ... كانوا وما زالوا وسيظلون حتى النهاية.

فحصت كيت ضمادةَ كلٍّ منهم، وهي تتبادل معهم الحديث كعادتها. كان سيسيل أول من وثِقَ بها، وفتح الباب لأوليفر، العصبي، ثم الشاب أندرو الذي لا يزال خجولًا ولا يشعر بالأمان.

أطلعها سيسيل على اللِّحافِ وحدثها عن ابنهِ الذي أوشك أن يُولدَ.

قال لها:

- بطنُها حادٌّ، نتوقع ولدًا.

لم ترغب كيت في هدم آماله.

- عملٌ بديع يا سيسيل.

- لقد عرضت ردفي للخطر من أجل إنجازه.

- كنت على وشك أن آخذك لصالة العمليات. تلوث سيءٌ بسبب التطريز، أوَّل حالةٍ من نوعها.

- يمكنني تحمُّل كل شيء إلا ترقيع «الإست».

- يمكن أن تقول المقعدة يا سيسيل أو الردفين!

- قالت لي دكتورة موراي هذا أيضًا.

كان تطريز أوليفر عبارة عن خطٍّ أزرقَ، سيء وفوضوي. ومن هنا وهناك غُرز وخطوط سُود. أطلعها عليه مرتبكًا، لأنه على الرغم من همجيته؛ فإنَّه يجد نفسه أعزلَ أمام ابتسامةٍ لطيفةٍ. هذا ما تعلمته كيت بعد بعض المحاولات الفاشلة.

شرحَ لها:

- إنه تطريز حربي. هذا هو نهر المارن، وهؤلاء نحن، وعلى الشَّاطئ الآخر يوجد الآخرون. أولئك المساكين. ما زال ينقص المشهد نيران الانفجارات.

وجدت كيت الأمر مؤثرًا، فقد عثر أوليفر على طريقة ليعبر بها عن نفسه، وجمع بين الأنثوي والذكوري. شرح التجربة التي عاشها، ومنح الألمَ صوتًا. وضع نفسه والعدو في الصورة نفسها، المساكين بين النيران، يفصلهما نهر مثل بحيرة أشيرون التي تفصل في الأساطير بين عالميْ الأحياء والموتى.

قالت له، بإخلاصٍ:

- أجده رائعًا. سيكون شهادةً مهمة، ليس لكَ فقط.

تمتم بكلمة، ربما كلمة شُكرٍ، أو لعنةٍ.

دعاها أندرو إلى جواره.

- انظري إلى ما فعلته يا دكتورة.

طرز كأس الطقس الكنسي مزينةً بالياقوت، بدتْ حقيقيةً بفعل تنوع الألوان. وكذلك بدت الحجارة الثمينة تلمعُ.

- أندرو! إنه ينبضُ بالحياة، تمامًا مثل كلِّ أعمالك. يليق بأن يوضع داخل كاتدرائية.

- ساعدتني ليدي جوديث كثيرًا. القماش تحته ممزق، ولكن لا يُرى الآن، فثمَّةَ شيءٌ جميلٌ يخفي التمزُّق والعيوب.

- أنت موهوب جدًّا يا أندرو. الغُرز رائعة. سأستدعيك عندما أحتاج مساعدة في وضع بعض الغُرز الجراحية.

رفع الصَّبي وجهه.

- الغُرز أيضًا مثل التطريز، هي فعلُ حب. إنها مثل الحب، أليس كذلك؟ يضمُّ ويشفي.

شدت كيت على ذراعه. تستغلُّ كلَّ فرصةٍ لتشعر تلك الروح الشابة التائهة بأن لها مكانًا في هذا العالم.

الآنَ حان دور القائد. لم يكن الاقتراب منه عملًا عفويًّا قطُّ.

لم يترك التطريز، توجد قطعة قماش مطوية فوق طاولة السَّرير الجانبية، يبرز منها خيط لونه أحمرُ قرمزيٌّ، تُظهر إحدى الطيَّات الظلَّ القاتم لشيء لم تستطع كيت تمييزه.

يدفعُها الفضولُ لتبحثَ بإصرارٍ بين الثنايا، كانت واثقة أن هذا لم يفته. فهو يراقبها دائمًا.

ركزت كيت على الجرح الذي يلتئم بطريقة جيدة، بعد فترة وجيزة يمكنهم محاولة تركيب الطرف الصناعي. وبعدها لن تطول إقامته في مستشفى شارع إيندل.

- سترحل قريبًا حضرةَ النَّقيب.

معه لم تكن تستطيع أن تتعامل بالعفوية التي وجدتها طبيعيَّةً مع الآخرين. ولكن لم يبدُ أن ألكسندر نفسه يبحث عن هذا.

لم يجبْها.

مَن يدري نمط الحياة الجديدة التي تخيلها لنفسه، وما إذا كانتِ المرأةُ التي تكتب له خطابات مليئة بنداءاتٍ رومانسية ستأتي أخيرًا لتأخذه لنفسها، وإذا كانت لديه القوة اللازمة لمواجهة العائلة التي أرادت أن تخيط له ثوبًا ضيقًا جدًّا، لم يختره، أو أن التعب سيجعله يميل نحو حياةٍ أكثر بساطة.

قال لها فجأة:

- لقد فكرت في زهور الخشخاش اليوم.

نظرت كيت إلى الخيط الأحمر، وتذكرت البتلات التي أهداها لها. لمس ألكسندر أصابعها المنهمكة في تشبيك عصابات أرادت كيت أن تغطي بها عينيها.

- لقد أنقذتِ حياتي. أنقذتيها مرتين. بطريقة لا يمكنك تخيلها. ولا أعتقد أنني قلت لكِ هذا من قبلُ.

- ماذا؟

- شكرًا.

اختفتِ اللَّمسةُ، وبدا لها أنها لم تحدث قطُّ. قال تلك الكلمات همسًا، بدا وكأنه حفيف الرياح العاصفة بإنكلترا، في ذلك المساء، من السَّاحل حتى لندن.

غيرت له كيت الدواء. شعرت بأنها ولجت إلى منطقة ظلال لم تعتدْ عليها، وادٍ لم تختبرْهُ مشاعرها منذ أزمنة بعيدة. أحيانًا كانت تشعر بأنها تراقب نفسها كأُمٍّ، بضميرٍ أكثر ثقلًا من جبل وقدمين منغرستينِ في الأرض وأصبح لهما جذور.

وسادَ الصَّمتُ.

أخذ الكتاب الموضوع على بجوار التطريز على طاولة السرير الجانبية.

- قرأتُ قصة مثيرة.

- حقًّا؟

- عن رجل مغرور جدًّا وامرأة عنيدة. عن كلماتٍ لم تُقل، وأخرى قيلت أكثر مما ينبغي، وكلمات أكثر لم تُفهم.

خشيت كيت أنهما لا يتحدَّثانِ عن مجرَّدٍ قصة مُتخيَّلة.

سألته:

- كيف تشعر؟ هل عادت إليك انفعالاتك؟

وضع الكتاب مفتوحًا أمامها.

- انفعالاتي كانت دائمًا موجودة. يمكنك أن تطمئني زميلاتك.

أمسكته كيت ورأت بين الصفحات صورة. قلبتها. وجدتها صورة امرأة شابة تلف حولها وشاح شفاف، يُظهِر نهديها.

كانت من الصور التي تُستخدم لاختبار الاستجابة الذكورية. يحتاجُ بعضهم، أحيانًا، إلى دفعة صغيرة لاستعادةِ الرغبة الصحية، وليتأكد من أن كل شيء على ما يرام. تُوضع مع القراءات بشكل متحفِّظ، وأنقذت الكثيرين من اليأس.

أغلقتِ الكتاب، محُرجةً.

- يسعدني هذا.

أضحكته.

- وأنا أيضًا.

- إذن، ليلة سعيدة!

- ليلة سعيدة يا كيت!

٥٥

خصصوا للجنود المُطرِّزينَ -كما بتنَ نسوةُ مستشفى شارع إيندل يطلقنَ عليهم- صالةً في الطابق الأرضي بالجناح الرئيس حيث يمكنهم التناوب والعمل براحة أكبر. أُعدت لهم أماكن مناسبة للجلوس، وطاولة طويلة من خشب الجوز وضعت عليها ليدي جوديث والسيدات الأخريات سِلالًا ملأى بقطع نسيج، وخيوطِ القطن والحرير والصوف بكلِّ الألوان الممكنة، وبإبرٍ بمقاييسَ مختلفة، ونماذج يمكن الاختيار من بينها للنقل منها، طباشير وأقلام لتخطيط الأشكال المتخيَّلة.

في البداية اقترب ألكسندر من السِّلال بحياءٍ، ولكن ليدي جوديث قادت يدَهُ بحماسٍ خالة مسنَّة حنونٍ لا يمكن إخفاؤه. ودفعت هذه الشجاعة الواضحة الآخرين إلى فعل المثل.

بعضهم كان جسورًا بالفعل، ومتحمِّسًا. بعضهم الآخر بدا مترددًا، ولكنهم استطاعوا أن ينسوا مآسيهم لمدة ساعة أو ساعتين. اقترحت عليهم ليدي جوديث أن يختاروا موضوعًا ذا معنىً بالنسبة إليهم. لا بد من التشبث بقضية معينة ليتمكنوا من جَسْرِ الهوة، ربما الحب أو حتى اليأس، لأن هذا ما سيفجر البركان الداخلي ويعيد الحياة إلى السطح.

كان هناك مَن يطرز من أجل مولوده القادم، ومَن يطرز ليتذكر رفيقًا سقط، ومَن يطرز ليتذكر الرب، أو بلد المولد أو الحرب.

اختار ألكسندر الأمل الذي يسير بهديه نحو التغيير.

أبدت ليدي جوديث إعجابها:

- أوه أيُّها النَّقيبُ!

لم تقل شيئًا آخرَ، لكنها غمرته بالإثارة.

وجدهم ثيسيجر في الصَّالة المخصَّصة عندما عاد إلى المستشفى .

- مساء الخير، أيها السَّادة الأعزاء المنهمكون في تطريز روائعَ مذهلةٍ!

اتسعت ابتسامته عندما رأى ألكسندر:

- *مون كابيتان*، لقد اخترت إذن أن تقف في الصفوف الأمامية!

شَعر ألكسندر بغرابة أنه يُسخَر منه، ولكنه لم يتضايق كثيرًا، حوله يرى جنودًا ضِخامًا بلِحىً، منهمكين في فحص دقة غُرزة صغيرة، ومقارنة الألوان، والتقارب، والأحجام. كان أمرًا غريبًا ولكنه في ذات الوقت كان مُنقذًا. بعضهم مصاب بجروح خطيرة جدًّا تمنع النوم، ولكن عندما يكونون هنا يبدو أنهم لا يشعرون بشيء.

علقت ليدي جوديث ذراعها بذراع إرنست وأخرى بالذراع الآخر.

- ولن تقول لنا شيئًا.

- أنتنَّ أمازونياتي الأليفات.

ضحكت المرأتانِ، ولكن صمتت ليدي جوديث بسرعة، عندما نزع عنه سُترته.

- ماذا حدث لك يا عزيزي إرنست؟

على ظهره، بُقع القماش بمادة لزجة صفراء.

- آه، هذا، بيض يا سيدتي.

- بيض؟

- سقط من السماء.

- هل تسخر مني.

- لا لم تمطرها السماء، هذا حقيقي.

- إذن؟

- ألقوه عليَّ.

جذب انتباه الجميع. وضع ألكسندر العمل جانبًا. كانت تكفي نظرة متبادلة مع أوليفر وسيسيل ليفهم أنهم هم أيضًا شعروا باقتراب العاصفة.

- مَن الذي ألقاه عليك.

كانت فلورا موراي على الباب، وطرحت السؤال في نبرة حادة، تصريح بالتحذير يعلن بالفعل الدفاعات التي سترتفع. وخلفها بخطوة وقفت كيت، تقابلت نظرتها مع ألكسندر ثم أبعدتها عنه على الفور.

جلس إرنست ووضع ساقه الطويلة فوق الأخرى وهو يتنهد. فتش في جيبه وأطلعهم على منشور.

- كتبه أحد مَن يدَّعي صداقتكم أيها السادة الإنكليز الأعزاء، مجهول الهوية بطبيعة الحال. بعضًا من هؤلاء السادة الذين يقفون في الشارع بالفعل، أصروا على أنني لا بد أن آخذه هو والبيض.

أخذته الدكتورة موراي.

همست بعد الاطلاع على الأسطر الأولى:

- بحقِّ السماء، مَن يمكنه كتابة افتراءات كهذه.

- شخص جبان.

توجهت فلورا موراي للرجال.

- هذا أمر لا يسعدني، ولكن من الأفضل أن تعرفوا ما حدث.

قرأتْ بصوتٍ عالٍ. الأمر يتعلق بتهمة عنيفة نحو سيدات مستشفى شارع إيندل، يتهمون الطبيبات بصفة عامة، وكل مَن يدعمهنَّ بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، ويتحدثون عن عملهنَّ بصفات مثل: مشين، غير صالح، مدمِّر، عدائي، بل وحتى خليع.

عند تلك الكلمة رأى ألكسندر كيت تقفز.

- خليع؟

سألت زميلتها.

- على ما يبدو.

استمرت موراي، بلا مبالاةٍ.

يُقربون «حمقى الحرب» من أنشطة التطريز التي اتخذت مكانها في عديد من المستشفيات، والتي بدأتها النساء بهدف تحويل الجنود العائدين من الجبهة إلى شخصيات هشة ومتحوِّلة ولا يمكنهم الدفاع عن أنفسهم. وقريبًا مَن يدري ماذا سيجنون من هذا، وماذا يستهدفون إذا لم يحاول أحد منعهم. ويشير إلى وثيقة حكومية تعلن أن التطريز «عمل أنثوي

بشدة ولا يليق بالرجال». مزقتْ موراي الورقة إلى أربع مِزَقٍ، العلامة الوحيدة الدالة على الغضب المتصاعد بداخلها.

- يكفي هذا، لا أنوي استكمال هذه الترهات. داخل أسوار هذا المستشفى أنتم في أمان من الإهانات، ولكن العديد منكم سيتركون هذه الأسوار قريبًا. لا بد لكم أن تعرفوا ما ينتظركم في الخارج. ولكنني يجب أن أقول لكم أيضًا أن الصحافة أظهرت حتى الآن تشجيعًا وحماسًا، وأن هذا مجرد منشور. سرعان ما ستمحوه رياحٌ أخرى.

نهض إرنست.

- أيها السَّادة، لم يقل أحدٌ إنَّ هذا الأمر سيكون سهلًا. المجتمع الذي نعيش فيه لا يحب التغيير، ولا التنوع، وأولئك النساء يمكنهم الشهادة على هذا. ألا تبدو مسيرتكم مشابهة لهنَّ؟ هذا يُدعى «الانعتاق». ويعني التحرر من الأحكام المُسبَقة والقيود، هذا يعني أن نكون أحرارًا. ولكن جميع الموجودين هنا رأوا وواجهوا ما هو أسوأ من هذا، وأنا متأكد أنكم توافقونني. ماذا يمكن له أن يخيفنا؟ ما الذي علينا أن نخشاه؟ أنا أقول «لا شيء»، وهنا والآن نحن مدعوون لإثبات ذلك. إذن، هلَّا رفعنا الإبرة والخيط واستأنفنا عملنا؟

ترقُّب، بلا كلمات ولا أفعال. ولكن الأفعال بدأت عندما أمسك سيسيل بالإبرة:

- لن يمنعوني، أبدًا، من إنجاز لِحافَ ابني. يمكنهم بصقُ كلِّ

الكراهية التي يرغبون فيها، ليأتوا ويقولوا لي هذا في وجهي، فأنا لن أتراجع. سأكيل لهم اللكمات حتى أمعائهم.

عانقه ثيسيجر.

- لقد كنت دائمًا المفضَّل بالنسبة لي يا سيسيل.

- أجل، ولكنني لن أُقبِّلك.

بدت العاصفة وقد لمستهم فقط، ولكن ما زال ألكسندر يشعر بالتوتر في الأجواء. مدَّ يده وأخذ قطع المنشور وأعاد تركيبَها على الطَّاولة. لم تُشر إلى صحيفةٍ معينة، ولكنها تبدو مصنوعةً بحرفية. يشك في أنها الوحيدة التي خرجت من المطبعة. ربما امتلأت بها لندن. وتساءل مَن ذا الذي يملك في زمن الحرب أموالًا ويخصِّصُها في عملٍ كهذا، ولأيٍّ غرضٍ.

يستمر الكاتب في التلميح إلى شراهة «النساء الجدد». النساء اللاتي يرغبن فيما يخص الرجال، بل ويطالبن به. ويقارنهن بشراهة الذئبة. ويستخدم تعبير «اضطراب الشهية» ليشير إلى الشراهة المُلحَّة. هذا الجوع للمعرفة والجوع للمستقبل المهني، لأماكن العمل والحِرف، التي كانت والتي لا بد أن تظل بأي ثمن، امتيازًا للرجال.

النساء اللاتي تُركن أحرارًا أكثر مما ينبغي أصبحنَ ذئابًا ذوات طبيعة وحشية وضارية. وليس هذا فقط. بل ويضيف المزيد، يتحدث عن إيطالية بينهنَّ، ويستوحي من اللغة اللاتينية ليكمل بطعنةٍ تهكمية، من خلال أحد معاني المصطلح القديم (*lupanare*)، الماخور. وأراد أن يقول بهذا عاهرة. وفي تحليل أخير أضاف أن شراهة النساء الجدد ربما لن تكتفي بأمور تتعلق بالعمل فقط.

والتهمة الأخيرة تشرح العنوان المختار: *الرجال يرسلون النساء إلى كاليه ويستقبلون «إناث الذئبِ» في لندن.*

شَعر ألكسندر بالاشمئزاز، كان حقيقيًّا، عندما يرغب أحدهم في إهانة امرأة يطلقون عليها دائمًا عاهرة.

وبعد أن فات الأوان أدرك أنه ليس الوحيد مَن قرأ هذا. فخلفه كانت كيت ترتجف.

حاول أن ينهض، ولكن وضعت فلورا موراي يدها على كتفه. كانت دعوة ليتركها هي لتتصرف.

ربما لم تكن مصادفة أن أوقفت الدكتورة موراي القراءة، ربما كانت تحاول أن تحمي رفيقاتها من الوحل. ولكنها، بذلك الوحل، تلون وجهها الآن استعدادًا للحرب.

«ذئاب»، بدت مواري وكأنها تمضغ الكلمة في فمها، وكأنه قرص هضم كبير. في النهاية ابتسمت، بل وضحكت أيضًا بصخب. عندما توقفت، رأى ألكسندر على وجهها أشد تعابيرها عنادًا.

قالت: لا يضايقني هذا، لا يضايقني على الإطلاق. لا بد فقط أن يحاولوا، وأن يضعوا أيديهم على هذا المستشفى. سأمزقها لهم.

٥٦

لحقت كيت بمينا وجوزيف في الورشة، حيث يصنع الصديق أطرافًا صناعية وعكازات. يشتغل جذوعًا وعوارضَ من الخشب استطاعت السفرغيت أن تحضرها من مصانع البلاد مجانًا. تطل الورشة على الساحة، وآنّا تلعب الغُميضة مع عروستها. وتجري نحوها.

- ماما!

ترفعها كيت في مواجهة الشمس البرتقالية الساطعة، فتلون شعرها بالنحاسي والذهبي الوردي. تسللت بين جذوع أوراق القيقب، مثل جنية الغروب.

أطلعتها الطفلة بفخر على الثوب الجديد الذي خاطته مينا لدميتها. أقسمت بأنها ساعدتها وأشارت إليها بالغُرز التي خاطتها. أُصيبَ الجميعُ بجنون غُرز الإبرة في مستشفى شارع إيندل. أفلتتْ آنّا من بين يديها وعادت لتلعب، قبل أن يحلَّ الظَّلامُ.

ما زالا، مينا وجوزيف، يعملان. هي منهمكة في ترقيع المُلاءات وهو أمام المخرطة.

قالت مينا: أنت منهَكة، تعملين أكثر مما ينبغي.

وضعت أمامها فنجانًا وملأته بالشاي. يوضعُ على المدفأة الصغيرة -المصنوعة من الحديد الزهر والمستخدمة في تدفئة الغرفة- آنية من الماء المغلي وبراد شاي لا يفرغ أبدًا.

- ليس لديَّ بسكوت، ولكن بعد قليل سيحين موعد العشاء.

- لا أشعر بالجوع.

- لا بد أن تأكلي.

- لم أفوت وجبةً قطُّ.

- إذن لا تبدئي الآن.

جلست كيت، حلَّت زرَّ بلوزتها الأخير، إذْ يضيق على عنقِها، ولكنَّها لم تتنفس بشكلٍ أفضل.

لم يكن العملُ هو ما ينهكها، بل الأفكار.

جلسَ جوزيف أيضًا، وعلى ركبتيه طرفٌ صناعي. زاد انحناؤه وبياضُ شَعرهِ كذلك.

- هذا هو النَّقيبُ سايمور. قلتِ إنَّ الوقتَ قد حان لنجرِّبَ معه. استخدمتُ نوعَ خشبٍ أخفَّ، ولكنَّه أقوى.

لمسته كيت. كان خفيفًا، ولكن لا يمكنها تقييمه، فهي لا تفهم في الأطراف الصناعية، كما لم يكن جوزيف خبيرًا، فهو يتبع التعليمات الواردة من المصانع، ومن حرفيي المستشفيات العسكرية الذين شاورهم لغرضِ تصنيعها.

سألها الصَّديقُ: هل تعتقدين أنه سيقبله؟

بحثت كيت بنظرها عن آنّا فيما وراء النافذة العريضة. صنعت من وردةٍ خريفية عصاها السِّحريةَ.

قالت: حقيقةً، لا أعرف. يبدو أنه ما زال يصارع مع العكازين. استسلم واستخدم واحدةً فقط، ولكن ليس دائمًا.

- سنكتشف قريبًا.

دارت مينا حولها:

- ما الذي يضايقك؟ تلك الظلال المخيِّمة فوقك ليستْ تعبًا فقط.

أخرجت كيت من جيبها المنشورَ الممزَّقَ وأعادت ترتيبه على الطاولة.

- اليومَ حدث هذا. لمْ أفهم، قطُّ، لماذا كلُّ ما هو مختلف أو يدفع نحو التغيير مخيفٌ إلى هذا الحد.

تغيرت تعبيرات الصديقين من الدهشة إلى الضيق وفي النهاية إلى الألم. كرمشت مينا قطع الورق وألقت بها في المدفأة.

- مَن كتب هذا لا يستحق انتباهك، ولا انتباه رفيقاتك.

- يفكر الكثيرون فيما قلته للتو.

- إنها ليست كلمات، بل صفعات. هذا وحلٌ.

ربت جوزيف على يدها.

- بعض الرجال يستخدمون الإهانة، عندما لا تكون لديهم طرق أخرى للتفوق.

- أريد أن أصرخ.

- افعلي!

لم تفعل كيت هذا، واحتقرت التربية المتحفظة التي عانت منها معظم حياتها. أحيانًا تخنقها.

جثتْ مينا بجوارها وحذرتها:

- حان الوقت لتتحلي بالقوة يا كيت العزيزة. لأنَّ الضغوط ستكون عليكم قوية أيضًا. ولكنها علامة جيدة: معنى هذا أن ما تفعلونه قادر على تغيير الأوضاع. إنَّ مَن كتب تلك الاتهامات المشينة مرعوبٌ، لأنه يشعر أن الأرض بدأت تنسحب من تحت قدميه.

أخذت كيت تنظر إلى خاتم الزواج في إصبعها، منذ فترة وهي تشعر به يخنقها وإنْ كان واسعًا.

بدأتْ اللَّحظة التي ستتحرر فيها المرأةُ تظهرُ في الأفق، ولكن ما زال أمامهنَّ طريقٌ طويلٌ.

مساءً، قررت أن تقومَ ببعض تلك الخطوات في ذلك المساء بالمستشفى.

نهضتْ.

ونهضت مينا أيضًا.

- إلى أين أنت ذاهبة؟

- لأقول للعالم في الخارج كيف أفكِّر في الأمر.

خرجت حاملةً آنَّا، وعبر السلالم حضرنَ الأُخريات. نادت عليها غريس وهزيل، لقد عرفتا ما حدث، ولكن كيت لم تبطئْ سيرها، عبرت

الساحة تحت وهج السماء الحارقة، الحمراء مثل الدماء الساخنة التي تشعِلها، مثل دماء ذئبة. شدت ياقتها وشعرتْ بالزرِّ يطير. إنَّها تتنفس الآنَ.

رجال بلا شجاعةٍ ليكشفوا عن هُوياتهم يعتقدون أنهم يهينونها ويسبونها، ولكن الجزء الإيطالي من كيت يعرف جيدًا قصص الذئاب، الذئاب الحقيقية، لا ذئاب الأساطير، أو تلك المذكورة في التعبيرات اللاتينية.

تعرف كيت قصص الذئاب، وتعرف قوة الذئبة، تعرف معنى الإخلاص للقطيع، والميل الطبيعي للعناية، تعرف الإقدام والشجاعة. ولا بد أن تعلم صغيرتها معنى الشغف بالحياة.

فتحت البوابات على مصراعيها، متجاهلة عسكري الحراسة. كان الرصيف المقابل للمستشفى مغطىً بمنشوراتٍ، تنثرها الريحُ من حين لآخر، وتوزعها كأوراق لليد الأخرى في لعبة أوراق ما زالت في بدايتها.

لم تكن سوى أوراق، ممزقة بالفعل، ومتَّسخة. سرعان ما ستبتلعها الشمس والأمطار.

- ماذا تفعلين يا ماما؟

- أتحرر يا حبيبتي.

ممسكةً بالقضبان، أرادت كيت أن تصرخ للعالم هناك بالخارج أنها لن تتراجع من هنا.

لم تصرخ ولكنها عوت. سخرت من ذلك العالم الأحمق. فعلت ذلك بجنون، بروح ثائرة، مثل طفلة عادتْ للطبيعة. وقلدتها ابنتها.

لم تكن الوحيدة. انضممنَ الأُخرياتُ لعوائهما. غريس، هيزيل، أولغا، الممرضات اللاتي انتهين للتو من نوبتهن.

وانفجرنَ «ذئباتُ» مستشفى شارع إيندل، ضاحكات متعانقاتٍ. وعندما أغلقن البوابات، دخلنَ مجدَّدًا تمسكُ كلٌّ منهنَّ بالأخرى.

مكتبة
t.me/soramnqraa

٥٧

حلم ألكسندر، في تلك الليلة، حلمًا داميًّا. كان في مزرعة العائلة، في متاهة الجنيَّات التي أقامها جدُّ أبيه. كان يعرف جيدًا طريق السياج، ويمكن أن يُعرِّف كل ركن باسمه، كل منعطف خفي. علَّمه العامل كيف يخرج منها منذ طفولته، منذ أن هرب مرة من رقابة المربية وتاه في الداخل. يعرف كيف يضع يده لتظل ملتصقة بالجدار ولا يرفعها، ويتبع الاتجاه الوحيد الذي يسمح له بالخروج. يمكنه الوصول إلى جدار يسد الطريق، أو يعود مرة أخرى إلى نقطة الانطلاق، ولكنه كان دائمًا يجد طريق الخروج ولا يفقد إحساسه بالاتِّجاه.

في الحلم، لم يكن ألكسندر بمفرده في المتاهة. كان معه صمويل أيضًا. ضوءُ الفجر مكتسٍ بالزُّرقة، وصمويل يسير أمامه، عاريًا ينزفُ، بينما الأرضُ مرصوفةٌ بلحمٍ بشريٍّ.

استيقظ ألكسندر فزعًا، باكيًا، يبلله العرق. مسح دموعه بسرعة، وتماسك. اغتسل وبدل ملابسه، ولكن بدا له أنَّ لذلك اليوم مذاقًا فاسدًا. الشمسُ ساطعةٌ والطقس دافئٌ، ولكنَّ الضوءَ أكثرُ حدَّةً من أيِّ وقتٍ مضى.

عندما أطلَّت أولغا من الباب ونادت عليه، تأكَّدتْ مخاوفه.

- زيارة أيها «الجنرال».

اعتدلَ ألكسندر مستندًا على مرفقيه، ودخلت كارولين إلى الغرفة وكأنها هالة يحيط بها حريرٌ أزرقُ وياقة من فراء ثعلب أبيض. كانت لها القدرة على إدهاش الحاضرين.

لاحظ ألكسندر ترددًا خفيفًا عليها، عندما تقاطعت نظراتهما، ولكن كانت سحابة عابرة. حتى هو شعر بمعدته تنقبض.

قبَّلت كارولين وجنتيه. بدت القبلة على جهة الندبة متذبذبةً.

- ألكسندر!

نطقت اسمه وكأنها لا تصدق حتى الآن أنها تراه أمامها.

دغدغ شَعرها وجهه. لم يكن يتذكره أحمرَ مثل الياقوت إلى هذه الدرجة.

جلست كارولين ممسكةً بيده. رآها تنظر نظرة مرتبكة نحو القماش المطرز الموضوع على طاولة السَّرير الجانبية.

- كيف حالك يا ألكسندر؟

كان مذهولًا، وكأن كارولين تأتي من ماضٍ سحيق. لا بد أن يستعيد الكثير جدًّا من حياته، من تلك الحاضرة. بدا الزمن في مستشفى شارع إيندل قد توقَّف، ليسمح بترميم الجسد والنفس.

- أنا بخير.

- نشكر الرَّبَّ.

يصعبُ على ألكسندر التفكير في الرَّبِّ. ثمَّة الكثير من الأمور العالقة بينهما.

- الشكر لمن أنقذني واعتنى بي.

- بالتأكيد.

تنحنحت كارولين، ثمَّ صمتتْ.

رأى ألكسندر الآخرين يخرجون من الغرفة، وأشار له سيسيل إشارةَ إعجاب أخجلتْ كارولين.

نظر إليها ألكسندر طويلًا، حاول أن يأخذ ما يلزمه من الوقت ليستعيد الثقة التي كانت متبادَلة بينهُما، واستطاع ذلك بعد عناء. بدأتْ كارولين تحكي له الأخبار في عزبة سايمور، مشاريع أبيه، ونقلت له تحيات الجميع وتمنياتهم له بالشفاء، قائمة لا نهاية لها، والتي وجد ألكسندر صعوبة في تذكر الوجوه والأسماء فيها. أراد أن يوقفها ويقول لها أنه لا يوجد شفاء ممكن، وأن الجرح غيَّر جسده ونفسه وذهنه إلى الأبد، ولكنه لم يفعل.

تأمَّلها. تصدمه عيناها. لم تكن حدقتاها زرقاويْن فقط، بل بلونِ التركواز، غريبة المصدر يصعُب معرفة أصلها. لم يرَهُما قطُّ غاضبتيْنِ، أو لا تشتعلانِ انفعالًا، ويبلِّلهما الألمُ... لم تحدِّقا فيه بنظرة اتِّهامٍ أو تحدٍّ.

لم يكن خطأ كارولين، لقد تربت على أن تكون شفافةً، وبالتالي وهو الشيء المتناقض، قاتمةً. كان ما يُرى من خلالها هو ما يمكن أن يتوقعه الآخرون منها. لا بد أن الأمر يتعبها كثيرًا، ولم يدرك هو ذلك من قبلُ.

عثرت كارولين على الوقت لترسم شفتيها وتفتِّح بشرتها بالفرشاة. شعر ألكسندر برائحة شعرها تتكسَّر في موجاتٍ على وجههِ، في كلِّ مرة تحنى فيها عنقها وتقتربُ منه، تحيطه بحرارة بدأ ألكسندر يشك فيها. كان متأكدًا من أنها استمرت في تصفيف شَعرها بمكواة الشعر حتى في اللحظات الأكثر درامية، حتى وهو يعبر طريق الآلام ليعودَ وليظلَّ على قيد الحياة، وأيضًا عندما كانت كيت هيل تبترُ له ساقه.

لم تكن مسألة عدم اكتراث، بل قسوة. تتشبَّثُ كارولين بوضعها الاجتماعي.

- أنا سعيد برؤيتك.

قال لها، وهو يوقف حديثًا لم يسمع منه كلمةً واحدةً.

بدتْ محرجةً لوهلةٍ.

- لم آتِ من قبلُ لأنني كنت أشعر بالخوف يا ألكسندر. الأمرُ ليس سهلًا.

- وليس سهلًا، حتَّى الآنَ، لكِلينا.

لم تكن لديه نوايا لإلقاء اللَّوم عليها. تهلَّلَ وجهُها بابتسامةٍ.

كانت جميلةً بشكل مدهش ورائعة، وبعيدة.

قال لها: رائعة الجمال.

تظاهرت هي بالتأثر، خفضت عينيها وحركت رموشها. لا بد أنها سمعت هذه الكلمة مرات لا نهائية، مرات كثيرة جدًّا إلى حد أنها تتوقعها مثل توقعها للنَّفَس التالي، دون حتى أن تفكر. لا دهشة، ولا اضطراب،

فقط تأكيد هادئ لما تراه في كلِّ مرة تسأل فيها المِرآةَ. إلاَّ أن ألكسندر باتَ يعرفُ الآنَ جيدًا أن لا شيءَ يأتي بسهولةٍ، ولا حتَّى شعوره بالحكة في ساق غير موجودة. بدتْ طفلةً ضائعة بلا قلب.

استمرت كارولين في التحدث عن المستقبل وهي توجه له أسئلة لا تنتظر إجابتها. كأنَّها تلقي بالطعم، تجسُّ الأرض، تُعد ألكسندر لما هو حتميٌّ: حياة أعدَّها له الآخرونَ.

- أعدَّ أخوك المكتب، بالفعل، ليكون في استقبالك، واتَّصل أبوك بأفضل الأطباء في لندن، مستعدًّا لدفع أي مبلغ.

- هنا، في مستشفى شارع إيندل، أفضلُ الجرَّاحين.

بدتْ على كارولين الدهشةُ.

- ألكسندر، لا تمزح. أنا أشير إلى أخصائيين. يمكنهم أن يقلِّلوا بطريقةٍ كبيرة آثارَ الإعاقة.

- هل سيمنحونني ساقًا جديدةً؟

- لماذا تعذبني بتلك الدُّعابات؟ ولماذا تعذب نفسك؟ الحرب انتهت بالنسبة إليك.

- بالنسبة إلي. أُصبتُ.

- الجراحون الذين تواصل معهم والدك؛ أكدوا أنَّ بوسعهم تقليل العرج. وأنك بطرف صناعي يمكنك أن تسير مثل شخص طبيعي.

- طبيعي.

- ألكسندر، لن يلحظَ أحد.

- وأنت يا كارولين؟ هل ستتجاهلين؟ هل ستتجاهلين أنَّ الرَّجُلَ الذي تحتَ الثِّيابِ مبتورٌ؟

- من فضلك! لا أريد أن أسمع تلك الكلمة، إنَّها كلمة بشعة.

- أوه! أهي كذلك. كلمة مشوهة، متوحشة.

- أرجوك!

جذبها ألكسندر نحوه.

وعندما نتزوج، هل عليَّ التَّظاهر أيضًا في غرفة النوم؟ أن أتغطَّى في الظَّلام.

رآها وقد جحظت عينيها.

- أم ستتمكنين من أن تنظري إليَّ كما أنا في الحقيقة؟

لم تجب.

- حاولي أن تساعديني على النهوض يا كارولين؟

- ماذا؟

- ربما أحتاج لمساعدتك للقيام ببعض الأمور.

- أي أمور؟

- على سبيل المثال الدخول والخروج من حوض الاستحمام. ساعديني على النهوض من فضلك.

- أوه يا ألكسندر. سنعين لذلك خادمين قويين يمكنهما متابعة مثل هذه الأمور.

لم يهتم ألكسندر بما تقوله. وضع نفسه في وضع الاستعداد بذراعيه. لم يكن يهمه لو سقط من يديها، أو آلمته، لأنها تحاول، تجرؤ، لأنَّها تقترب منه لكيلا تشعرَهُ بوحدته أمام ذلك التحدي.

- ساعديني على النهوض يا كارولين، ليس لأنه واجبكِ، بل لأنها رغبتُك.

رأى الاضطرابَ يرتسم على وجهها، والفزعَ والإحباط.

- لن يمكنني أبدًا أن أسندك يا ألكسندر، لستُ بهذه القوة.

تساءل هو، عن أي ثقل تتحدث في الواقع، ثقل جسده أم ذلك الاعتبار المثير للشفقة الخاص بشخص معاق؟

- ليست مسألة قوة، بل رفع.

- أنت تربكُني.

- نجحتْ في ذلك امرأةٌ.

بدأتْ كارولين تغضبُ.

- لا بد أنها ضخمة جدًّا.

- لا.

- إذن لنعينها هي إذا كانت تعجبك.

شعرَ برغبة في الضحك من اليأس.

- أتعرفين، لا أعتقد أنها للبيع؟ بغضِّ النظر عن الثَّمن الذي قد يدفعه أبي.

- أحيانًا لا أعرف إذا كنت تسخر مني أم تتحدث بجدية.

- أنا جادٌّ بشكل مخيف. أنا جادٌّ إلى حدّ أنني أفزعتُك. آسف يا كارولين إذا كنت قد أفسدت خطتك. فأنا جاد إلى حد أنني لا أستطيع الصمت: لا أعرف إن كان يمكنني العودة لأكون الرجل الذي سبق وعرفتِه.

- لا تكن أحمقَ. بالتأكيد تستطيع. ستعود إلى المنزل، وسيكون لديك عمل، وستصبح زوجًا حنونًا وأبًا مثاليًّا. بهذا الشأن، غرفة الأطفال معدَّة بالفعل. أمك وأنا ملأناها بلُعبك ولُعب أخيك، بالإضافة إلى اللعب الجديدة بطبيعة الحال. سيكونون أطفالًا أصحَّاء وأقوياء، ولن يتحدث أحدٌ عنهم بسوء.

كارولين أيضًا سقطت في هاوية التظاهر الذي ابتلعت عائلته. يخططون بلا هوادة ليخلقوا وهمًا بحياة طبيعية، ولكنها حياة مزيفة، مجرد كذبة، ألكسندر لا يرغب أن يجبره أحدٌ عليها.

- لماذا تفكرين بأن أحدهم يمكن أن يتحدث بسوءٍ عن أطفالنا.

رفعت كتفيها ونظرت إلى خارج النافذة.

- أنت تعرف الأشياء التي تُقال عمَّن أصبح في مثل حالتك. يقولون أشياء سيئة. لن تنقل أي ضعف إلى سُلالتك. سأل أبوك رأيًا طبيًّا ولن يولد الأطفالُ عُرجًا ولا ضعفاء.

- ماذا فعل؟

ابتسمت كارولين ابتسامةً خفيفة.

- من حقه أن يتأكد، ألا ترى ذلك؟ وأنا أيضًا أشعر الآن أنني أكثر هدوءًا.

همَّ ألكسندر بالضحك من كمية الغباء تلك، ولكنه لم يكن قادرًا بعدُ على ذلك.

هل بالفعل يريد أن يشارك حياته مع أشخاص بهذه العقلية المسكينة؟ هل بالفعل يريد أن يحكم على نفسه بكل هذه التَّعاسة؟ حتى ولو كان أبناؤه من الكريستال، شديدي الهشاشة إلى حد أنهم يتحطمون من كل شيء، كان سيحبهم في كلِّ الأحوال.

تحدث بصوت منخفضٍ.

- لم يعد كل شيء فيَّ يعمل كما كان.

ارتجفت شفتا كارولين.

- ماذا تقصد... ما هذا الذي تقصده.

أنزل هو نظرته إلى سرواله.

- لقد فقدت رجولتي. لا أعرف إذا كان السبب هو الانفجار أم موت صمويل، مات صديقي هل تعرفين؟ أو ربما التطريز السبب. ليست لديَّ فكرة إذا كانت مشكلة مؤقتة أو دائمة. على كل حال، السؤال الذي ينتظر الإجابة عليه هو سؤال واحد فقط: هل أنت مستعدة أن تظلي بجانبي؟

تحجَّرتْ. كانت لحظاتٍ محرجة، ولكن سرعان ما استعادت كارولين تماسكها. خلعت خاتم الخطوبة ببطءٍ، ووضعته على المُلاءة. أرسل الياقوت والماس وميضًا باردًا مناسبًا جدًّا لهذه اللحظة. فكَّر بأنها بالفعل فتاة استثنائية. استثنائية في القسوة والجُبن والخداع. ستنجو دون أن تفقد الكثير من كرامتها. شرد بتفكيرِهِ في حرصه عليها. لن يلومها أحدٌ لأنها

لم تسانده في محنته. ستكون لدى المجتمع المحترم مادَّةٌ للنَّميمة تكفي لأسابيعَ قادمةٍ.

- الوداع يا ألكسندر!

٥٨

لم يُسعف الوقت كيت لترحل. خرجت المرأة من الغرفة وعبرت بجوارها وتلامست ملابسهما دون حتى أن تراها. كانت جميلة جدًّا وكأنها لا تنتمي لهذا المكان إطلاقًا. رائعة جدًّا حتى أنَّ كيت شعرت بأنها مُهلهلة مقارنةً بها.

ظلت واقفة، والطرف الصناعي بين ذراعيها، وقد عصفَتْ بذهنها كلماته الأخيرة وجملة الوداع التي تلفظت بها المرأة. لا بد أنه المشهد الأخير في كوميديا قائمة على سوء الفهم، لأنها الطريقة الوحيدة لشرح هذه النهاية الدرامية جدًّا. ولم تفهم أيضًا إشارةَ النَّقيبِ للعطب الجسدي الذي أكد لها أنه غير موجود. تلك المرأة أحبته. قرأتْ كيت كلماتها العاطفية التي أرسلتها إليه. أين انتهى الحب؟ أحيانًا يمنعنا الخوف من الشُّعور به.

أدركت أنها في المكان الخطأ، وفي اللحظة الأكثر خطئًا، لتعرض لِمَن رُفض لتوِّه بسبب إعاقته، لتعرض عليه مهدِّئًا لن يعيد جسده إلى سابق عهده.

تراجعت للوراء، ولكن صوت ألكسندر نادى عليها.

- إلى أين أنت ذاهبة بتلك الساق الخشبية؟ ادخلي؟

دخلت، كان النَّقيبُ قد نهضَ ووقف ينظر من النافذة على ساق واحدة.

قررت كيت أن تتظاهر بلا شيء.

- سواء أردتَّ أم لا، الآن ستجرب هذه الساق.

وضعتها على الأرض، وركعت مسلحة بالأحزمة والمشدَّات. عندما لمست البتر، خشيت من رد فعل عنيف، إلا أنه تركها تفعل ما تريد. سمح لها أن تصل بيديها حيث لن يسمح لها أن تفعل بالمثل مع الأفكار والكلمات أبدًا، وسط هشاشته الحقيقية. بدا وكأنه ينظر للسماء، ولكن في ذلك الجزء من السماء لم يكن هناك شيء سوى اللون الأزرق الشبيه بثوب المرأة التي خلَّفتْ عطرها في الغرفة. تساءلت لو كان فتح النافذة ليخرجه ويتحرر منه.

أخذت كيت تثرثر لتتجاهلَ التوتر:

- ربما ستكون غير مريحة في البداية. سيحتاج جسدُك فترةً للاعتياد عليها، سيغير شكله، وسيخف الضيق بالتدريج. ما زال العظم يتعافى، ولكن من المهم البدء في تحضيره. عمل جوزيف على هذا الطرف حتى وقت متأخر من مساء أمس ليُعدَّه لك. قال لي إنه الطَّرف الخاص بالنَّقيبِ. هل تتذكر البصمة التي أخذتها منك؟ كان هذا هو الغرض منها.

استعادَ حضوره: تتحدثين كثيرًا اليوم.

- أنت لبِق حقًّا، تقصد أنني أتحدث «أكثر مما ينبغي»، ولكنك لم تقل هذا.

- وتسمعين كثيرًا، مختبأةً خلف الأبواب. هل يعلمونكم هذا في الجامعة؟

- لم أكن مختبئةً...

قيَّم الطرف متجهمًا. حرك ثقله، وحاول الخطو به.

- كيف تخيلتم إمكانية عودة الرَّجُل إلى حياته الطبيعية بشيء مثل هذا؟

- الأمر يحتاج إلى وقتٍ.

- إنه مؤلم وغير مريح، وثقيل.

نهضت كيت.

- الجميع ينجحون في هذا، وأنت أيضًا ستنجح.

فتح ألكسندر الأحزمة ونزع الطرف الصناعي وألقى به من النافذة نازعًا صرخةً من كيت.

- هل جُننت؟

نظرت لأسفل، ووجدت الطرف الصناعي محطمًا.

- ربما أُصبت أيضًا بعطب شديد، لم نشخِّصه، في رأسك.

كان يقلب الخاتم الفخم بين أصابعه، وقبل أن تحدس أي شيء من نواياه ألقى به بين أشجار الحديقة.

- حضرتك مجنون.

- ربما مجنون غضبًا.

شعرت كيت بالغضب يتصاعد بينهما، ولكنه لم يكن يستهدفها. استطاعت أن تفهمه نوعًا ما، ولكنها لم تستطع قبوله.

- لا بد أن تُحسن التصرف يا ألكسندر، إذا أردت أن تستعيد زمامَ حياتك.

ضحك بسخرية.

- يبدو لي أنني فعلت هذا لتوِّي.

- التدمير والتذمر وتدمير عمل الآخرين ليست من أنواع ردود الأفعال التي قصدتها.

- لا يمكنك أن تفهمي. لديك زوج وطفلة، عائلة و...

كان ذلك ما يفزعه، شبحُ الوحدة؟

- أخطأت. لديَّ ابنة وليس لديَّ زوج.

لم يبدُ مندهشًا. بدا ذلك التأكيد الذي يبحث عنه.

- يؤسِفُني هذا.

- لا تتأسف عليه. لم يمُت. لم يكن موجودًا، قطُّ.

شعرت كيت بقلبها يدق بطريقة غير منتظمة، حتَّى هو جُنَّ. لم تندم أنها قالتها، إذا كان ذلك الرجل يحتاج لشيءٍ ما الآن، فهو في أمَسِّ الحاجة للصدق. فهو لا يحتاج لمن يواسيه بل لمَن يستوعبه.

- لست امرأة متزوجة، ولم أتزوج قطُّ. كما يمكنك أن تفهم جيدًا، أعرف جيدًا معنى الإهانة والرفض. بل والإحباط والألم. يمكن للمرء دائمًا التقدم للأمام حتَّى دون حماية رجل، بل وبساق واحدةٍ.

اتجهت نحو الباب، ولكنها شعرت بواجبها في إيضاح شيء.

- الآن سأذهب لأجمع ما حطمته، ولكنني أريد أن أخبرك بشيء أخير. بمجرد أن تخرج من هنا، ستُعد بطلًا في كل الأحوال. ولا أشك في استطاعتك استعادة تلك المرأة لو أردتَ. وبالتأكيد لن تعيش على قارعة الطريق. إلاَّ أنك ستظل تشكو، وتفكر في إساءة الحياة لك. هل تريد أن تأتي إلى مستشفى شارع هارو لترى ما رأيته أنا. الأطفال المولودون بإعاقة وعليهم الاعتماد على التسول طوال حياتهم. أطفال في الطريق بُترت أطرافهم من عبور عربة لم تحاول حتى أن تتوقف، والذين تعلَّموا أن يلعبوا الكرة بقدم واحدة، أو أن يأكلوا بقدم، لأنهم فقدوا أيديهم في مصنع. رأيت نساء يحاولن إرضاع ما تبقى في أثدائهن، بعد ثورة زوجٍ عنيف. أنتم الجنود لا تواجهون أي شيء مقارنة بما واجهوه النسوةُ والأطفال وتجاوزوه، وليس الآن فقط ولكن منذ الأزل، دون أن يرغب أحدٌ في رؤية هذا. تذكَّر هذا، عندما يبدو لك ثقل الظلم أشد من احتمالك.

ذهبت كيت وهي تسيطر على خطواتها حتى لا تركض، بينما تضع يدها على صدرها لتهدأ.

شعرتْ أنها كانت متهورة، ولكنَّها تحرَّرتْ أخيرًا.

٥٩

كلُّ قصر بناه بعناية في ذهنه تحطَّم، وكل إيهام أصبحَ رمادًا، ولكن ألكسندر لم يشعر أنه منهزم، ولم يكن لديه تفسير. لقد ترك الاضطراب مكانه للوضوح والإحباط، إلى جرعة شجاعة.

بدت كلمات كيت جَلدةَ سياط. في زمن آخر كانت كرامته ستدفعه ليطلق عنان الشك ويسير في الاتجاه الخاطئ، إلاَّ أن ألكسندر اليومَ يشعرُ باحتياجه لعملِ شيءٍ ما، وألاَّ يظل مكتوف اليدين، فما زالت اليدان موجودتين.

- هل كل شيء على ما يرام؟

تحدث أوليفر بعد أن دخن بضعَ أنفاسٍ من سيجارته، متَّكئًا بمرفقه على حافة النافذة. كانت نافذة الغرفة هي نقطة مراقبة المستقبل، حتى وإن لم يروا من خلالها سوى أسقف المنازل. من موقعهم هذا يتأمَّلون المستقبل، محاولينَ منحه شكلًا معينًا ليستوعبوا مواقعهم فيه.

رفض ألكسندر نفَسًا من السيجارة.

- كلُّ شيءٍ على ما يرام.

وإذا لم يكن على ما يرام بعد، سيكون كذلك عن قريب، بطريقة أو بأخرى.

لم يقل الكثير عن اللقاء مع كارولين، ليس ثمَّة ما يُقال، أراد فقط التأمل في الموقف، فالأفكار تداهمه عندما يلتزم الصمت.

خمَّن رفاقه ما حدث، ولم يسألوا.

- هل تأتي معنا إلى جناح الكنديين؟ لقد أعدوا دورة لعب بوكر.

- لاحقًا، ربما.

- كما تريد، ولكن لا تفكر أكثر مما ينبغي. النَّدم لن يقودك إلى أيِّ مكان، سواء كان الأمر يتعلق بامرأة، أو بنقود لتعيش بها أو حتى بجزء من جسدك. أحيانًا يكون الفقد أفضل.

ألقى بعقب السيجارة وكاد أن يسقط على رأس ملازم. هناك توجد فرقة من الجنود تدفع ثلاث عربات كبيرة على حصى الساحة. كانت مغطاة بنسيج أخضرَ قاتم، ومن هيكلها يمكن التكهُّن بمحتواها.

استدعى أوليفر انتباهَ جنديين بصفارة.

- إلى أين تأخذون تلك المدافع؟

- إلى السطح، سنحملها قطعة قطعة. إنها من أجل المدفعية المضادة للطائرات.

استمرت مناطيد زبلين في القصف، ولكن لم يستطيعوا بعدها أن يذهبوا إلى أبعد من قرى الصيادين. أزاح جنديان غطاء العربة، وانهمك الجميعُ في إفراغ أجزاء المدفعية.

بصق أوليفر نحو الأرض.

- إنَّه مدفع ميداني.

رفع أحدهم رأسه لينظر إليه، وهو متقطع الأنفاس. كان الآخرون جميعًا نحيفي البُنية مثله. اختاروهم بعناية ليحملوا كلَّ هذا المعدن لخمسة طوابق.

قال لهم: لا أعرف ماذا يريدون أن يفعلوا بصنيعهم هذا. يكفي أن يطلق النيران.

أطلَّ ألكسندر ليلقي نظرة. لم تكن هناك دعامة ولا منصة.

- زاوية الإطلاق أربع عشرة درجةً، إنه ميداني. لا بد من وضعه على الارتفاع المضبوط وإلا سيُطلق إلى الأمام بدلًا من الإطلاق إلى أعلى.

حذرهم، فأجابوه بأنهم سيفعلون ما يؤمرون به، لا أكثر ولا أقل.

قال أوليفر: أولئك لم يروا حربًا على الإطلاق.

لم يشعر ألكسندر أنه يرغب في الكذب.

- لحسن حظهم، أليس كذلك؟

- أجل، إذا لم يكن عليك الاعتماد عليهم في حالة قصف.

ربت على ظهره، ولكن بيده اليسرى التي كانت بعيدةً جدًّا من أن تكون صفعته الشَّهيرة التي أوقعَ بها أكثر من رفيق.

- سأذهب لألعب من أجل بعض الفكة. سأنتظرك.

لم يفكر ألكسندر في اللحاق بهم، أخذ يتابع عمل الجنود حتى

اختفوا عن نظره ولم يعد يستمع إلى صوتهم المتعَب وندائهم على الدَّرج، ثم بعد ذلك الضجيج على السطح.

عندئذ نزل إلى الساحة. هناك فيما وراء الأشجار، وفيما وراء الحديقة الصغيرة، توجد ورشة النجار. راقبها منذ فترة طويلة.

كان أوليفر على حق، الندم لن يقوده إلى أي مكان، ليس إلا مضيعة للوقت، ولكن هذا لا يعني أنه لا يجب إصلاح الأخطاء.

عبَر الساحة ودخل. لم يدرك النجار المسنُّ وجوده، تقول كيت إن اسمه جوزيف. كان منهمكًا في صناعة طرف صناعي جديد. تمرر يده المجعدة المكشط على الخشب بعناية ودودة، محررة شكله من الزوائد التي تتساقط على الأرض في شرائط شقراء ملفوفةٍ. على أحد الجدران كانت تُعلَّق رافعة مفكوكة، مثل تلك التي استخدمتها كيت لتنقذه في يبر.

تقدم ألكسندر خطوة للأمام ليعلن عن وجوده. فزع جوزيف، ونظر إليه بعينين واهنتين. كم من الأتربة ونشارة الخشب تحملتا.

- هل يمكنني مساعدتك؟

أشار ألكسندر إلى الطرف المكسور في إحدى الزوايا.

- أعتقد أنه كان لي.

- إنه لا يصلح الآن سوى حطبٍ للموقد. ربما تخيَّلت بأنَّك تمسك بقذيفة في يدك.

- فكرت بذلك بالفعل بسبب ما كنت أشعر به آنذاك، وكنت على وشك الانفجار. أعتذر.

- ليست سوى قطعة خشب، ليس لها قيمة كبيرة. وبالنسبة إليك، كما هو واضح، لم يكن تأثيرها جيدًا عليك.

جلس ألكسندر على قاعدة خشبية، حيث بدأ الجرح يؤلمه بسبب طول وقوفه.

- بل لها قيمة، قيمتها في كل العمل الذي تطلَّبته منك، ولكنني أعتقد بإمكانية رفع قيمتها من خلال بعض التحسينات.

أمسك بيده بقطعة غير مصقولة من أحد السلال، لم يعد الأمر يخيفه الآن.

- نظرًا لأنني جربتها يمكنني أن أخبرك ما يمكن تحسينه.

ضحك المسن: هل أتيت لتخبرني كيف أقوم بعملي.

- أتيت لأطلب منك أن نصنعه معًا. سأضعُ لك عظمي المبتور في خدمتك. لديه الكثير ليقولَه.

تفحَّصه جوزيف باهتمام.

- ماذا سيقول على سبيل المثال؟

رفع ألكسندر كتفيه.

- القالب كبداية. لا بد أن يتناسب مع البتر ولا يضغط عليه. وموضع ربط الأحزمة، في هذا الوضع ينغز في اللحم، لا يمكن تحمله ويسبب تقرحًا. ثم هناك تفاصيل أخرى مثل نقطة الارتكاز التي لا تمنح أي ثبات، حاليًا، ربما قطعة من الجلد يمكنها المساعدة في هذا الشَّأن. تلك هي التعديلات الأكثر أهمية.

حكَّ جوزيف رأسه أسفل قبعته.

- يبدو كآلة تعذيب.

- هو بالفعل كذلك، لأن مَن صمَّمه لا يحتاجه.

أدرك ألكسندر أنه يتوقع رد فعل الآخر بشكل سريع. فهو لديه أخيرًا خطة في حياته، حتى وإن كانت تتكون حاليًا من حجر وحيد يمكنه وضعه.

- إذن هل يمكنني البقاء؟

ألقى له جوزيف بمريلة.

- لن أضع فقط ما ستقوله لي ساقك، أحتاج أيضًا ليدِ المساعدة.

٦٠

أصرَّ ألكسندر أن يتركه جوزيف ليعمل حتى وقت متأخر، ونام بضعَ ساعاتٍ بين المكاشط والمناشير، لأنه كان يشعر بالتعب الشديد فلم يستطع الوقوف على قدم واحدة ويذهب إلى غرفته. عندما استيقظ، بعد أن نام على أرض الورشة، وجد نفسه محتضنًا وسادة تفوح منها رائحة اللافندر، ووجدَ لِحافًا فوقه. كانت الشمس تدخل من النافذة وتسخن الدعامات.

في ساعات الظلام شعرَ بصمويل جواره، كان أخيرًا وجودًا هادئًا. مَن يدري ما رأي صديقه لو رآه ينجرُ الخشب الذي طالما أحبَّه.

عاد إلى الجناح ووجده مشغولًا بنشاط الصباح الباكر، استقبلته رائحة القهوة والشاي بالسُّكَّر والشوكولا الساخنة التي يوزعنها الممرِّضاتُ على المرضى، وشعر أنه جائع بشدة، للطعام وللحياة.

مرَّ أمام غرفة مكتب الممرضات. كانت كيت تنهي نوبتها وتترك التعليمات. توقف لينظر إليها. وتساءل متى انتقل من التفكير فيها على أنها «دكتورة هيل» إلى «كيت». عندما أدركت وجوده، صرفت الممرضة.

- توجد نشارة خشب على شعرك أيُّها النَّقيب.

نفضها بعيدًا.

– لقد عملتُ مع صديقك، جوزيف.

أفلتت منها شبه ابتسامة. جعل التعب عينيه لامعتين وزاد من حدة وجهه.

– رأيتُكَ. كانَ سريرُكَ خاليًا أثناء جولتي الأخيرة أمسِ، وفكرت أنك هربت متسترًا بالظلام.

– دون أن أودعك؟

اتَّكأ ألكسندر على الجدار.

– لقد بحثتِ عني إذن. ووضعتِ فوقي لِحافًا.

ثبتت كيت نظرتها على السجلِّ الذي تظاهرت بأنها تكمله.

– مَن يهرب نادرًا ما يودع أحدًا، ألا تعرف هذا؟ أتخيل أنك تفضل النجارة على التطريز.

– سأنهي التطريز أيضًا وسأهديه إليك، وهكذا تتوقفين عن استراق النظر.

نظرت هي إليه:

– منذ متى...؟

– كل مرة تستطيعين فيها ذلك.

وكإجابة أشارت إلى الممر خلفه.

– ينتظرك أصدقاؤك في صالة التطريز.

– أعتقد أنني سأذهب لألقي بنفسي على السَّرير.

نهضت كيت.

- انتظر. قالت لي الممرضة أن أبا أندرو أتى لزيارته. وهو معه الآن. وطلب لحظةَ انفرادٍ بابنه.

تهشَّم مزاج ألكسندر الجيد متشنِّجًا.

- وسمحتم له؟

مكفهرَّةً:

- ليست لدينا السلطة لكي نمنعه. وإذا شك مجرد الشك في هذا، يمكن لذلك الرجل أن يأخذ أندرو بعيدًا.

- إلاَّ أننا لا بد وأن نحميه.

- معنا، أجل.

نظر ألكسندر إلى الغرفة المغلقة، على بعد ثلاثة أبواب. لو كان الأمر بيده... ثم شعر برغبة في الضحك.

- ماذا بك؟

- كنت أفكر أنني لن أستطيع حتى أن أوسعه ركلًا.

في تلك اللحظة فُتح الباب، وخرج سير غراي مسرعًا نحو باب الخروج، متجهِّمًا. مرَّ أمام كيت دون حتى أن يحييها، ولكنه تعرَّف على ألكسندر وعاد خطوة إلى الخلف.

- أحذرك يا سايمور، إذا لم أتمكن من تقويمه سأكسره. وسأضع حدًّا لكم جميعًا. لن يكون المنشور أمرًا يُذكر مقارنةً بما يمكنني إلحاقه بكم.

رحل دون أن يضيف أي شيء آخر.

قال: لقد فعل به شيئًا.

استند على كيت ليسرعا نحو الغرفة. عندما فتحا الباب وجدا أندرو منكمشًا. تركته كيت لتذهب إليه. وضعت يد على كتفه وربتت برفقٍ فالتفتَ.

- أندرو! كلُّ شيء على ما يرام؟

أصدر الفتى أنينًا.

اقترب منه ألكسندر. على الأرض مزهرية مهشَّمة. والزهور التي أحضرتها إليزابيث روبنز لأندرو كانت مسحوقةً.

- ماذا حدث؟

لم يُجب. بدا شاحبًا وحدقتاه متسعتين وذقنه يرتعش. كانَ تحت تأثير الصَّدمة. حركت كيت، برقَّةٍ، يديه المرتعشتين المتشبثتين بقوةٍ في اللِّحافِ، ورفعته عنه.

كانت منامته، في منطقة الحوض، مبقعةً بالدم.

رفعتها، ونظرت لألكسندر. شعرَ هو بانفعالات كثيرة متناقضة تمزقه، وبالرغبة الملحة في أن يأخذ أندرو بين ذراعيه، وبرغبةٍ أخرى في أن يخرج ويجد ذلك الرجل ويقتله.

لقد جلده. ذلك الرجل ضربه بالسَّوط على بطنه وأعضائه الحميمية، حتى نزعَ الجلد عنه، لقد مزَّقَ لحمه، إذْ دفع كلَّ ما بداخله من كراهيةٍ إلى عنفِ ضرباتِ سوطِه.

سقطت نظرته على البتلاتِ المسحوقة.

فكر في أن الزهرة لا تشعر بأنها ماتت عندما يقطفها أحدهم. ربما سيحدث هذا أيضًا لأندرو، إذا لم يفعل ألكسندر شيئًا. ومثل بعض الزهور التي تتفتح بعد قطفها، سيذبل وهو لا يزال يتنفس.

٦١

لا نهاية للألم الذي يمكن أن يحيق بالإنسان، تشعر كيت دائمًا بالاضطراب عندما تُستدعى لتشهد على أمر كهذا. لا قاعَ يمكن الوصول إليه حيثُ يمكن الاغتسال أخيرًا بالرحمة، عمق راسخ ونهائي يمكن لمسه باليد ليتمكن المرء من دفع نفسه لأعلى، والصعود من جديد. يستمر في الغرق، ويقع فوقه حطام الأمل حتى يدفن ما تبقى منه.

ينام أندرو نومًا كيميائيًّا، مثيرًا للشفقة، وضعته فيه فلورا وهي تتألم كأمٍّ. لم تتوقف، قطُّ، عن الإمساك بيده بينما كيت تعالجه. وصلت لويزا وعيناها تحجبهما الدموع. نقلوه إلى غرفة حيث لا يمكن لأبيه العثور عليه.

ستُشفى جروح الجسد بالتدريج، ولكن ماذا عن النفس؟ والقلب؟ ذلك القلب الشاب المفزوع لم يتوقف بعد عن الركض والهروب بعيدًا. يدق القلب بقوة الرَّعد.

أندرو الصغير والبائس، فكرت كيت وهي تخيط جروح جلدهِ المفتوحة. لم يكن هناك فارق كبير بين خياطة جسد والتطريز لإنقاذ ما

تبقى بداخلنا من إنسانية. فالنية في كلِّ الأحوال إصلاح ما يتمزق من الحياة.

- لا يمكن ليدِ امرأة أن تحوِّل جسدَ إنسانٍ إلى مِزقٍ.

همست لويزا. والتي أمسكت بين يديها قدميْ أندرو في محاولة لتدفئته.

وأبعدت فلورا خصلة شَعر عن جبهة الصبي.

- ربما يكون هذا ضعفنا الظاهر، إلاَّ أنها في الحقيقة القوة لاختيار الحياة دائمًا وبأي ثمن، هي ما تحولنا إلى أسيرات لَمَن لا يتورع عن القمع.

انتهت كيت. ومرة أخرى، من مرات لا نهائية، تقطع خيط ترميم المذبحة، التي لم تكن سوى نقطة في بحر من العنف.

قالتْ: أحيانًا، أتمنى أن تكون لديَّ القدرة، أن أجد بداخلي القوة الوحشية لأضرِب مَن ضَرَب أولًا.

رفعت فلورا كتفيها، قليلًا، وكأنها تبعد شعور الذنب المتواري في ذلك الاعتراف.

- لقد تمنينا، جميعنا، تلك القدرة مرةً واحدةً على الأقل. في الحقيقة، فعلنا ذلك أيضًا. هل تتذكرين يا لويزا؟ كم من الأحجار ألقيناها على تلك الواجهات الزجاجية. تجار مساكين.

- ومسكينات نحن، فيما بعد.

نظرت فلورا لكيت.

- لكلِّ شيء ثمن، أحيانًا يتجسد الثمن في التنازل عن موقع ما، التنازل عن ضمير الشخص. ليست القوة الوحشية هي ما ينقصنا، بل الرغبة في استخدامها، لأننا نعرف أننا لن نعود بعدها كما كنا، ونحن لا نرغب في التنازل عن أنفسنا، لا نريد ذلك على الإطلاق.

أجابت كيت وهي تنظر إلى أندرو:

- ولكن، بهذه الطريقة ستستمر اليد العنيفة في الضرب. ماذا علينا أن نفعل؟ أنا لا أعرف.

نهضت وخرجت، وبمجرد أن خرجت لم تستطع التماسك. أخذت تنتحب أمام الباب، لتخفي البكاء، عندما أدركت أنها ليست بمفردها. كان الممر مليئًا بالرجال. أتوا جميعًا من أجل أندرو. استعادت نفسها على قدر استطاعتها، جففت وجهها ومشت. تنحُّوا جانبًا ليتركوها تعبُر، كان صفًّا متألمًا. لا أحد يتنفس، يقفون في صمت، واستطاعت كيت أن تسمع صرخات غضبهم.

في نهاية الممر وجدت ألكسندر أمامها.

- أحتاج لمساعدتك يا كيت. يجب أن تعثري لنا على وسيلة مواصلات الليلة. من أجلي وثلاثة آخرين منا.

دُهشت كيت: ما الذي تنوون عمله؟

- بالتأكيد لن نهرب. سنعود قبلَ الفجر.

بدا لها أنها ترى الخطة المرسومة في ذهنه تتشكل على قسمات وجهه القاسي.

- لا، لا... هذا جنون!

- سنفعل ذلك في كلِّ الأحوال، سنجد طريقة. أنا أطلب منك المساعدة، ولكن إذا لم ترغبي في ذلك، على الأقل عديني بالصَّمت.

- هذا لن يحلَّ أي شيء، لن يغير شيئًا.

- ليس هذا هو الهدف.

- إذن رد العنف إليه؟ هل هذا هو الهدف؟

مسح لها ألكسندر دمعة على وجنتها وربت على وجهها وتحدث هامسًا:

- أنا مسؤول عن أولئك الرجال بطريقة، أشكر الرَّبَّ أنك لم تتعرفي عليها. لقد أنقذ كل منا حياة الآخر مرات عديدة لا يمكنني إحصاؤها، وتقاسمنا الوعي بأننا لا نعرف إن كنا سنعود أم لا. ربما لا يكون معيارنا للعدالة هو معيارك أو معيار القديسين والشُّهداء. نحن مجرد رجال منكوبين، ولكننا سنظل رجالًا يُخلص أحدُنا للآخر.

وجدت كيت صعوبة في التنفس. فهي منذ بضع دقائق كانت تطالب بالانتقام، والآنَ هي تستبشعه. تتساءل إذا كان الخوف هو ما يوقفها، ولكنه الضمير. وبدا وكأنه يخمن أفكارها المتصارعة.

- اتركي لنا الأشياء القذرة يا كيت، لا تنزعجي.

- عدني فقط ألاَّ يُصابَ أحدٌ بضررٍ.

- لقد فهمتِ الأمر بطريقة خاطئة، أنوي فقط التحدث معه.

- عِدني!

وعدها ألكسندر، إلاَّ أن عينيه كانتا تؤكِّدانِ أمرًا آخرَ.

٦٢

في تلك الليلة، وفي الساعة الأشدِّ حلكةً، سرَّبت كيت الرجال من البوابة الخلفية، المستخدمَة لإدخال المؤن. كانوا أربعة: ألكسندر وأوليفر، وأسترالي فقد إحدى عينيه مؤخرًا يحملُ كيسًا كبيرًا، يتبعهم سيسيل على الكرسي المتحرك. لم يرغب بالبقاء خارج المهمة.

- ماذا سيعتقد أندرو إذا بقيت أنا ولم أذهب؟ سآتي أنا أيضًا ولو اضطررت أن أدفع نفسي فوق ذلك الكرسي في كل أنحاء لندن.

وسيلة النقل المختارة للخروج كانت تنتظرهم خلف أسوار المستشفى. بمجرَّد أن رآها ألكسندر، بحث عن كيت.

- شاحنة بائع الحليب؟ ألا يوجد شيء أوضح من هذا؟

لم تستطع كيت أن تجد ما هو أفضل في تلك الفترة الوجيزة. أراد بائع الحليب أن يرد لها الجميل منذ أن ساعدت في توليد أبنائه الأربعة، والذين ولدوا جميعًا بمعاناة شديدة وولاداتٍ مستعصية.

- يمكنك أن تحاول الذهاب على دراجة أيُّها النَّقيبُ، فهي متاحةٌ. وأنا أيضًا سآتي معك.

- لن نتحدث عن ذلك.

لم تكن كيت تعرف كيف تقول لهم هذا، فلم تضيع الوقت في انتقاء الكلمات التي ربما ستكون غير مناسبة في كل الحالات.

- سامحوني، ولكن كيف تفكرون في قيادتها؟

كانوا واحدًا فقد إحدى عينيه، والنَّقيب فقدَ ساقًا، وثالثٌ بلا ساقين والأخير بلا ذراعين.

رأت ألكسندر ينظر إلى رجاله. يبدو أنهم لم يفكروا في الأمر فعلًا، وكان أمرًا حسنًا، فقد فعلوا أخيرًا. في ظروف أخرى كانوا سيتجاوزون مشاكلهم الجسدية بالتعاون، ولكن لا وقت لديهم هذه الليلة.

اقترحت كيت: سأقودها أنا.

- هل تجيدين القيادة.

- علمتني أفضل معلمة. إذا أردتم سأترك لكم عملية تشغيل المحرك.

اهتم سيسيل بالأمر، إذْ كان يفخر بامتلاكهِ أكبر كتلة عضلية في مستشفى شارع إيندل. كانت تكفيه بضع لفات لذراع التدوير ليشغل المحرك القديم.

كانوا يعرفون مقر سير غراي في لندن، لم يكن من الصعب اكتشافه دون أن يضطروا لسؤال أندرو. ولكن بفضل حكايا الابن، كانوا يعرفون أيضًا أن السيد المحترم يعاني من الأرق، ويمضي جزءًا كبيرًا من ليلته في شرب الويسكي وتدخين السيجار في المكتب المُطل على حديقة الفيلا.

كانوا مصرين على إيجاده، ولا يهم إذا لم يعثروا عليه حيث يعتقدون أنه موجود، فسيعثرون عليه حتى لو اضطروا لإسكات خدمه والتفتيش عنه في كلِّ الغُرف.

كلما فكرت في الأمر كلما شعرت بالتَّوتر أكثر.

قالت: إنَّها خطة مجنونة.

في الظلام سمعت ضحكة خافتة لألكسندر ترتفع.

- الحربُ مليئةٌ بقصص حقيقية عن خطط عشوائية، غير متوقَّعة، بل حتى مجنونة. أتعرفين؟ عادةً تنجح.

- عادةً؟ هل هذا يجب أن يطمئنني؟

- إذا كانت سمعتك الطيبة هي ما تحرصين عليه، فلا داعي للقلق.

ممسكة بالمقود، كان دورها لتضحكَ، بعصبية.

- سمعة طيبة؟ إذن لم تسمعني أمس.

- أسمعك طوال الوقت، حتى وإن لم تقولي شيئًا.

صمتت هي، وهو أيضًا. أطلقَ سيسيل اللَّعنات عندما مرَّت كيت فوق حفرةٍ واهتزت الشَّاحنة بشدة. روى لهم جيمي، الأسترالي، عندما سرق الفأر عينه، بعد انفجار القذيفة التي أصابته في غاليبولي. مكث على الأرض ليوم ونصف قبل أن يحملوه على نقالة. سأله سيسيل كيف عرف أنها عينه تلك التي بين فكيْ الفأر. أجاب جيمي أن عينه الناجية عرفتها وأخذت تبكي على الرغم من أنه لم يكن يشعر برغبة في البكاء.

قال له سيسيل: دخان القذائف يتسبب في هذا.

- أقول لك لا، كانت تبكي على أختها.

عندما وصلوا أوقفت كيت الشاحنة بالقرب من أملاك عائلة غراي، على الجهة الأخرى من الشارع. نزلا حامليْنِ معهما صندوقين من الحليب، تحسُّبًا لمرور الحارس وسؤالهما.

ظل الكرسي المتحرك في صندوق الشاحنة، حيث حمل أوليفر وجيمي سيسيل حتى السور المحيط. كان الأسترالي أول مَن تسلقه. وعلى قمة السور مد يده ليمسك بسيسيل ويرفعه للأعلى. اختفيا على الجهة الأخرى في بضع دقائق، ثم ظهر جيمي من جديد وساعد أوليفر على الصعود. وأرسلا بإشاراتٍ لهما.

مكثا، كيت وألكسندر، يُراقبانِ الطَّريق. عندما حانت لحظة ذهابه هو أيضًا، لمس ذراع كيت:

- إذا سمعتِ صرخاتٍ وإطلاقَ رصاص فارحلي. خاصة إذا سمعتِ إطلاق الرصاص.

- لا تمزح، وتذكَّر وعدك. الكراهية تؤذي من يعيشها.

- ليست مسألة كراهية، بل عدالة.

- أتمنى أن يكون هذا حقيقيًّا.

- لم أكذب عليك قطُّ.

- فيما عدا مرة واحدة.

بدا مرتبكًا.

- أكدت لي أنك على ما يرام، إلا أنك اعترفت لخطيبتك بالعكس.

ابتسم ألكسندر، وهمس في أذنها:

- كارولين لم تعد خطيبتي، وذلك الذي قلته لها، يومذاك، ليس حقيقيًّا. أنا بخير. وفي هذه اللحظة أكثر من أي وقتٍ مضى.

كان قريبًا جدًّا، بدا وكأنه يعانقها. أراد تقريبًا أن يشعرها بقوة جسده. ناداه الآخرون بصفير، ولحقَ بهم.

مكثت كيت تنظر إليه وهو يتقدم على العكاز. كل منهم يساعد الآخر، حيث يمكنه الوصول، وربما أيضًا فيما أبعد من ذلك. لا يوجد أي عطب فيهم يجعلها تفكر في البتر الضخم الذي تعرضوا له. يعوضونه بقوة الإرادة فيتحوَّل إلى سِحر. ضمَّت إليها ذراعيها، مغمورةً بالمشاعر.

٦٣

ترك ألكسندر العكاز على العشب وتسلق بحذرٍ، بمساعدة أوليفر. أسفل الرواق يتلألأ ضوء، ولكن كل نوافذ الفيلا معتمة. لم يكن صعبًا العثور على المكتب في الطابق الأرضي.

اقترب أوليفر ليلقي نظرةً، وعاد ليخبرهم.

- لا أحد. والآنَ ما العمل؟

فكَّر ألكسندر. لم يعد هناك سوى احتمال واحد وإن كانت المخاطرة ستزيد.

- إما أن نتراجع أو أن ندخل.

زحف سيسيل على العشب حتى وصلهم.

- نعود بأيدٍ خاوية؟ مستحيل. أنا أرى أن نحطم نافذة المكتب. بقميص ملفوف على الذراع وضربة قوية، وببعض الحظ لن يستيقظَ أحد.

وافقه الآخرون. في تلك اللحظة أفزعهم صوت سيارة. توقفت السيارة أمام مدخل الفيلا. فُتحت البوابة بصليلٍ، وظهر شخص بقبعة

عاليةٍ ومعطف يدخل من بوابة الفيلا مُتعبًا، ويغلقها خلفه بركلة من كعبه. ثم رحلت السيارة.

همس أوليفر: يا للهول، إنه هو!

ثم ضرب جيمي بمرفقه:

– هيا نمسك به قبل أن يستيقظ الخدم. يبدو كشخص يكاد يمسك بجرس استدعائهم.

كان غراي بلا شك، تعرَّف ألكسندر على مِشيته المتبخترة حتى لو كانت مهتزة بعضَ الشيء. تقدم الرجل وهو يجلد الزهور والتماثيل عبر ممر الحديقة، يُلقي بالسباب واللعنات على شخصيات مُتخيَّلة. كان ثملًا، يجد صعوبة في التوازن على قدميه. على حسب ما يبدو لم يتورع عن اختراق حظر التجول متردِّدًا على نوادي علية القوم.

تقدم أوليفر وجيمي متخفيين بين شجيرات أحواض الزهور، وعندما وصلا بالقرب منه حاصراه من الجانبين، وأخذاه أسفل ذراعيهما، وجعلاه يلتفت.

– مساء الخير يا سيدي اللورد.

لم ينتبه على الفور. نظر إليهما بفم مفتوح، ربما بسبب الزي الذي يرتديانه.

– مَن أنتما؟

– الحرس الملكي. نأخذك للأمان. فالألمان على الأبواب.

– من لندن؟

- من منزلك يا سيدي اللورد.

حملاه وأخذاه نحو الآخرين، في الحديقة الشتوية على طراز الفن الحديث والمطلَّة على بِركة. ألقوا به في الوسط، لا يعرف اتجاهه. سقط على الأرض، وعلى الرغم من محاولاته فإنَّه لم يستطع النهوض.

طلب سيسيل أن يأخذوه على الأريكة.

- أريدُ أن أفعل هذا. تعرفون كيف سيكون وقع الأمر مسليًا، فيما بعد، عندما أحكيه لأندرو.

لم يصدق ألكسندر أن الأمر يتعلق بمجرد تسلية. يريد سيسيل أن يمنحَ صديقه دليلاً ملموسًا على صداقتهما.

عندما تعرَّف عليهم، بدا الضيق على وجه سير غراي.

- أنتم! معاقو مستشفى أولئك النساء. ولصوص أيضًا؟

أنهضه أوليفر وهو يمسكه من أذنه.

- لقد أتينا لنقدم لك كل احترامنا يا صاحب السعادة.

أخرج جيمي من جيبه آلة تصوير وبدأ في تركيبها. كان مصورَ حرب، وسليلَ عائلةٍ من المصورين. تلك الآلة لفَّت العالم من أستراليا إلى الصين، ومن الأمريكتين إلى ميادين المعارك، ولكن هذه الليلة ستُخلَّدُ صورٌ أخرى على هذا الشريط الفضي.

جلس ألكسندر على أحد مقاعد غرفة الحديقة الزجاجية. وضع العكاز على ركبتيه كما كان يفعل مع بندقيته. وأخذَ ينظر للرجل من رأسه إلى قدميه.

- والآنَ، تجرَّد من ملابسك يا سير غراي.

جحظت عينا السيد المحترم:

- ماذا قلت؟

- لتتعرَّ بالكامل.

- أنتم مجانين.

- هذا ممكن. وسبب أدعى لتفعل ما أقوله.

- يمكنني أن أصرخ.

بادره أوليفر بضربة على ظهره كادت تقصمه، من صوت طرقعة فقراته.

- أنت تتحدث بصعوبة. دعني أفعل هذا، سأكون وصيفَكَ!

قطَّب جبينه:

- ولكن تنقصك ذراع.

بدلًا من أن يحلَّ الأزرار واحدًا تلو الآخر، قطع أوليفر القميصَ، فجعله يقفز.

- هل ترى؟ مَن في حالتي يتصرفون هكذا.

نظر سير غراي إلى القميص الحريري، وحاول أن يلمس بإصبعه الخيوط الحريرية التي تبرز كالشوارب، ولكنه لم يستطع.

في تلك الأثناء كان أوليفر يُنزل بنطاله، كاشفًا عن ساقي مسنٍّ شاحبتين ومتيبِّستين، تعبرهما خطوط من العروق الزُّرق.

- لا تستطيع الرؤية جيدًا سيدي اللورد؟ لا تقلق. يكفي أن

يستطيع ذلك مصورنا. بقيتْ له عين واحدة، ولا أعرف ما إذا كانت كافية.

عندما سمع التهمة، أكد الأسترالي أنه سيؤدي عمله وفقَ القواعد الفنية.

مكث سير غراي بسرواله الداخلي، وقميصه مفتوح كاشفًا عن بطنه المترهل. تركوه بالجوارب والحذاء. قدم له أوليفر زجاجة ويسكي وجعله يشرب.

وضرب سيسيل بيديه على الوسائد.

- هيا يا حبيبي! لا يمكنني الانتظار أكثر من ذلك.

تمتم غراي: أطلب الشرطة؟

- هل تسأل؟ نحن هنا الشرطة.

أمسكه أوليفر من كتفيه وأجلسه. قفز سيسيل بين ذراعيه. نظر إليه الرجل برعب أبله. كأنه بين بخار الكحول رأى مخلوقًا يثير اشمئزازه.

- بلا ساقين!

- يا لقوة ملاحظتك يا حبيبي! ولكن هنا في الأسفل كل شيء يعمل جيدًا وفي خدمتك. هيا ضمَّني الآن!

جعله أوليفر يشرب أكثر. أغمض سير غراي عينيه وبدا أنه لن يفتحهما أبدًا. أخذ سيسيل يصفعه ليفيقه، ووضع له أحمرَ شفاه على شفتيه استعاره من غريس التي دُهشت من الطَّلب.

أعلن جيمي أنه في وضع استعداد.

- هيا يا سادة اتخذوا أوضاعكم.

أضاء الفلاش بينما يضع سيسيل فمه على فم غراي، الذي لم يبد عليه أنه يرفض جسارة الصبي الذي يتعلق به. الرَّبُّ وحده يعلم إذا كان يشعر أنه في حلم، أو أنه نظرًا لكونه ثمل إلى هذه الدرجة، اعتقده امرأة، أو أنه يعتقد أنه بين يدي مربِّيته التي اعتنت به آنَ طفولته، أو أن تلك الشفاه الذكورية، ببساطةٍ، لم تكن سيئةً كما اعتقدَ.

كاد ألكسندر أن يبتسم، ولكن وقعت نظرته على السَّوط الذي ألقاه سير غراي على الأرض. فكَّر كم من الوجوه يتخذُ الشَّرُّ، حتى تلك التي تبدو مسالمةً وغريبة لمسنٍّ ثمل بين أربعة أشخاص يحبون المزاح. شعر برغبة في أن يلتقط السَّوط ويفعل بالأب ما فعله الأب بابنه، ولكن على الرغم من إغراء الفكرة، فإنَّها ستعرِّض مهمتهم للخطر.

أُطلق الفلاش مرة أخرى، وطُبع على الشريط النحاسي ما يضمن لأندرو مستقبلَه.

لم تكن مجرد مزحة خفيفة.

بواسطة تلك الصور يقبض ألكسندر على حياة ذلك الرجل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

٦٤

في رحلة العودة، قادت كيت الشاحنة حتى مستشفى شارع إيندل وقلبها يخفق باضطرابٍ. أكد لها الرجال أن كل شيء مرَّ على ما يرام ولم يُجرح أحد، إلا في كرامته، ولكن لم يحْكِ لها أيٌّ منهم ما حدث بالفعل وراء السور المحيط بالفيلا. وبدوا مصرين على الاحتفاظ بالسِّرِّ، وأن يحملوا بمفردهم عبء أي تبعات لاحقة.

ثمَّة عائق أيضًا يجب تجاوزه.

ولجتْ كيت بمفردها مدخلَ المستشفى الرئيس. عبرت بخطوات سريعة الردهة والممرَّ، حتى وصلت في تلك الساعة من الليل إلى الجناح الذي تشرف عليه.

ولكن لم تكن غريس موجودةً، عندما وصلت كيت إلى غرفة الحراسة.

رفعت فلورا عينيها عن الكتاب الذي كانت تقرأه.

– مساء الخير يا كيت. أو هل يجب أن أقول صباح الخير؟ تبدين مندهشةً.

شعرت كيت فجأة بتلاشي أي أمل في إنهاء تلك الخطة بطريقة غير مؤلمة.

- اعتقدت أنني سأجد غريس.

أغلقت فلورا الكتاب:

- أذنتُ لها بأن تذهب وتستريح، وأخبرتها بأنني سأنتظرك.

- يمكنني أن أشرح.

- مساء أمس كنت بحاجة لأن أتحدث معك، وذهبت لأبحث عنك في حجرتك، ولكنك لم تكوني موجودة. فسألت مينا، التي لم تبد في ضيق شديد وهي تقول لي إنك ربما تكونين في منطقة المغسلة. لا أدري لماذا فكرت في المغسلة. الشيء نفسه حدث مع هيزيل وأولغا وغريس. جعلوني أجوب المستشفى كله قبل أن أفهم أنك غير موجودة.

شعرت كيت بالخجل، كما حدث لها في مرات أخرى.

سارعت:

- أنا في شدة الخجل يا دكتورة موراي. لقد اضطررت... شعرت بالواجب...

نهضت فلورا ودارت حول المكتب.

- كنت أريد أن أخبرك أن وزارة الشُّؤونِ الحربية أعلنت عن تفتيش جديدٍ، وأخشى أن يكون قاسيًا جدًّا.

دُهشت كيت:

- تفتيش جديد؟ لأي غرض؟

- ربما يكونون بحاجة إلى ذريعة ما؟ لن يعترفوا بالسبب الحقيقي، أبدًا. أشكُّ أن الإعصار الذي حركه العدو المجهول بتلك المنشورات مستمرٌّ في قوته. العاصفة كبرت بالتدريج، ولم أنتبه لذلك، لم أُقيِّم المشكلة كما ينبغي.

- لم يكن مجهولًا. كانت مبادرة قام بها سير غراي، كل هذا من أجل التطريز.

- لا. بل من أجلنا. سيقيِّم المفتشون كلَّ الأنشطة التي تجري في هذا المستشفى، ولن يكون أمرًا مستحبًّا. كل جانب من جوانب عملنا سيُطرحُ للنقاش. لقد أطلقوا علينا «النِّساء الجُدد». الآن يرغبون في فهم نوعية «الرجال الجدد» الذين نحاول تشكيلهم هنا، في الداخل.

فكرت كيت في الحلول البديلة المتوفرة، ولم تكن كثيرة.

قالت: نحتاج لمساعدة على أعلى المستويات.

- بمن تفكرين؟

- إرنست ثيسيجر له أصدقاء على أعلى المستويات. سيفعل المستحيل بكلِّ الطرق ليساعدنا.

أخذت فلورا كتابها، ووضعته تحت ذراعها.

- أخشى أن هذا لن يكفي يا كيت. كنت قد عاهدتُ نفسي ألاَّ أسألك ذلك، حتى لا أضعك ولا أضع أيًّا منا في خطر، ولكن لا أعتقد أن هذا ممكنًا الآنَ: ما الذي حدث هذه الليلة؟

شعرت كيت بمعدتها تنقبض.

- أحيانًا يمكن للعدالة أن تتخذ أشكالًا غير معتادة يا دكتورة موراي.

- هل يجب أن أقلق؟

- لديَّ أسبابي لأعتقد أنه من الآن فصاعد لا يوجد ما نخشاه.

- هذا كل شيء؟

- أتمنى ذلك.

تقدمت فلورا بضع خطوات، بدا وكأنها تفكر. تفحَّصتها بنظرةٍ.

- هل تتمسكين بشدة بالنَّقيبَ سايمور؟

- لا أعرف عمَّ تتحدثين.

- إذن أنت الوحيدة التي لا تعرف. أتمنَّى أن تكوني مدركةً للمخاطرة التي تواجهك. أن تخاطري بكل التضحية التي قمت بها من أجل رجل، رجل غامض بهذه الطريقة.

- لا توجد أي مخاطرة. توجد امرأة بالفعل في حياته.

بدا لها أنها رأتها تبتسم. كانت الابتسامة المتعبة لمن يعرف أنه لا يمكنه إيقاف تطور الأحداث.

- توجد بالفعل امرأة في قلبه. هل رأيت تطريزه؟ لا بد أن تريه.

سارت نحو الدَّرَج، ثم فكرت مرة أخرى والتفتت نحوها.

- أدخليه هو والآخرين المختبئين في الحديقة. لن تساعد الرطوبةُ الجروحَ على الالتئام.

ظلت كيت واقفة تنظر إليها حتى اختفت فلورا عن نظرها، ثم تنهَّدت بعمق.

الآن يمكنها أن تدخلهم من المدخل الرئيس، لكنها لن تنادي عليهم. ذهبت إلى غرفتهم، كان ضوء مصباح هو الإشارة المتفَّق عليها لتعطيهم الأمان. أوهمت نفسها أنها ستختار أيًّا منها بطريقة عشوائية، ولكنها كانت تكذب. اختارت مصباحَ ألكسندر.

أضاءته.

على طاولة السرير الجانبية، ينتظر التطريز مطويًّا يدَ مبدعِهِ.

أرادت كيت الهروب، ولكنها لا بد أن تعرف، لا بد. لمست طرفه بأحد أصابعها وفتحته، شهقتْ لتكتم صرخةً.

تُظهر دقة الغُرز الإخلاص المحض. فهي متشبثة في النسيج بذراع قوية ولكن ليس أكثر مما ينبغي، ولا توحي أيضًا بأي تردد في النوايا. لا بد أن النَّقيبَ قضى أيامًا وليالي في التطريز والفكِّ.

طرز ألكسندر خيالَ امرأة تتقدم ممسكة بلجام حصانٍ، بين أعمدة من الدخان الأسود وزهور الخشخاش بلونها الأحمر القرمزي.

لمسته بإصبعها.

كانت الذاكرة الملموسة، وكان الانفعال الجبار. كانت هي: كيت.

٦٥

قصر باكنغهام، لندن

انتظر إرنست أن يفتح الوصفاء صالة الاستقبال للاستماع. لم يكن وجوده في القصر هذه المرة ليسترخي بين الثرثرات العابرة والتطريز، بل ذهب ينشد المساعدة.

لم تتردد الملكة ماري في استقبال طلب الاستماع، ولكن لم يكن نجاح الأمر مضمونًا على الإطلاق. منذ الصباح الباكر يتأمل إرنست في القضايا التي سيعرضها، عندما تلقى المكالمة الهاتفية من المستشفى.

وأخيرًا سمحوا له بالدخول. تنفس بعمق وتقدم نحو الملكة وهو ينحني. قدمت له يدها، وقبَّلها.

- ما المشكلة التي تعذبك اليوم يا عزيزي إرنست؟ لم تكن تحتاج لطلب رسمي لتقابلني، فغدًا موعدنا المعتاد.

جلست، ودَعته ليفعل المثل. تراجع حتى وصل للمقعد وحرص ألا يعطيها ظهره.

- الأمر يتعلق بحالة طارئة، جلالتكِ، لا يمكن لها الانتظار. سيخضع مستشفى شارع إيندل للتفتيش من جديد.

- آه، صديقاتك.

- إنهن أكثر من ذلك. إنهن سيدات إنكليزيات يتمتَّعنَ بشجاعةٍ لا مثيل لها، ويحملن الرخاءَ للجميع. إن هذا المستشفى، جلالتكِ، قد أكَّدَ وضعه صَرحًا يعكس الامتياز. نجاح العلاج هناك لا مثيلَ له، وعدد الوفيات هو الأقل على مستوى البلاد.

- إذن سيجتازون أي فحص بامتياز.

- اسمحي لي أن أقول بأنَّ هذه ليست المشكلة. لا يجب أن يكون هناك أي تفتيش.

ضحكت ماري.

- ماذا تفضل! بعض الشاي؟

- لا شكرًا. أتوسل إلى جلالتكِ. أتوسل إليك أن تمدي لهنَّ يد المساعدة. إنها بكل وضوح محاولة للوساطة.

- عزيزي إرنست، ما كلُّ هذه الدراما!

- الظروف تتطلب هذا. أولئك السيدات يتعرضن لحملة إهانة انطلقت من أنشطة التطريز التي يقوم بها المرضى.

- أوه. حقًّا؟

- شخص متبجح مجهول يؤكد أن ذلك النشاط يهدف لإضعاف الصفات الذكورية، ولغسيل الأدمغة والتحويل للأنوثة.

- يا له من هُراء.

- إذا أردت أن تري بعينيك تلك التطريزات، وأولئك الرجال

المنهمكين في التثبيت على ذلك النسيج صورًا قادرةً على إنقاذهم بطريقة ما، لا أستطيع أنا، العاشق المجنون للتطريز، أن أفهمها، لما لها من تأثير إعجازي. ليس فيها أي شيء هشٍّ أو معطوب. وجود جلالتكِ سيساعد على إسكات أي تشويه.

تبدَّل وجه ماري، وأصبح قاسيًا.

- إذن أنت هنا لهذا السبب. العائلة الملَكية لا تنخرط أبدًا في مسائل شائكة، لا بد وأنك تعرف هذا بالفعل. فأنت تتردد بانتظام على قصر باكنغهام ويدهشني أنك لم تدرك حتى الآن قانون الأسوار المحيطة به. إنَّ الصلاحيات الملَكية ليست مطلقةً كما يعتقد البعض.

- ولكن جلالتكِ...

- يقعُ الأشخاص العاديون كثيرًا في هذا الخطأ، يعتقدون أن الملك أو الملكة مسموح لهما عمل ما يتمنياه. آهٍ، يا له من خطأ. توجيه الرأي العام بشأن موضوع بهذا المستوى أمر لا يمكن للملكة أن تفكر به. يتعيَّن عليَّ أن أطلب منك أن تنصرف لمجرد أنك فكرت في ذلك. لا ينبغي، ولا أريد التدخل شخصيًّا.

حنى إرنست رأسه، لا يمكنه المحاولة مرة أخرى.

- أطلب المعذرة.

أمرت ماري الوصيف أن يحضر لها السلة التي تحتوي الخيوط والتطريز.

- هيا يا إرنست، لا تقلقْ كثيرًا! إذا كُنَّ السيدات بتلك البراعة، فلن يهزمهنَّ أيُّ تفتيش.

لم يستطع إرنست أن يستسلم أكثر من ذلك.

- هل يمكنني أن أحدثك بإخلاص؟

- ينبغي عليك ذلك. ولكن انتبه، الحد بين الإخلاص والتكبر غالبًا ما يكون هشًّا جدًّا. قبل أن تلفظ كلماتك القادمة، اسأل نفسك أولًا من أيهما تنطلق.

لم يكن إرنست بحاجة لأن يفكر. تلك الكلمات نفسها تعذبه. كانت كلمات بسيطة، مثل المفهوم الذي تمثله. بسيطة إلى حد أنها لا يمكن أن تؤدي إلى أي التباس.

- ليست مسألة صمود يا جلالة الملكة. أولئك النساء قادرات على تحمُّل ذلك بل ما هو أكثر، وإلا لما وصلنَ إلى ما هنَّ عليه، حيث هنَّ الآن. السؤال الذي يجب أن نطرحه على أنفسنا والذي يجب أن نجيب عليه، هو سؤال واحد: هل نصدق أم لا أن أولئك النساء يستحققنَ ما يحصل عليه زملاؤهم من الرجال؟ لأنه لو كانت الإجابة هي نعم، والمعطيات تؤكد ذلك، فلا بد أن نلتفت إلى أمرٍ ما. هل تعرفين جلالتكِ كم عملية تفتيش تعرضت لها المستشفيات التي يديرها الأطباء من الرجال؟ ولا واحدة.

نظرت له ماري، وفي عينيها أدرك بيقينٍ ضيقَ امرأة - ليس ضيق ملكة، بل امرأة- أمام مَن يحاول أن يشكك في قيمتها.

- العالم يتغير جلالتكِ، وسيحدث ذلك بغض النظر عن تأييد أو رفض بعض الأشخاص، ولكن التاريخ، التاريخ العظيم، سيتذكر إلى الأبد أسماء مَن اختاروا أن يقفوا مع الجانب الصواب.

٦٦

لندن، مستشفى شارع إيندل العسكري، ١٣ أكتوبر ١٩١٥

نزلتْ كيت الدَّرَج مسرعة، منهَكةً بالفعل منذ الصباح الباكر. حان يوم التفتيش ولا بد لنساء مستشفى شارع إيندل فحص كل التفاصيل مرارًا وتكرارًا.

كادت تصطدم بلويزا أسفلَ الدَّرج.

- كنت أبحث عنك يا كيت. لا بد أن تذهبي لمكتب فلورا فورًا.

لم تترك لها فرصةً للاستفسار، حيث استدارت واستدارت معها تنورتها والمعطف الطبي، عادت وحذاؤها يطرقُ درجاتِ السُّلَّمِ مثل طبول الحرب. أعطتْ تعليماتها الخاصَّة لمرضة الجناح الذي كان مهمتها الأخيرة، وطلبت منها أن تبدأ وستلحق بها بعد قليل.

لم تكن لديها أدنى فكرة عمَّا يمكن أن تريده فلورا منها. كانتا قد قررتا بالفعل كلَّ التفاصيل الدقيقة، والسلوك الذي سيلتزمنَ به أمام المفتشين، وتقييم ثقل الكلمات الاعتراضية في حالة المواجهات. لا بد من استخدام الدبلوماسية، والحسم أيضًا. لا بد التقدم بثباتٍ، بوسعهنَّ إخفاؤه، عن أعين الرجال الغاضبين، إنْ اضطررنَ لذلك.

طرقت مرتين، ودخلت المكتب.

لم تجد فلورا.

خلال الأعوام الخمسة والنصف المنصرمة حاولت أن تتخيله. لا بد أنه هو أيضًا تغيَّر، أصبح رجلًا، ولكن أي نوع من الرجال؟ رجل من طراز أبيه، ربما، بيدين غير قويتين ولكن فائقتيْ الجمال، مثل عينيه، اللتين لا تعرفان طريقًا للبكاء، ولكنهما ساحرتان.

الآنَ، وفيليب يقف أمامها، ناصع الكمال، مثل صفحة لم يكتب عليها الزمن، فهمت كيت أنها على حق. كان مثل أبيه وجده من قبله. سلالة من السادة المهذبين. ولكنها أخطأت في شيء واحد فقط، لم يكن فيليب رجلًا قطُّ. ليس بالمعنى الذي فهمته كيت من ذلك العام الأخير.

واقفًا ويداه في جيبيه، أخذ فيليب ينظر إليها طويلًا، ولكن ليس إلى عينيها.

- تغيرتِ.

لم تعرف ماذا يقصد بتلك الكلمة، بدتْ لها كإدانة. ربما توقع هو، وهذا حقه، الفتاة الضعيفة التي هجرها يومًا ما، ولكن شكلتها الصعوبات، اشتدَّ عودها حيث كانت تبدو ملامحها رقيقة قبْلًا، وأصبح جلدها سميكًا، شاحبًا فقط في بعض المواضع التي لم تُكشف.

بالتأكيد تغيرت، أرادت أن تجيبه. تحملت آلام مخاضٍ عسير لترى ابنتك النور، غذيتها بثديي. تعهُّد حياة إنسان بالرعاية يعني التخلي بعض الشيء عن حياتك، ولكنك لا تعرف ذلك، لأنك لم تكن موجودًا.

ذُعِرتْ كيت من فكرة أن يكون فيليب هنا من أجل آنَّا. فجأةً بدت

لها كل تلك الخطابات التي كتبتها، وهي تتوسل إليه أن يصبحَ أبًا لابنتها، ضربًا من الجنون.

عادتْ إلى ذهنها كلمات فلورا: بعض الرجال يأخذون الأبناء من الأمهات، عندما يحلو لهم ذلك. يكفي أن يقول إنه يريدهم، أو أن يقول أن المرأةَ «مجنونة». أحيانًا، يعودون للحياة بعد أعوام بحثًا عن وريث.

- لماذا أنت هنا يا فيليب؟

- قرأت بشأن ما تفعلنه في هذا المستشفى، وعن إيطالية بين صفوف السفرغيت اللاتي يعملن كأنهنَّ طبيبات.

- نحن طبيبات.

- الآن الصحف تجعل النساء أيضًا تتحدث.

تساءلتْ، كيف أحبَّتْ هذا الرجل يومًا.

- وهل هذه هي المشكلة؟ إنَّ الصحف تنقل كلمات النساء.

بدا عليه الضيق، بل التوتر.

- إنَّ الكلمات الوحيدة التي تقلقني هي كلماتك يا كاترينا.

- كيت.

قطَّب فيليب حاجبيه، وظهر عليه تعبير مَن ذاق مُرًّا بلسانه.

- أبوك يكره اختصار الأسماء.

- ليس ثمة مشكلة، حيث إن أبي أنكرني، ولكنني متأكدة أنه ما زال يحييك أنت وأباك عندما تتقابلون في النادي، ويرسل تحياته لأمِّك. فأنا مَن مُحيت وليس أنت.

فزع فيليب، ومرر بعصبية يده بين شعره الأشقر.

- وماذا تتوقعين؟ أن يسامحك؟

- يسامحني؟ بحقِّ السماء.

- لقد قلبتِ حياة الجميع.

- اسمعْ! يشترك في إنجاب الأبناء اثنان، وكنت أنت الشخص الآخر.

رفع فيليب صوته.

- ولكنني لم أرغب في هذا! ألا يهم ما أريده؟ لقد أجبرتِني أن أكون أبًا. جلبتِ العار لنفسك ولعائلتك، ووضعت عائلتي في حرجٍ شديدٍ. وكلُّ شيءٍ من أجل ماذا؟

آنَّا. فكرت كيت. كل شيء من أجلكِ آنَّا، صغيرتي الرائعة، آنَّا.

أغلى هبات الحياة لها. يا له من خطأ أن تجعلها تولد من ذلك الرجل، والذي لن يصبح أبًا أبدًا، ولا حتى بعد عشرة أبناء آخرين.

كم أخطأت عندما كتبتْ له تطلب منه أن يراها على الأقل لمرة واحدة. لم يكن سيحبها قطُّ، لأن قلب فيليب ليس قلبًا يجثو أمام طفلة عمرها خمس سنوات.

شعرت كيت أنها على وشك البكاء، ليس من أجل نفسها، وذلك الرفض الذي تعيشه مرةً أخرى، ولكن من أجل ابنتها.

- ماذا تريد يا فيليب؟

- وعدُك بأنك لن تتحدثي عني قطُّ، مع أحد، وخاصة لمن يمكنه

أن ينقل ذلك لأيِّ صحفي. إن الاهتمام بكنَّ أصبحَ شديدًا جدًّا. أريد أن أتجنب فضيحةً، وأنا على استعداد للوصول إلى اتفاق.

أخرج ظرفًا من جيب سترته. ياقوت خاتم العائلة تلألأ، ولكنه ظل كئيبًا. مد لها يده.

- خذي هذا.

- كلا!

- إنه أكثر مما يمكنك كسبه في حياتك كلها.

- أنا متأكدة من ذلك يا فيليب. أشكر أباك على سخائه الشديد، ولكن هذا ليس ضروريًّا. لا أنوي ذكر اسمك تحت أي ظرف.

بدا مرتاحًا، ولكنه أراد التأكد من شيء ما، قبل أن يرحل إلى الأبد.

- ليس لديَّ مساحة لتلك الطفلة في حياتي.

اضطرت كيت أن تتشبثَ بالمكتب.

- أنا على يقين من هذا.

- إذن نحن متفقان؟ يمكنني أن أعتمد على صمتك؟

أومأت كيت، ويكاد شعورها بالغثيان أن يتفجر.

مرَّ من أمامها، مترددًا.

- كان يمكن أن يكون كل شيء رائعًا لنا يا كاترينا، لو أنَّكِ لم تعاندي وتصري على إنجابها.

استقامت كيت، حاولت أن تصفعه، ولكنها تراجعت في الوقت المناسب. بدا لها أنها تسمع ضحكة آنًا من النافذة. فكرت لأعوام أنها

حكمتْ عليها بالبؤس، حاولت بكل طريقة ممكنة أن ترمِّمَ الماضي وأن تقنع فيليب أن يقابلها، حتى يصبح أبًا لها. ولكن البؤس الحقيقي كان يقف الآن أمامها. بدا لها فيليب بلا معنى، بل لعنة.

واجهته، بلا ندم، وبلا أي مشاعر حب.

- بالنسبة لي ولآنَّا كل شيء رائع. أنت لا تستحقها، والآن لا أشعر نحوك سوى بالشفقة.

وضع الظرف في جيبه، وخرج بلا تردُّد، وكأنه لم يكن ينتظر شيئًا آخر طيلة هذا الوقت.

مكثت كيت لتراقب الباب الذي أُغلق من جديد. لم تكن لديها الرغبة في انتظار أن يفتحه أحدهم، لم تكن لديها الرغبة في أن تطرقه يائسةً.

نزعت الخاتم. وعندما وضعته على كفها العاري كشف عن الخدعة كلها، لم تكن تلك الحلقة النحاسية التي تتظاهر بأنها ذهبية، ولكنها هي التي تظاهرت بشيء آخر لتتماشى مع القوانين التي بدت مقدسة، بينما ليست سوى صناعة بشرية. ألقت بالخاتم إلى سلة المهملات، وهوتْ على المقعد واضعةً رأسها على سطح المكتب.

سمعت الباب يُفتح ويُغلق خلفها.

- لن أقول لك أنك لم تخسري أي شيء، لأنك تعرفين هذا بالفعل.

لم تجلس فلورا على الجانب الآخر من المكتب، بل بجوارها.

- سمعتِ؟

- فقط ما صاح به هو.

تنهدت كيت، عميقًا.

- بالتأكيد تتساءلين كيف كنتُ بهذا الغباء لأقعَ في حبِّهِ.

- في الحقيقة، أجل، ولكن أعتقد أنه حدث بالفعل لكثيرات منا، أن نحب وهمًا.

فكرت كيت في الماضي، سمحت لنفسها أن تتلمس بعض الذكريات التي أبعدتها طويلًا:

- فيليب أظهرَ اهتمامًا بدراستي، بل فخرًا بما تمنيت أن أصبح عليه. كان يتردد على عائلتي، وكان يحضر المناقشات التي يقول لي أبي فيها أنني دفعت نفسي لأبعد مما ينبغي، وأن دراسة الطب جيدة، فهو طبيب ويعرف ذلك، ولكن التطلع إلى العمل في المهنة غير مقبول، بل هو الجنون. كان فيليب يدافع عني، بهدوء وثِقةِ الفرسانِ. قابلت رجلًا يتفهم ويقبل رغباتي. أعتقد أن هذا هو ما جعلني أراه مثاليًا.

- الآن لا تسمحي له أن يحزنك يا كيت.

وضعت كيت عينيها على ذراعها.

- لست حزينة، أنا غاضبة.

- قولي هذا إذن.

رفعت كيت رأسها.

- أنا غاضبة! غاضبة إلى حد أنني أردت أن أغرس أظفاري في عينيه! هذا لن يفيد، ولكن كان سيريحني.

أمسكتها فلورا من كتفيها وأقامتها. كان يمكن أن يكون عناقًا، بطريقتها.

- بالتأكيد الغضب مفيد. شعرنا به كثيرًا هنا، وفي فرنسا وفي بلجيكا. لقد قوَّانا، جعلنا نصرخ ونبكي أحيانًا ولكن لتنظري إلى أين وصلنا بفضل الغضب. لقد استطعنا تحويله، لقد كان النار التي أجَّجتْ شغفنا. ألقي به بعيدًا، ألقي بهذا الإحباط بعيدًا، ولكن تذكري دائمًا: رجل مثل هذا في حياة آنَّا لم يكن سيجلب لها سوى الدمار والمصاعب والشعور بالخزي.

مسحت كيت وجهها:

- أجل، أعرف الآن.

- هل أنت أحسن؟

- أجل، أحسن، أشكرك. هل وصل المفتشون؟

- أجل. يصحبهم لورد إشر، عدونا الصديق من أيام كلاريج. وعد بأن يفعل المستحيل لمساعدتنا. يمكنك أن ترتاحي بعضَ الدقائق، أو حتى اليوم كله، إذا احتجت لهذا.

نهضت كيت.

- ولا حتى في الأحلام. الآن سأذهب إلى هناك. وليحاولوا أن يقولوا لي إن هناك شيئًا كان سيفعله رجل بشكل أفضل.

- بهدوء يا كيت.

- بهدوء وغضب.

- يمكن أن يصبح هذا شعارنا الجديد.

- بالتأكيد أصبحَ شعاري.

شُبكت تنورتها في مسمار على المقعد. شدتها لتتحرر منه، فمزَّقتها.

- في معركتنا القادمة من أجل حقوق المرأة، أريد ارتداء البنطال عندما أرغب في ذلك.

حنت فلورا رأسها، وهي تزن ما تقوله.

- لماذا لا تذهبين لتبدلي ملابسك إذن؟

لم تستطع كيت تصديق ما قالته.

- اليوم؟ استفزاز من هذا النوع... هل أنت مستعدة لتخاطري بكلِّ شيء لأقول أنا ما أريد؟

- كيت، إذا انتظرنا اللحظة المناسبة أكثر لنطالب بما هو حقٌّ لنا، لكُنَّا في مكان مختلف تمامًا الآن، بفنجانٍ من الشاي في يدٍ، وفي اليدِ الأخرى... لا شيء.

٦٧

كان القلق يسود مستشفى شارع إيندل، مثلما يحدث في الساحة قبل المعركة. الطبيبات والممرضات والمساعدات يسرعن الخطى من غرفةٍ إلى أخرى، يفتشنَ ويعطينَ التعليمات ويعِدنَ التنظيم، وينظفنَ حيث لا يوجد شيء يحتاج إلى تنظيف.

راقب ألكسندر الإعدادات في الصَّالة المشتركة، من خلال فتحة الباب المستطيلة. مَن استطاع من الرجال ارتداء زيه العسكري فعلَ ذلك. لم يطلب منهم أحدٌ ذلك، كانت مجرد وسيلة، تقريبًا الوحيدة، بخلاف الكلمات، ليظهروا للزوار أن رجولتهم لم تتغير، وأنَّ من حارب تاركًا جزءًا منه على أرض المعركة لم يتحول إلى كائن وهمي أو غريب، فقط لأنه عند اللحظة التي يضع فيها أحدهم خيط في ثقب إبرة، فإنه يدين بشيء، وغالبًا بحياته، لمن يرتدينَ التنورة. كانت طريقتهم للتأكيد على أن تلك المعركة ليست للنساء فقط، وأنهن لسن بمفردهن.

مرت أولغا، تقريبًا وهي تركض، نظرت إليه سريعًا وعادت إلى الوراء وكادت تقع لتضبط له عقدة ربطة العنق.

سألها: هل أنتن مستعدات؟

- نحن دائمًا مستعدات، ولكن هم أيضًا مستعدون. إذا كلفوا أنفسهم عناء زيارتنا فهذا معناه أن لديهم نية ما. الآنَ تبدو العقدةُ رائعة.

فحصها ألكسندر بتمرير أصابعه عليها. كانت مضبوطةً. مشدودة، وصلبة مثل اليدين اللَّتين عقدتاها. ورآها تختفي في الردهة. تجمَّعن كلهنَّ في المدخل، ينقص فقط حضور المفتشين.

وضع يدًا في جيبه، والأخرى تمسك بالعكاز، الخطاب الذي استلمه من المنزل كان مطويًّا بعناية ومنتظرًا لأن يُرسل من جديد للمُرسِل في أقرب فرصة. عرف سايمور الأب بفسخ الخطوبة من قِبل كارولين، وأرسل لابنه يقول إنه لا يمكن له أن يلومها. وهو ما يعني أنه يلقي باللوم عليه. لا بد أن يحمل شخص ما الذنب في أعيُن المجتمع المفترس والمريض. فكر ألكسندر كثيرًا في اللقاء الأخير بينه وبين كارولين، وفي الخاتم الذي ألقى به ليلًا. ربما هناك وسيلة لتحويل ذلك الوعد المكسور إلى بدايةٍ جديدة.

يسأله أبوه، ما الذي يجْنيه بانضمامه إلى المطرِّزين. ويرسل له تحذيرًا: عُدْ إلى الصفوف على الفور -ووجد ألكسندر في الدعابة ذات الطابع العسكري ذوقًا سيئًا جدًّا- وإلا سأحرمك من أي مساعدة مادية، بل وستُغلق دونَكَ أبواب المنزل المشرعةُ، وشركة العائلة، إلى الأبد. وستظل وحيدًا، بإعاقتك تلك، بلا أي ميراث. إذا لم يكن الاحترام والامتنان نحوي هو ما سيقنعك، لتكن الأموالُ إذن، والتي من دونها ستصبحُ لا شيء في هذا العالم. هل هذا ما تتمنى أن تفعله، أن تتسول على نواصي الشوارع؟

كتب ألكسندر الرد في آخر الرسالة أسفل توقيع أبيه، مستعينًا بكلمات هيراقليتوس، العزيزة جدًّا على ذلك الرجل الذي يؤكد أن قلبه على ابنه، ولكن لم يتردد أن يهدده، واقتنعَ أنه نجح في ذلك.

لا يدخل الرجل في النهر نفسه مرتين، لأنَّ النهر لا يبقى على حاله أبدًا، ولأنه لم يعد الرجل نفسه.

لقد تخضَّب ألكسندر بدماء رفاقه ودماء العدو. لقد اغتسلَ من تلك الدماء بمساعدة أيادي النساء، في حوض استحمام كان معموديته. لقد أزهرَ بين ذراعي كيت، وأسفر دعمها له في خطواته الأولى عن ميلاد جديدٍ. لم يعد الرجل نفسه الذي دخل إلى حوض الاستحمام.

لقد اتبع الكثير من الأوامر في حياته ليفهم أنها ليست جميعها منطلقة من الشُّعور بالعدالة، ولا ينوي أن يتآلف مع قواعد حياة لن يكون لها أي معنىً بالنسبة إليه. يشعر برغبة كبيرة تتسع بداخله، كانت قوية وملموسةً، لها وجهٌ واسمٌ. وجد صانعة تلك الانطلاقة تتقدم في الممر، وبجوارها فلورا موراي. يشهد الرَّبُّ على ما يراه! كانت كيت ترتدي بنطالًا رجاليًّا أسفل السُّترة العسكرية. بنطال واسع، رمادي وضعت طرفيه داخل الحذاء ذي الرقبة. شعر ألكسندر بحنجرته تُغلق. مد يده على عقدة رباط العنق وخففها قليلًا، قبل أن تراه هي.

رأته، بالتدريج. وعندما تلاقت نظراتهما ونزلت نظرتها على صدره. لم يكونا قد تحدثا منذ ليلتين، عندما كانا في طريق مهجور وتظاهرا بأنهما يحملان صناديق حليب خلالَ حظر التجول، قبل أن يتسلق هو السور المحيط بمنزل ارستقراطيٍّ ليتحفَّظَ على صاحبه. شعر برغبةٍ في الضحك.

إذا كانت الحياة تحتاجُ الجنون والشجاعة، فكلاهما لديهما من الصفتين الكثير.

توقفت كيت لتتحدث معه.

- حُلَّتْ عقدةُ ربطة العنق حضرةَ النَّقيبِ! لا بد أن تكون قدوةً.

- أحتاج للمساعدة.

ضبطتها له بإيماءةٍ لم تكن لتجرؤ عليها حتى وقت قريب، حيث إنها لم تكن تتخيل حتى أن تنظر لألكسندر في عينيه.

أمسك هو بيدها، بسرعةٍ. قبْلها كان يشعر برعبٍ أن يمسك باليدين اللتين بترتا ساقه. ولكن الأمر لم يعد كذلك. لم يقل شيئًا، إنَّما ملامحه قالتْ كلَّ شيءٍ، لا بد أنه صرخ أمام اليد المتحررة أخيرًا من الخاتم.

تنحنحت هي:

- تبدو مندهشًا، إلا أنك تعرف أنه لم يكن سِوى خدعةٍ.

ترك يدَها:

- هذه ليست دهشة، بل سعادة. أنا أطرز وأنت ترتدين البنطال. بمَ سيفكر السادة المهذبون القادمون إلى هنا بعد قليل؟

- ليس لديك أدنى فكرة عن كم الحوادث، المميتة أيضًا، التي تتسبب فيها تلك الطبقات والطبقات من القماش والطيَّات. تُحشر النساء أسفل عجلات العربات أو تُحرقن أحياء لمجرد الاصطدام بشمعة. هذا إذا لم نفكر في التعب. بصراحة، لا يهمني ماذا سيقوله أولئك الرجال. وأنت؟

توقف ألكسندر منذ فترة عن الاهتمام بما يقوله الآخرون. ولكنه كان رجلًا وكان هذا مسموح به. أما هي، فإنَّها تنتزع كلَّ انتصارٍ من بين أسنان الآخرين. لقد سمع عن نساء حاولن من قبلُ، وشُتمن في الطرقات، وضربهن المارةُ بما وجدوه أمامهم.

شعر برغبة في أن يأخذها بين ذراعيه.

- إذا قالوا لكِ أي شيء مسيء، تعالي إليَّ.

ووجد نظرة الراحة أخيرًا في عينيها.

- وماذا ستفعل أيُّها النَّقيبُ؟ هل ستقود حملةً جديدةً للقصاص.

- لن يضايقني هذا بالتأكيد.

وصل إرنست ثيسيجر، تصحبه إليزابيث روبن، وليدي جوديث، والعديد من الوجوه البارزة في حركات تحرير المرأة. مَن استطاع المجيء أتى لمؤازرتهم.

لاحظ ألكسندر أن كيت تنحَّت مبتعدةً قليلًا، عندما أتى نحوهما. واقتربتْ منه.

- إرنست، هل تحمل أخبارًا؟

- ليست جيدةً للأسف.

خفض أرنست نبرة صوته:

- لن تتدخل الملكة في الأمر، الأمر خارج النقاش، ولا بد من التصرف بمفردنا.

- وهل سننجح؟

رفع إرنست قبعته، ونظفها بقفازه.

- عزيزتي الدكتورة، كل منا هنا فعل شيئًا لم يكن على بال أحد من قبلُ. ما الذي يمكن عمله لإسكات مجموعة من الرجال الصغار المتمسكين بمواقفَ مناهضةٍ للتقدم؟

ثم توجه بحديثه لألكسندر:

- إذا استطعتم أنتم الجنود أن تقولوا بعض الكلمات المؤيدة...

- سنقولها جميعًا.

- إذن الجبهةُ متماسكة.

لحقت بهما فلورا ولويزا أيضًا. بدتْ الأولى في ضيقٍ، عندما ألقتْ بنظرةٍ على الساعة المعلَّقة على جدار المدخل.

- أتساءلُ إذا كانوا مدركين أنه لكي نجيب على اعتراضاتهم الحمقاء اضطررنا لتأجيل العمليات الجراحية المجدْولة ليومٍ كامل.

قدم إرنست ذراعه لكيت.

- إذا لم يكونوا يعرفون هذا، سنجد طريقة ما لإخبارهم بكلِّ شيء من أجل كسب جزء من المعركة. ترتدين البنطال؟ يا لها من فكرة رائعة.

نظرت كيت لنفسها.

- هل تظنه غير مناسب؟

- عزيزتي، تسألين هذا لمن يستخدم الشعر المستعار ومستحضرات

التجميل في عمله. على كل حال الإجابة هي كلا. أجده أكثرَ من مناسب.

ساروا معًا وتوجهت فلورا نحو ألكسندر:

- هل ستأتي معنا، أيضًا، حضرةَ النَّقيبِ؟

فكَّر ألكسندر أن يظل بعيدًا عن المسألة، ولكن بدت فكرة غير عملية، حين يهدد العالم الخارجي بأن يُدمر المشروع الوحيد الذي نتج عن الحرب.

تبعهم ولكن من بعيد.

استقبلتْ فلورا ولويزا الضيوف بابتسامات وبالشدِّ على أياديهم، ولكن ألكسندر يمكنه تخيل ما تشعران به. لا بد أن الأمر مهينٌ أن يضطر المرءُ إلى شرح ما يفعله باستمرار، وأن يراه خاضعًا لإدانة مَن لا يستطيع أن ينجز نصفَ هكذا مشروع، وهو يعرف تمام المعرفة أنه قد يفقد كل شيء لمجرد كلمة في غير محلها، أو حتى نظرة. أدرك بمرارةٍ أن النساء اعتدنَ على ذلك. كلُّ تصرف منهنَّ وكل فكرة، كلُّ نفَس أو ابتسامة تُراقَب منذ الأزل، مِن ذاك الذي يمكنه أن يسمحَ بها أو يمنعها، مِن أبٍ أو زوجٍ، أخٍ أو رجُلِ دين، بل وحتى مِن ابن.

بدأت نساء مستشفى شارع إيندل جولتهن خلال متاهة الصمم الذكوري. لم تكن المرة الأولى ولن تكون الأخيرة. لم ينقصهن الصبر، حتى وإن كنَّ من الداخل راغباتٍ في الصراخ.

أحد المفتشين، لورد إشر، بدا وكأنه على علاقة وثيقة بالطبيبات، ومع كلِّ تعليق غير لائق لأحد من زملائه كان يحاول أن يرمِّم الموقف،

بتعليق موازٍ في القوى، ولكن لصالح النساء. مما فهمه ألكسندر كان إشر أحد أعند المعارضين لموراي وأندرسون في زمن المشروع الأول على الأرض الفرنسية، ولكنه سرعان ما آمن بهن، ونقل إلى الملك حكمًا أكثر من إيجابيٍّ عن عملهنَّ.

عندما وصلوا إلى الصالة المشتركة، وأمام أعمال التطريز الدقيقة التي أبدعتها أيادي الرجال التي كانت تجسد ملامح البطل، أُصيبَ الموظَّفون بالفزع.

- نحن في حرب، بحق السماء! نحتاج لرجال خشنين وقساة. ماذا سيقول العدو إذا عرف ذلك؟ ليته ظلَّ نشاطًا سِريًّا، ولكن هكذا...

سير راتل، الرجل المهذب الذي أبدى اعتراضه، لمَس بعصا المشي خاصته ستارًا رقيق من الكتان، عليه طرز عليه أندرو كأس الطقس الكنسي. رفض أن يمسكه بيده، وكأنما سيصيبه بالعدوى.

خجل ألكسندر من أجله.

لم يترك إرنست نفسه ليُهزم أمام الاحتقار الذي ظهر بوضوح. وباقتناع شرح أن نشاط التطريز أثبت أثره الفعَّال في تهدئة الأذهان المجروحة للجنود، وأظهر مواهبَ عظيمةً مختلفةً لدى كلٍّ منهم.

- فهم ينتجون أعمالًا دقيقةً جدًّا إلى حدٍّ أنها يمكن أن يكون لها سوق. وبهذا الصَّدد، عثرتُ على مكان مناسب لإطلاق مشروع صغير، ينبئُ عن إمكانية الحصول منه على دخلٍ سريعٍ: ورشة تطريز يُعيَّن فيها الجنود المعوقون، فقط، في رقم اثنين وأربعين بشارع إيبوري.

الوحيد الذي بدا معاديًا للاقتراح، على الأقل ظاهريًّا، كان سير راتل.

- هل تتخيل، جديًّا، أنَّ بإمكانكم مساعدتهم بهذه الطريقة؟

- إنني مقتنعٌ، من موقعي كسكرتير شرفي لنادي مشغولات الإبرة، وكرجل. بل دعني أخبركم الأكثر من ذلك: ستقتنعون بدوركم في نهاية هذه الزيارة.

التفت سير راتل نحو السادة الآخرين:

- ماذا بحق الجحيم؟ سكرتير مشغولات الإبرة! ربما لا تعرفون جميعًا الإشاعات التي تدور عن السيِّد ثيسيجر، بخصوص علاقاته.

استمر إرنست في الابتسام، ولكن انطفأت ابتسامته، تحولت إلى شيء مصطنعٍ.

- إشاعات يا سيدي اللورد؟ أنا دائمًا علامة جيدة على النجاح. فأنا ممثل، إذا لم تمدحه كثيرًا، على الأقل يمكنك أن تقول إنه جيد.

- حسنًا. أعتقد أن هذا يعتمد على الإشاعات. في حالتك، الأمر يتعلق بأذواق غريبة بعض الشيء. هل تعرف أن السجن يمكن أن يكون نهاية بعض النزوات. ألم ينته مثلكم الأعلى كممثلين بجريمة مِثلية، ذلك المدعو أوسكار وايلد؟ كتبَ خطابًا يائسًا لعشيقه، إذا لم أخطئ. لا بد أن تضع في حسبانك ذلك اليأس وتبعد عنه.

عندما ذُكر اسم صديقها بتلك الطريقة المزرية فزعت إليزابيث

روبنز. وتغير مرة أخرى تعبير وجه إرنست. وظهر على وجههما ألمًا قاسيًا، ولكن في الوقت نفسه إصرارًا وحشيًّا.

- أوه، هذا الألم أعرفه جيدًا يا سير راتل، لا تخشَ شيئًا. إنه ألم كلِّ النفوس الحرة التي تصطدم بمَن يرغب في جعلها مسوخًا. بالنسبة إلينا لم يبقَ لنا سِوى فصل واحد: ذلك الخاص بالألم. هذا ما كتبه ذلك الشخص، أوسكار وايلد، في كتابه (من الأعماق) الذي ذكرته. كتب أيضًا: إنه بحق أمرٌ مأساويٌّ أن ينجح قلَّة من الأشخاص فقط في امتلاك نفوسهم قبل الموت. الأمر يتطلب شجاعة ليصنع المرء من وجوده خبرةً كاملة، لا بد وأن يكون قادرًا على دفع الثمن. ونشكر الرَّبَّ أن أحدنا استطاع ذلك.

سادَ الصَّمت. ثم استطاع لورد إشر أن يعيدَ الحوار مرةً أخرى.

- سيِّد ثيسيجر، أريد أن أعرف المزيد عن مشروعكم، هذا، لإعادة التأهيل.

نفض إرنست عن كتفيه الهجوم الذي تعرض له للتو، بحركة أنيقة من رأسه، وفتح عيِّنةً مِن أعمال التطريز ووضعها أمام أعيُن الحضور.

- بالتأكيد. المقاعد من طراز الملكة آن، وطراز شيبنديل منتشرة بشكل كبير. على الأقل سيكون لدى سيادتكم زوج منها في منازلكم. على الرغم من أن عمرها لا يقل عن مئتي عام، فإنَّها أثبتتْ صلابتها. ولكن لا يمكن قول الشيء نفسه عن النَّسيج الذي يغلفها، والذي بعد الاستخدام لفترة طويلة بهذه الطريقة يهترئ ولا بد من استبداله. ولكن بأي شيءٍ؟

- بنسيج جديدٍ على ما أعتقد.

- نسيج قديم غير مطرز بدقة مثل الأصلي، ليس له القيمة نفسها. ولكن يمكننا نحن أن نزود بذلك المُطرز. كسوة حديثة مطرزة بوحي من التصميمات الأصلية. زرت أكثر من بائع والجميع أكدوا لي أن الطلب سيتجاوز بكثير ما يمكننا تقديمه. بشكل عملي قد ضمنًا بالفعل الطلبيات قبل أن نبدأ.

تقدم لورد إشر خطوة للأمام.

- تبعًا لما تقوله حضرتك هل سيستوعب السوق ذلك؟

- أنا أكثر من مقتنع. هذا النوع من الكراسي والمقاعد مطلوب جدًّا، بل ويُقلَّدُ أيضًا.

أدلى سير راتل بدلوه مرةً أخرى، وإن كان ذلك بهدوء أكثر.

- لا يزالُ عملًا للنساء.

عقد إرنست ذراعيه على صدره:

- لماذا، بحق السماء، يجب أن يكون التطريز مقتصرًا على النساء بينما صناعة النسيج، منذ عقود تُعد امتيازًا للمؤسسات الفنية والحرفية التي يقودها الرجال؟ ألا تقدم أيضًا تلك أشكالًا جميلة من الزهور؟

- ومَن يؤكد ذلك؟

- ذلك ما يؤكده التاريخ!

استمع ألكسندر لما يكفي. اعتزل ليدخن على سلالم المدخل. سند

عكازه على العامود، واتَّكأ بمرفقيه على الحاجز، بدت طريقةً جديدة للتوازن، أسطح مائلة يحتاج أن يتوازن أمامها. أخرج السيجارة والثقاب من جيب سُترته، وتساءل لماذا يرتديها حتى الآن. وأخذ نفسًا عميقًا.

أدرك أنه ليس بمفرده، ولكنه لم ينظر إلى القادم الجديد. ربما مثله، تعب من حديثٍ لم يعد قادرًا على احتماله.

سمع حك الثقاب، وتصاعد رائحة الكبريت. مرَّ الدخان الأزرق في أشكال لولبية أمام عينيه. إلى حد أنه شعر برائحته في حنجرته، واحتراق التبغ. بعدها سمع زفرة.

- أعرفُ أباك.

ألقى ألكسندر نظرة جانبية. لورد إشر. ضرب بإصبعه على السيجارة ليسقط رمادها.

- هل هو مَن أرسلكم؟

- لا. ولكنني هنا من أجلكم، من أجلكم أنتم أيضًا. فسمعة حضرتك لا يمكن أن تخفى على أحد، فأنت رجل ثمين في أزمنة مشؤومة.

لم يجب ألكسندر.

- قل لي، حضرةَ النَّقيبِ سايمور، ماذا يمثل التطريز بالنسبة إليك؟

ضحك ألكسندر، ضحكة موجهة لنفسه. لم يتخيل قطُّ أن بوسعه عمل ذلك، ولكنه طرز. أمسك الإبرة بين أصابعه ووضع فيها الخيطَ ونفذ أول غُرزة في بتلة زهرة. إذا كان ذلك يصنع منه شخصًا مجنونًا، غير

طبيعيٍّ، ذا طبيعة غريبة يجب إدانتها واحتقارها، فماذا إذن عن الحرب، وتمزيق أجساد شباب في مستهلِّ حياتهم؟

نظر إلى لورد إشر.

- هل تسألني إذا كنت أشعر أنني ما زلت رجلًا. الإجابة أجل، شيء لا يُصدق، أليس كذلك؟

- لا شيء تغير؟

- كل شيء تغير، ولكن إلى الأفضل.

- إذن هل تؤكد نظرية السيِّد ثيسيجر؟

- أي منا يمكن أن يؤكد لك أنه استمتع بالتجربة. لقد تجاهلنا الوقت والأفكار الأكثر كآبة. أبدعنا شيئًا لم يكن موجودًا من قبلُ، بتلكما اليدين المعتادتين على الدمار.

ثم نظر إلى كفَّيه.

- وثبتنا ذكرياتنا على القماش. إذا أدنتم أولئك النساء لأنهنَّ قدننا إلى تجربة الخيوط ومشغولات الإبرة، إذن يجب أيضًا أن تدينوا أنفسكم، لأنكم لم ترغبوا برؤية ما هو أبعد من ذلك.

أومأ لورد إشر مؤيدًا، وكأنه يؤكد على أفكار تأمَّل فيها كثيرًا.

- أريدك أن تعمل معي في فريقي بوزارة الشُّؤونِ الحربية.

شدَّ ألكسندر نفسًا آخرَ من السيجارة، وأطلعه على البتر الموجود بدلًا من ساقه.

- أنا خارج القتال يا سيدي اللورد.

ابتسم لورد إشر، غير متأثرٍ بالمرة.

- من أجل استراتيجيات الحرب لا يحتاج المرء إلى ساقين، بل إلى عقلٍ راجح، وهذا موجودٌ بالتأكيد، بالإضافة إلى الخبرة التي يمكنك الافتخار بها. إذن، كيف ستجيبني؟

لاحظ ألكسندر صفًّا من السيارات الفخمة تدخل من بوابات المستشفى. كانت لامعةً وكأنها خرجت للتو من المصنع.

- أشكرك على العرض، سأفكر فيه.

- لا تفعل ذلك لمدة طويلة، فالحرب لا تنتظر.

- أتقول لي هذا؟

كونت السيارات نصف دائرة، وارتطمت عجلاتها بحجارة الساحة، ثم توقفت. سيارة أخرى، أصغر قليلًا، ركنت خلف السيارات الأولى ونزل منها رجلٌ معه دفتر لتدوين الملحوظات في يده، ومصور. بدأ المصور بالتقاط الصور، عندما نزلت من السيارة اللامعة سيدة ترتدي الأبيض. تصحبها سيدتان، أصغر منها سنًّا.

ألقى لورد إشر سيجارته، وهو متوتر فجأة.

- لم يخبرني أحد بتلك الزيارة، هل تعلم مَن تكون؟

ألقى ألكسندر أيضًا بسيجارته.

- شخصية مهمة، على حسب ما أفهم.

- إنَّها صاحبة السمو الملكي، الأميرة فيكتوريا ألكسندرا أليس ماري، ابنة جلالة الملك.

انحنى لورد إشر عند رؤية السيدة الشابة التي تتقدم وخلفها السيدتان برفقتها.

خرجت الدكتورة لويزا غاريت أندرسون لتستقبلها مع بعض الزميلات. لم يرَ ألكسندر كيت بينهم، ولا فلورا موراي، وتمنى ألاَّ تكونا في مشكلة ما.

همس له لورد إشر:

- تعالَ معي. أتوقع تغييرًا ليس بالهيِّنِ.

عندما ارتدت كيت البنطالَ لم تكن تتوقع أن تأثيره سيكون كبيرًا إلى هذا الحد. فمسؤولية هذا التصرف لن تقعَ على كاهلها فقط، بل يمكن أيضًا أن يؤدي لانهيار يسحق خلفه نساء مستشفى شارع إيندل. كانت تعرف ذلك منذ أن لفَّت الحزام لتثبته على خصرها، ولكن من خلال السير به في الممر أدركت أنه خطر ملموس. كانت الأعين التي تنظر إليها تخضعها للفحص، سواء بخير أم بشرٍّ، وشعرت بصدى تلك الأحكام على جسدها. أحيانًا بدت كأنها تربت عليها، وأحيانًا أخرى تخدشها.

لماذا سمحت لها فلورا موراي أن تفعل ذلك، بل بالعكس اقترحته عليها، بدا لها الأمر غامضًا، ولكنها الآن تفهم السبب.

كل منهن كانت مدعوة أن تقف على قدميها أمام مطالبها، وليس فقطْ من الناحية المجازية. إنَّ التاريخ هو ما يستدعي ذلك، إنها تضحية الرفيقات المسجونات في الزنازين والمعذَّبات، بل والأهم؛ من أجل اللاتي يعانينَ من الكدمات داخل جدران منازلهن.

وكيت تقف على قدميها الآنَ من أجلهن أيضًا، ولكن بالأخص من أجل آنَّا، ولكلِّ اللاتي لم يولدنَ بعدُ. يمكنهن الحصول على بعض الأمل بمزيدٍ من الحرية أيضًا بفضل بنطال نجار عجوز، وامرأة مجنونة بما يكفي لتُقْدِمَ على ارتدائه.

تساءلتْ إذا ما كان الغضب -بسبب لقائها بفيليب- هو الذي سلَّحها بتلك الشجاعة التي لم تكن تعرف أنها تتمتع بها حتى هذه اللحظة. ربما كان السبب أن انسحاب ذلك الرجل سيحفر أخدودًا أكثر وعورةً وعمقًا في مسيرة حياة ابنتها، ولم يكن ذلك عادلًا.

رأت أن سير راتل، المفتش الذي تبادل الحوار المتوتر مع إرنست، قد لاحظ البنطال. يتحدث عن الموضوع مع زملائه وهو يشير إليها بلا أي ذوق. لم يضيع أي فرصة ليجذب انتباه الآخرين إلى الدونية المزعومة للمرأة، ولم تنجح حتى نقاشات هيزيل حول ما أنجزته المرأة مثل ماري كوري في اسكاته. لم يتأثر من سيرتها الذاتية ولا حتى عندما عرف أن مدام كوري أرسلت على نفقتها الخاصة إلى الجبهة آلة أشعة إكس متنقلة على محرك. بالنسبة إليه كان شيئًا لا يستحق.

عندما رأته يقترب، استعدت لما هو أسوأ. لمست فلورا ذراعها:

- أعصاب متينة يا كيت.

كان وجودها لا يُقدر بثمن، تلك التي كانت كيت تخشاها حتى وقت قريب.

أحاطها السيد المهذب بنظرةِ ضيقٍ.

- منذ متى يُسمحُ، في هذا المستشفى، بهكذا نوع من التصرفات

المشينة؟ امرأة ترتدي ملابس الرجال، أي نوع من النماذج هذا، إنْ لم يكن إظهار نوايا تلك الجماعة بوضوح؟ لأنَّ الأمرَ لا يتعلق سوى بهذا. جماعة من السَّاحرات.

لم يرد عليه أي منهم، حيث دخلت إلى الغرفة امرأة شابة، مرتدية ملابس باهظة الثمن، وبخطوة واحدة خطفت أنظار وإرادة كلِّ الحضور.

وجهت كلماتها الأولى لفلورا.

- دكتورة موراي، أنا سعيدةٌ بوجودي هنا.

انحنت فلورا

- صاحبة السمو، شرَّفنا وجودكم.

تعرفت عليها كيت من الصور التي رأتها. كانت الأميرة تنظر حولها. كانت رائعة الجمال، ذات نظرة فرحة، شعرها الكستنائي مضموم على عنقها في موجات لامعة، عيناها فاتحتان مثل باقي أفراد الأسرة. عندما ألقت بهما على الرجل الذي تحدث لتوه أُضيئت ببرق بارد، ولكنها عادت لهدوئها على الفور.

قالت: يؤسفني أنني أخبرتكما عن قدومي خلال فترة وجيزة فقط، يا دكتورة موراي. لقد تمنت جلالة الملكة أن أزورَ مستشفاكم منذ فترة، عندما سمعتْ عن الأشياء الكثيرة الرائعة. الآن وأنتم تطرزون أيضًا، أصبح الدافع للزيارة أكثر إغراءً.

تقابلت نظرة كيت مع إرنست، والذي كان أكثر من مندهشٍ. حتى هو لم يعرف أي شيء. وعلى حسب ما يبدو، تلقت فلورا الخبر ذلك

الصباح، واحتفظت به سِرًّا. فكرت أن كل شيء فيها يبدو رائعًا، وفي الوقت نفسه تتمتع بقوةٍ طاغية.

ثم قالت: إنني سعيدة جدًّا، وحضرتك أيضًا تهتمين بالتطريز؟

- أوه، بالتأكيد، كلُّ يومٍ تقريبًا. وأيضًا جلالة الملكة والسيدات الحاضرات هنا معي. ونتشوق لرؤية أعمال الجنود. أشار السيِّد ثيسيجر أنها عالية المستوى جدًّا.

أومأت فلورا، بحسمٍ.

- لديَّ أسبابٌ تجعلني أعتقد أن هذا حقيقي. إذا سمحتم لي، سنتقدمكم نحو الطريق أنا ودكتورة هيل.

- بالتأكيد.

ابتسمت الأميرة ولم يقع نظرها قطُّ على الملابس التي ترتديها. إلا أنها لا بد وقد سمعت ما قاله المفتش. سمعته، وكان هذا هو ردها.

أحد أعضاء العائلة الملكية تصحبه امرأة ببنطال، ممثل وسكرتير مشغولات الإبرة، أيًّا كان ما يعنيه هذا، وأول طبيبة أسست مستشفىً يدرنهُ النساء حصريًّا -في قلب الحرب، على أرض غريبة- كانتْ من السفرغيت، وسُجنت من قبلُ.

فيكتوريا ألكسندرا أليس ماري، والتي تُدعى ببساطة ماري مثل أمها، لم تكن هنا لمجرد الزيارة، ولا حتى لترى التطريز. لم يكن من الصعب فهم مَن كانت تمثل. وأن جلالة الملكة استجابت لنداء إرنست المُلحِّ، ولم ترغب في ترك صديقها بمفرده.

رفعت كيت نظرها وقابلت ابتسامة ألكسندر. كانت تشعر بالتوتر والاضطراب، ربما ببعض التيه أيضًا، ولكنها تعي تمامًا دورها في العالم.

يلتقط المصور الصور بينما تقدم السيدات اللاتي تصحبن الأميرة الأعمال المطرزة لتقييمها. بدا عليها الحماس وأثنت على عمل النساء والرجال في مستشفى شارع إيندل.

وما قالته بعدها بقليل، أمام الصحفيين والمفتشين، لم يكن متوقَّعًا مطلقًا.

- أنا سعيدة بأن أنقل رغبة صاحبة الجلالة، الملكة، بأن تطلب من الجنود تطريزَ غطاء يخصص للاستخدام المقدس في الكنيسة الصغرى الخاصة بقصر باكنغهام.

٦٨

١٣ أكتوبر ١٩١٥

حلَّ المساء في مستشفى شارع إيندل، ومن جديد أُطفئت الأنوارُ.

أحيانًا ينسى الجميعُ أنهم في قلب المعركة، وتمرُّ الأيام في سلام، وتتوقف النفوس عن الارتجاف. ولكن عندما يحلُّ الليل، فإنَّ الظلمة القديمة التي نسيها الإنسان منذ عقود، تجعله يتذكر معنى الخوف. لا توجد شعلةٌ من التفكير يمكنها أن تمنع الشعورَ بالحذر.

نزل ألكسندر إلى الساحة. انتظرَ أن يسمع التنفس المنتظم لرفاقه الغارقين في النوم لينفرد بنفسه. كان للهواء رائحة غريبة، مثل رائحة المحيط، ذات رغوة مالحة، ورائحة الأعشاب البحرية المعلقة في صخور تلطمها الأمواج. كان الجو رطبًا كأنهم في عمق أحد الخنادق.

استند على العكاز، وأشعل سيجارة ورفع بصره نحو السماء. يلمع اقتراح لورد إشر كنجم قطبي في ذهنه. يشير له بطريق الخلاص. ستسمح له بأن يقوم مرة أخرى بدوره في مواجهة العدو.

أحدهم نزع السيجارة من بين شفتيه، حتى كاد يسقط من المفاجأة.

- نحن لا نعالجكم لنسمح لكم بإيذاء أنفسكم.

كسرت فلورا موراي السيجارة نصفين وألقت بها في سلة المهملات.

بحث ألكسندر عن توازنه وهو يقفز.

- هكذا أنتِ من يسبب لي الأذى.

أمسكت به من مرفقه. كانت قبضتها حديدية ورقيقة في آنٍ واحد. فكر في أنها يد طبيب. لا بد أن تكون مستعدة للقطع والتوسيع وشق طريقها في جسد إنسان، وفي الوقت نفسه في الحفاظ عليه.

- رأيت ما يكفي من رئات مدخنين عن قرب لأقولَ لك إن تلك العادة السيئة تصبغها باللون الأسود للفحم، أيُّها النَّقيبُ.

- لماذا ترغبين في تدمير المتعة الوحيدة التي بقيت لي؟

- ما الذي تفعله هنا وأنت ما زلت بزيك العسكري؟

نظر ألكسندر لنفسه، لم يكن قد فكر في الأمر. استولت عليه أحداثُ اليوم.

- أفكر، وحضرتك؟

- لا بد أن أتحدث معك.

نظر إليها باهتمام. دكتورة موراي المخيفة والمشغولة دائمًا تبحث عنه في منتصف الليل.

- لا أعتقد أنني فعلت شيئًا بشعًا، مؤخرًا. أيًّا كان سبب هذه المحادثة، لم أكن أنا المذنب.

رفعت هي أحد حاجبيها. تستطيع أن تعبر جيدًا جدًّا عن الألم الذي تشعر به أمام من يحاول خداعها.

- لديَّ دافع للاعتقاد أن لك دخلًا مباشرًا بما أنا على وشك إخبارك به يا «ألكسندر».

عندما دعته باسمه، بهذه الطريقة، شعرَ بأنه تلميذ أمام السبورة.

- قولي لي إذن، كي أُبدي ندمي.

- آهٍ، لا أتوقعَ هذا. تلقيت مكالمةً هذا الصباح، قبل أن يأتي المفتِّشون بقليلٍ. وبعدها لم يكن لديَّ الوقت لأخبرَك عنها.

فكر في مكالمة من المنزل.

- عائلتي؟

- لا. من قِبل سير غراي شخصيًّا.

ركز ألكسندر نظره على حصى الساحة، ثم ابتلع ريقه.

- حسنًا. أي جديد؟

- إذن. طلب مني والد أندرو أن أخبرك أنه سيتكفل بأي مصاريف ضرورية ليعيشَ ابنه بشكل مناسبٍ، بعد خروجه من هنا، وسيكون ممتنًّا لو كنتَ أنتَ من يتولَّى أمرَه شخصيًّا. انظر لي يا ألكسندر، ماذا فعلت لتقنعه؟

أخفى ابتسامةً.

- فقط بعض الصور، أقسم لك.

- الظرف الذي أرسلته بالأمس...

استقام ألكسندر. لم تعد لديه الرغبة في المزاح.

- هناك أعمال يمكن أن تبدو غير مريحة، ولكنها في عمقها صحيحة، وضرورية.

رفعتْ يدَها.

- لا أريد أن أعرف أيَّ شيء.

- أفضل.

ضمت فلورا سُترتها.

- قريبًا ستترك المستشفى. ماذا ستفعل.

نظر ألكسندر صوبَ النجوم مرة أخرى. وبحث عن النجم القطبي.

- عُرض عليَّ اليوم عرضٌ يمكنه أن ينظم الكثير من الأمور، عرضه لورد إشر.

- وهل تنوي قبوله؟

- لا.

- لِمَ لا؟

- لأنه سيساعدني أنا فقط، وليس الرجال الذين ينتظرونني في تلك الغرفة. لديَّ مشروع أفضل.

- هل يجب أن أقلق؟

سار ألكسندر نحو الحديقة الصغيرة.

- ساعديني في العثور على خاتم.

- هنا؟

- في حمية الغضب ألقيت به. تبعًا لحساباتي لا بد أنه يكون قد وقع تقريبًا بين تلك الأحراش.

نظر إليها بمكر.

- إنه خاتم خطوبة، مهم.

ساعدته فلورا ليتسلق السور المنخفض، وعبرته بدورها.

- هل ستطلب من خطيبتك أن تعيد النظر؟ وهل ستقول لأبيك إنَّ كل شيء سيتم كما يتمنى؟

انفجر ألكسندر في الضحك.

- لا توجد خصوصية في هذا المستشفى.

- لم تجب.

أشار هو إلى الكواكب فوق رأسيهما.

- أليس الحب هو ما يحرك العالم.

- أجل، بأي اسم ستطلقه عليه. هذا إذا كان ما يربطك بتلك المرأة هو الحب. هل هو كذلك؟

- مَن يدري؟ أحيانًا لا بد من المخاطرة؟

- الآن ظلام. كيف تفكر في العثور عليه.

- سيلمع.

ركعتْ فلورا.

- مجاز رائع. وإذا أخذه أحدهم؟

- إذن، معناه أن هذا ما كان يجب أن يحدث.

- قدريٌّ أيضًا! شيء غريب على رجل يبحث عن بدايةٍ جديدة.

- أريد أن أفكر في أن بدايةً جديدة تستحق على الأقل بركة من السماء. ماذا عنك؟

أطلعها ألكسندر -بانتصار- على الخاتم الذي عثر عليه للتَّوِّ.

ولكنَّ ظِلًّا سقط عليهما، وحول الليلَ لظلام أشد عتمةً. اختفت النجوم وغطاها هيكل أسودُ. نهضا كلٌّ منهما يسند الآخر. شيء ما يتحرك في السماء باتِّجاههمْ.

٦٩

فتحت كيت عينيها على ليل مُخترق. تعبر خيوطٌ من الضوء الأبيض الظلام من جهة لأخرى، وكأنها ترغب في عبور كل ضباب حتى تزيحه. نهضت بصرخة في حنجرتها وبحثت بتلقائية عن الجسد الدافئ لابنتها. تصرخ أجراس لندن معلنة عن هجوم وشيك.

- ماما؟

- نامي يا حبيبتي.

ترتعش يداها، وقلبها أيضًا. ارتدت كيت الزِّيَّ فوق قميص النوم. أخذت بعض ملابس آنًا ولفتها في أحد الأغطية. فيما وراء النافذة تطارد الأضواء المنعكسة الموضوعة على أسقف المباني الظلَّ الأسود يتقدم فوق المدينة.

بالغطاء الملفوف بين يديها، ركضتْ كيت في الممر. بدأت أبواب الغُرف تُفتح رويدًا رويدًا، تكشف عن وجوه خائفةٍ، وأجسادٍ أُلقيت عليها بعشوائيةٍ أول ملابس صادفها أصحابها. ذهبت مينا ومعها جوزيف نحوها. يعرفان تمامًا ما يجب فعله. سلمت لهم كيت الطفلة

وهي تحتضنها لمَرَّةٍ أخيرة، وكأنها لن تراها بعد ذلك. وعدتها آنًا بأنها لن تخاف، لأنَّ لا شيء يخيف. قبل أن تلحق بهم في المخابئ أسفل الأرض، لا بد وأن تساعد كيت زميلاتها في نقل المرضى إلى الأمان.

عندما انفصلت عن ابنتها، شعرت بتمزق في أعلى معدتها. هرعت إلى أسفل على السلالم لكبح جماح الرغبة في الصعود مرة أخرى لتأخذ ابنتها بعيدًا عن بشريةٍ متعطشة دومًا للدماء.

أُطفأت الأضواءُ، والجميع يتحرك مع الفوانيس التي يمكن إخفاء ضوئها.

في الأجنحة، بدأت الزميلات المناوبات خطَّةَ الإخلاء بالفعل. دُفعت بالفعل أَسِرَّةُ من لا يستطيع النهوض حتى المصعد، المستخدم فقط مع الحالات الحرجة. استخدمَ الآخرون النقالات. حملت كيت على ظهرها هذا الثقل وشكرت الخبرة التي حولتها لامرأة مختلفة جدًّا عن الصبيَّة التي كانت عليها. الرجال الذين يستطيعون النهوض ساعدوا الآخرين على النزول. تقدموا ليساعدوا جنود حراسة البوابات أيضًا. وخلالَ وقت وجيز كانت الغرف فارغة. يمكن أن يكون المنطاد فوقهم الآن، أو بعيدًا، لا أحد يعرف. يتحركون وهم يتحسسون الظلام في فزع. تمسك فلورا ولويزا أندرو من ذراعيه، عندما نادت الأولى على كيت.

- تأكدي من أن الجناح فارغٌ، ثم انزلي أنت أيضًا على الفور.

مرَّت كيت من حجرة إلى أخرى وأغلقت خلفها كل باب، إشارةً على خلوِّها.

عندما وصلت إلى غرفة ألكسندر وجدت سيسيل وأوليفر جالسان على السرير، كانا يرتديان أزياءهما العسكرية. الحركات المتحكَّم فيها، والتي بها يعقدون أزرار السُّترة ويربطون الأحزمة، كانت استثنائيةً.

- ماذا تفعلان هنا؟ هيا، لا بد أن ننزل إلى أسفل المبنى.

مررت ذراعها حول صدر سيسيل ولكنه أبعدها بحسم.

- نحن لن ننزل.

- ما معنى أنَّكما لن تنزلا.

أصرت، ولكن سيسيل ابتعد مرة أخرى.

- المدفعية المضادة للطائرات فوق السطح. وهناك جنود، يجب أن نبحث عن ملجأ ونظل فيه حتى يمرَّ الخطر.

نهض أوليفر وحمل سيسيل على ظهره.

- لقد رأينا تلك المدافع. الارتفاع ليس كافيًا ويجب أن يُصحح، وإلا سيطلقون النار على كلِّ شيء إلا ذلك الشيء الذي بعد بضع دقائق يمكن أن يكون فوق رؤوسنا. الجنود الذين تتحدثين عنهم ليست لديهم أي خبرة حربية.

أرادت كيت أن تصرخ، وأن تقول لهم إذا أرادا الموت فهما حُرَّانِ في هذا، ولكن ليس هنا، وليس في تلك اللحظة، وليس وهي المسؤولة عن سلامتهما. إلاَّ أنها قالت ما خطرَ ببالها فجأةً:

- أين ألكسندر؟

بدا لها أن صوتَ الأجراس تحوَّل إلى ترتيل جنائزي، إلى بكاء كلِّ

النساء اللاتي منذ بداية الصراع دفنَّ أحبائهنَّ في الأرض الباردة لقلبٍ مدمَّر.

أجابها أوليفر من أمام الباب، وقد قرر أن يصعد الطوابق الأربعة وسيسيل متشبِّثٌ على عنقه.

- ألكسندر ذهب ليبحث عن ساقٍ، وسيأتي معنا هو أيضًا.

ساقا الأول أصبحتا أيضًا ساقي الثاني، وأي شيء ينويان عمله، كانت كيت متأكدة بأن ذراعي سيسيل القويتين ستحلاَّنِ محلَّ ذراع أوليفر المبتورة.

مكثت بمفردها، فريسة الأفكار المتصارعة. تنزل وتعود إلى آنَّا، في الأمان. أم تصعد بحثًا عن ألكسندر، تحت وابل القصف.

هُرعت نحو المدخل. لن تستطيع أبدًا أن تغلق على نفسها المخابئ وهي تعرف أنه هناك على السطح. لوهلة بدت لها الردهة بيتَ أشباحٍ. من حين لآخر تشعل صواريخ الإضاءة التي تُطلق في بعض أنحاء لندن الفراغَ الذي تسبب فيه وصول الأعداء، ويتشوه كلُّ شيء، كان في البداية مسالمًا، ويتحوَّلُ إلى طيفٍ يكبر.

لم يعد هناك أحد، فيما عدا شكل يصعد بصعوبة السلالم. ركضتْ كيت نحوه، وأمسكت سُترة ألكسندر وكادت تسقطه أرضًا، صعدت يديها حتى ياقته وهي تتشبث به. تريد إيقافه واصطحابه لمكانٍ آمنٍ، ولكنها كانت يائسةً، لعلمِها بأنه لن يسمح لها بذلك.

- إنه جنون، لستَ مجبرًا على التضحية.

رفع يده، وكأنه يرغب في أخذ وجه كيت في كفه، ولكنه لم يفعل. فقد أفزعهما انفجار قنبلة قريبة، وبحثت يداهما آنذاك كل عن الأخرى ليدعما بعضهما.

قالَ: ليس جنونًا، نحن نعرف ما نفعله. اذهبي أنت الآن إلى المخبأ. سآتي لأنادي عليكم بمجرد أن ينتهي كلُّ شيءٍ.

كان صوته هادئًا بينما العالم من حولهما يشتعلُ. فهمت كيت أن كلًّا منهما في هذه اللحظات المتوترة يشعر أنَّ لديه قدَرًا ينبغي تحقيقه، ولا يستطيع أن يحرِّرَ نفسه عنه دون أن يضطر إلى تنحية أنانيتهِ جانبًا.

جثتْ كيت على ركبتيها، وعيناها تحرقانها.

- لقد ركبتها بطريقة خاطئة.

وسارعت بأن تعيد تركيب ساقهِ الصناعية. سبق ورفض أن يستخدمها، إلاَّ أنه في تلك اللحظة قبل بذلك. بقيتْ السَّاقُ لفترةٍ في معمل جوزيف، وأصبحتْ لعبة آنَّا. رسمت عليها الصغيرةُ زهرة خشخاش. عندما رأتها كيت لم تجد الكلمات، فهذه الزهرة تطاردها.

نهضت وساقاها تؤلمانها.

- ابقَ حيًّا.

توسلت في همس، ولم تعرف إذا كانت تحدث الرجلَ أم تدعو الرَّبَّ.

- عُدْ إليَّ.

وبهذه الكلمات أدركت أنها أفشت سرها، دون داعٍ.

رفعها هو. لم تكن قبلة وداع ولا صفح. لم يكن فيها يأس ولا

غضبٍ من قدَر عدواني. كانت رجوعًا إلى مَسكن ما، لمن لم يكن له قبل تلك اللحظة مَسكنًا في هذا العالم.

انفجار آخر، أقرب هذه المرة، هزَّ جدران مستشفى شارع إيندل.

أوقفها ألكسندر.

- سأعود، ولكن لتنتظريني.

أخذت كيت تنظر إليه وهو يختفي على الدرجات اللولبية، وروحها مضطربة.

أحدهم لمس كتفها، كان أندرو.

قالت له: ليس من هذه الناحية، يجب أن تنزل، يجب أن تذهب إلى أسفل.

دفعته برقة، ولكنه أمسك بيدِها.

- لا بد أن أذهب إليهم يا دكتورة.

كان يرتجف. لا بد أن فكرة العودة تحتَ القصف تمزق روحه، إلا أنه لم يرغب في ترك الآخرين بمفردهم.

شدت كيت هي أيضًا على يده.

- لنذهب معًا يا أندرو.

صعدا حتى خرجا إلى السطح تحت السماء السوداء. استمرت الإشارات الضوئية تعبُرها من جهة إلى أخرى. تشبثت كيت بالسياج الأسمنتي، خوفًا من دوار يتسبَّب فيه الرعبُ. كان المنطاد انعكاسًا فضيًّا يومضُ ثم يُطفَأُ بعدها بقليل. بدت حركته بطيئةً، ولكن ربما كان ذلك

مجرد تشوش في الرؤية. أطلق قنبلة أخرى على منطقة كوفنت غاردن. تشتعل النيران بقوة وكأنها مدفأة عملاقة.

لم تستطع كيت أن ترفع نظرها عنها.

صرخ أوليفر: إنه قادم نحونا!

كان ألكسندر وسيسيل يدمرون أحد المداخن بهراوة.

عندما أدرك ألكسندر وجودها هي وأندرو، بدا على وشك أن يرسلهما إلى أسفل، إلا أنه أشار على ضوء كاشف، وطلب منهما أن يوجهاه نحو العدو. كان جنود المدفعية المضادة للطائرات يحركون الأضواء الأخرى بالفعل، ولكنهم بدوا مرتبكين أكثرَ من كيت.

دفعتْ بكلِّ قوتها لتحرك المصباح وتوجهه. تخيلت الطيار وهو ينظر إلى لندن من أعلى ويقرر إلى أي مكان سيرسل بشحنته التالية المميتة. تساءلت كيف يمكن لإنسان أن يتخلص من ضميره ويتجرد من الرحمة في اللحظة التي ينفذ فيها هذا الأمر.

طلبَ ألكسندر من أندرو أن يمسك بالإضاءة المرشدة، ودعاها لتقف بجواره.

- لا بد أن نرفعَ ذلك الوحشَ المعدنيَّ، وإلاَّ فلن يصيبَ المنطادَ، في الأعلى، أبدًا.

كانوا يغيرون درجة مَيلان قاعدة المدفع بالمعدات التي حصلوا عليها والصخور الذي استخرجوه من المدخنة.

سأل سيسيل: كم درجة تريد أن تضيف؟

فرَدَ ألكسندر خريطةً وقاس المسافة بالأشبار.

- عشرٌ.

- بعشرِ درجات ستسقط فوق فوكسول، أنا أرى أن خمسًا تكفي. حتى وإن لم نصبه، على الأقل ستسقط القذيفة في نهر التايمز.

- إذن لنرفع خمسَ درجاتٍ فقط.

أمسكت كيت ألكسندر من ذراعه.

- هل تحسبون بالأشبار. ويبمينستر من هذه الجهة.

ضم هو شفتيه ونظر إلى أعلى. توجد شاحنة متفجرات فوق رؤوسهم.

المسافات في الهواء لا يمكن حسابها بالنظر. لا يوجد شيء آخر يمكننا تجريبه، بالأشبار أو دونها.

رفع سيسيل وأوليفر أحد المدفعين بمساعدة قضيب من الصُّلب استخدم في نقلها. أحدهما بذراعيه القويين والآخر بظهره.

ابتسم ألكسندر لكيت.

- نظام الرفع يا دكتورة.

ومعًا نظما الحجارة أسفل المدفع.

الآن يبدو منطاد الزبلين ضخمًا. يملأ العيون والسماءَ والنفوس بالرعب.

نقل ألكسندر كيت خلفه. ووضع يدها على قلبه.

- الآنَ!

أطلقوا النار. كان الانفجار قويًّا جدًّا إلى حد أن كيت شعرت بألم في أذنيها. دفعت القوة المدفع إلى الخلف. حطم ما تبقى من المدخنة وتوقف عند السياج.

كان المنطاد لا يزال في مكانه، ويصوب نحوهم.

قال سيسيل: طلقة فارغة.

بدأوا من جديد ولكن هذه المرة رفعوا المدفع عشر درجات.

- الآن!

اخترق انفجارٌ ثانٍ الهواء. الارتداد الثاني أسقط المدفع إلى أسفل.

صرخت كيت، كانت تتوقع أمطارًا من النيران. رفعت نظرها خشية أن ترى أن لا شيء تغير، إلا أن المنطاد قد أصيب سطحيًّا من أحد الجانبين وغير اتجاهه مترنحًا.

أخذوا ينظرون إلى منطاد الزبلين وهو يبتعد في اتجاه الساحل، وتتصاعد منه الأدخنة السوداء.

لم تصدق كيت نظرها، وسمعت بالكاد صرخات النصر التي أطلقها أوليفر. بحثت عن ألكسندر بعينيها. رأته جالسًا، منهكًا، وظهره مستند على بقايا المدخنة.

عاد مستشفى شارع إيندل إلى حيويته. وفي الساحة أولغا تصرخ على أوليفر، الذي أطلَّ من وراء سياج السطح، متسائلةً: كيف بحق الجحيم وصل المدفع عبر أحراش الحديقة؟

علتْ ضحكة سيسيل. كان هو وأندرو ينظران إليه ويحضن أحدهما

الآخر. تغير أندرو، رأته كيت رجلًا لأول مرة، مالكًا زمامَ أمرهِ. لم يكن هناك أي أثر للخوف الذي كان يسحقه. ذلك الخوف لم يكن سوى تأثير أبيه، لا شيء أكثر من ذلك. لم يكن ينتمي إليه ولا يعبِّر عنه.

سأل سيسيل:

- سيِّدي النَّقيب! كم ساعة عملٍ ستجعلنا دكتور مواري نعمل تعويضًا عن الخسائر التي حدثت في مشفاها؟

ابتسم ألكسندر، ولكنه لم يجب. كان ينظر لكيت.

قال لها: تعالي هنا!

٧٠

تركت كيت نفسها لتسقط بجوار ألكسندر، منهكةً من الخوف. في الأفق اشتعل المنطاد وأنارت نيرانه الظلمات. يسْبح بين السحب مثل جحيم يبحث عن أرض يحطُّ عليها.

سألته: هل سيعود.

- ليس هذا. وبالتأكيد ليس اليوم.

كان إنجازًا بالفعل أن يعرفوا أنهم سيصلون إلى مساء اليوم دون أن يكون عليهم اتِّقاء هجوم آخر. كانت الحرب عبارة عن فقدِ كلِّ شيءٍ بلمح البصر.

فتش ألكسندر في جيب سُترته، فتح كفه وأطلعها على الخاتم. الياقوت أزرقُ مثل ليل أوشك على الانتهاء، والماس الذي يحيط به يتلألأ مثل النجوم. كان الخاتم الذي ألقى به في الحديقة.

كان يعجب كيت وتكرهه في الوقت نفسه، فقد كان لأخرى.

- استعدته.

- إنه أغلى من ألاَّ أمنحه فرصة أخرى.

شعرت كيت بقلبها يفقد إحدى دقاته.

أداره ألكسندر بين أصابعه:

- أنوي بيعه وبثمنه سأفتح مصنعًا صغيرًا للأطراف الصناعية، وربما ورشة تطريز وترميم يمكن للجنود السابقين العمل فيها.

تبدين مندهشةً.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- بالفعل.

- هل تعتقدين أنها فكرة مجنونة؟

- لا بالعكس، إنها فكرة جريئة، ولكن ليست مجنونة على الإطلاق.

- إذن لماذا هذا التعبير إذن؟

أمام ما تعرضوا له من خطر، هل الاعتراف سيكون صعبًا؟

- للحظة تخيلت أنك تريد أن تخطبني.

جذبها لتقترب أكثر.

- لن أخطئ في حقك وأهديكِ خاتم استعدته من أخرى.

أبعدت الريح رائحة الحرب. فكرت كيت في أنها بخَّرت بقوة الإعصار أي تردد.

نظر إليها ألكسندر وهو يفكر.

- ما زلتِ ذلك التجلي الذي ظهر لي في وحل ساحة المعركة في يبر. من بين رماد الدمار، بدأت رحلة إنقاذي.

عضت كيت شفتيها. أرادت بشدة أن تقول له، ولكنها لم تعرف كيف.

- لقد رأيت التطريز أيُّها النَّقيب.

- إذن رأيت كلَّ ما يعني لي شيئًا.

أخذ ألكسندر بكرة خيط من جيبه. كان من الحرير، يلمع في ضوء المنطاد المشتعل.

أمسك بيدِها، وبدأ يلف الخيط حاول إصبعها، ذلك الذي حرره هو من أربطة الماضي، حتى تكون عليه حلقة ذهبية. شعرت كيت بالحيرة.

- ماذا تفعل؟

قطع ألكسندر الخيط وثبته بعقدة.

- أقطع على نفسي عهدًا، معك ومع آنًا. إذا أردت. هل تريدين هذا؟

لم تجب هي.

لمس ألكسندر جانب وجهها بشفتيه، وبحث عن فمها.

- أنا لا أطلب منك الزواج لأنك بحاجة إلى زوج.

- وأنا لا أوافق على طلبك لأنني أحتاج إلى زوج.

ضمها بين ذراعيه، ونظر إليها وكأنه يحاول استعادة ذكرى بعيدة.

- هل سبق وقلت لي فيما تخصصك يا دكتورة؟

اجتهدت كيت في أن تحتفظ بجديتها.

- طبيبة أمراض نساء، أيُّها النَّقيبُ، وحاليًا جرَّاحة حربٍ. وحضرتك؟

- مدفعية مضادة للطائرات. وحاليًا أعمل بالتطريز.

قبَّلها. وسطعت الشمس في الأفق. وأصبح منطاد الزبلين بعيدًا.

بعدها ببضع دقائق ستُفتح بوابات المستشفى لاستقبال الجرحى. لم تنتهِ الحرب، البعض مقتنع بأن وقتًا طويلًا ما زال أمامها، ولكن في هذه اللحظة بدت الحرب بعيدةً بالنسبة لكيت.

يلمعُ الخيط الذهبي حول إصبعها، مرتجفًا، في ريح الحياة. ريحُ امرأةٍ خِيطتْ بأرض رجلٍ.

خاتمة

لندن، كاتدرائية سان بول، يوليو ١٩١٩

لم يكن هناك مكان أكثر قداسة في لندن للاحتفال بنهاية الحرب من كاتدرائية سان بول. كانت حجارتها ودعاماتها القديمة قد تحولت إلى رماد قبلها ببضعة قرون، وبالرماد عُجنت الأعمدة الجديدة التي ترفعها نحو السماء. فتاريخها يحكي الميلاد الجديد، الصمود الإنساني، العهد الذي يعقده الرجل والمرأة مع الرب الرحيم الذي يتألم على بشريةٍ معذبة.

في ذلك اليوم، كان سان بول هو القلب الدامي لبريطانيا العظمى. في صباح كان هو أيضًا من الرماد، تستقبل الكاتدرائية خدمة التسبيح وشعبًا أنهكته خسائرُ لا يمكن وصفها.

تشعر كيت بالألم يعتصرها، ولكنها لا تفعل أي شيء لتخفف من وطأته. فهي اللحظة المواتية لإنشاده، لأن تصنع منه حِملًا من أجل مَن لم يعد يستطيع تحمُّل أثقاله.

في حضن الكاتدرائية يتلألأ المذبح الرئيس. الكساء الطقسي الذي طرزه مئة وخمسون جنديًّا معاقًا يلمع بخيوط حريرية طرزتها أيادي رجال. تلك الأيادي منحت حياةً، وهي تقرب الغُرز والألوان، في

غصون مقدسة متشابكة، وفي ضفيرة من الزهور، تلك الوردة المقدسة، رمز إنكلترا. في وسط الستارة المصنوعة من الساتان، الكأس التي تمثِّل التضحية التامة، يُقال إنه تطريز جندي شاب.

شرب من هذه الكأس الكثيرون، إلى حد أن العديد منهم لم يرجعوا قطُّ. يرقدون هناك في أرض غريبة، فيما وراء البحر، أخيرًا في سلام. صلَّت كيت من أجل سلام نفوسهم أيضًا، ومن أجل حماية الأجيال الجديدة من أخطاء وأخطار جديدة.

أمامها، العديد من النساء والرجال تقاسموا معها مشروع مستشفى شارع إيندل يقفون الواحد بجوار الآخر. أوليفر وأندرو وسيسيل، ومعهم أطفالهم، أولغا وغريس... العلاقات المتشابكة بقوة في وقت الاحتياج والأمل لم تنحل قطُّ. فكرت في فلورا ولويزا اللتين لا بد وأنهما مشغولتان لتصلا في الموعد بعد الانتهاء من جراحة جديدة.

انتهت الحرب وبقي الحِداد، ولكن يعقب الحداد ميلادٌ جديد. إنها قصة البشرية. شعرت بالاحتياج لأن تسمع أنفاس آنَّا، مثلما كانت تفعل عند مولدها. أمسكت الطفلةُ برقبة أبيها، ورأسها منحنية بثقة على كتفه. وضعت كيت يدها على ظهرها. حرارتها حياة تنبض، نور ينير لها الظلمات.

ولكن الظلمات لم تكن دائمًا مكانًا خطيرًا وسيئًا. فهي في ظلال أحشاء امرأة تتكشف فيها حياة بأول نبضاتها.

أدرك ألكسندر حركتها. ابتسم، ثم فك من حول عنقه يد آنَّا ووضعها مع يده على بطن كيت المستديرة. هناك حيث ينبض قلبُ حياةٍ جديدةٍ على وشك الوصول إلى العالم.

كلمة المؤلفة

كما يحدث لي عادةً، أجد الإيحاءات الأكثر أهمية بينما أبحثُ عن شيء آخر. حدث هذا أيضًا مع هذه الرواية. كنت أبحث عن الوثائق الخاصة بقصة مختلفة تمامًا، عندما تقابلت بالمصادفة مع حياة إرنست ثيسيجر وخاصة فيما يتعلق بنشاط التطريز الذي كان يقوم به في المستشفيات العسكرية أثناء الحرب العالمية الأولى. استهوتني القصة جدًّا، وبدأت في التحدث مع عائلات وأصدقاء الجنود المُطرزين. وعثر حماسي على ما أبحث عنه في قصصهم.

وبدأتِ القصةُ التي فكرت في كتابتها في البداية تنزوي بالتدريج بعيدًا في ذهني، تاركةً المساحة لتوليفة من الألوان المختلفة وأيادي الرجال الممسكين بإبر التطريز بدلًا من الأسلحة.

عندئذ كان عليَّ أن أعثر على البيئة المناسبة، وكان من الطبيعي أن أبحث عن أخبار مستشفى -أي مستشفى، على أن تكون وُجدت بالفعل- والتي يمكن أن تعمل كخلفية لأحداث قصتي. وبالاستمرار في البحث والتقصي، وصلت إلى (مستشفى شارع إيندل العسكري).

عندما قرأت قصته، قصة النساء اللاتي أردن وأدرن هذا المكان بعنادٍ وإخلاص، لم أستطع أن أصدق كلَّ هذا الجمال. لم تكن لديَّ قصة واحدة، بل قصتان، قصتان كبيرتان، تلك الخاصة بالجنود العاملين بالتطريز، والأخرى الخاصة بالسيدات الطبيبات الأوائل. خيط لإطار القصة وآخر للحبكة، لأصنع منهما نسيجًا احتواني على الفور في دفء لا مثيلَ له.

كان البحث عبارةً عن رحلة عامرة بالمشاعر. وأدين بالامتنان لكتب مثل كتاب ويندي مور: Basic books) No Man's Land) والتي، وبعناية وشغف كبيرين، أعادت بناء المشروع الجَسور والاستثنائي الذي قامت به دكتورة فلورا موراي ودكتورا لويزا غاريت أندرسون، مع العديد من الزميلات في WHC.

Women as Army Surgeons, Being the History of the Women's Hospital Corps in Paris, Wimereux and Endel Cambridge Library) Street, September 1914 - October 1919 Collection)، والذي كتبته دكتورة فلورا موراي في «ذكرى شارع إيندل» وأهدته لرفيقتها أندرسون.

From the Hands of Heroes. The St Paul's Cathedral First Memory) World War Alteral Frontal and Memorial Book Ltd Media Lane) ولكن أيضًا ساهمت شرائط فيديو، أساسية لتركيب قصة الخنادق في الجبهة الغربية مثل

Vita nelle trincee. Prima Guerra Mondiale, di Studio

Le grandi battaglie della وكان الفيديو ضمن مجموعة Del Bianco storia, distribuzione Folio.

هناك العديد من الشخصيات والوقائع الحقيقية في هذه الرواية، وأتمنى أن أكون أعدت صياغتها بالامتنان والامتلاء الذي تستحقه. نسجتُ خيوط القصة من خيالي، ولكن فعلت ذلك بكل احترام ومشاعر لازمة لأمنح التقدير لقوة وشجاعة تلك الشخصيات: فلورا، لويزا، إرنست، إليزابيث، أولغا، هيزيل، غريس، ماري دي تيك، لورد إشر، مدام بيروز. Flora, Louisa, Ernest, Elizabeth, Olga, Hazel, Grace, Mary di Teck, Lord Esher, Madame Perouse، بالإضافة إلى موظف الاستقبال في كلاريج (كانوا اثنين، في الواقع، ولكنني تأثرت بالسيِّد كازانوفا)، كل هؤلاء كان لهم وجود فعلي، وقد ساهم كلٌّ بدوره في تغيير مسار التاريخ. وأردت أن يقابلوا أيضًا مدام ديكورسيل، والتي كانت إحدى الرائدات في زمنها.

ومَن يدري كم من كيت وكم من ألكسندر أحبوا، وانطلقوا في الأزمنة الأكثر ظلامًا، وفعلوا ذلك من أجلنا نحن أيضًا، لكي نعيش حياة، يمكننا اعتبارها اليوم حياة طبيعية.

أحيانًا يقدم لنا الواقع قصصًا دارت أحداثها بالفعل ولكنها تبدو مكتوبة بعناية، لما فيها من مغامرات وانفعالات وشجاعة. قصص، ما زال أمامها الكثير لتقوله وتمنحه لنا.

شكر

مكتبة
t.me/soramnqraa

كتابة التاريخ شغف محض، ولكن نشره بالتأكيد امتياز خاص. أشكر من قلبي كل مَن جعل هذه الرحلة الجديدة ممكنة. بدأت كمغامرة منفردة، مخيفة بعض الشيء، بدأت بي أمام ورقة ملأتها بالأفكار والاقتراحات والنظرات والبحث في عالم بدأ ينبض في ذهني يطلب مني أن أخرجه إلى النور.

إلا أن المغامرة أصبحت، بالتدريج، شركة من المجهود والأحلام، ومن المشاريع والانطلاقات. أريد أن أشكر العديد من المحترفين والأصدقاء، والذين تولى كلٌّ منهم دورًا أساسيًّا من أجل نجاح هذا المشروع. أشكرهم على الدعم، والحماس، والإخلاص، والعناية.

أشكر من أعماق قلبي المكتبات والعاملين فيها الذين أحبوا قصتي وأحبوني أيضًا ولم يتأخروا قطُّ عن مساندتي بمحبة، كل مَن قرأ القصص وعاشها معي من قارئات وقراء: إنكم أنتم مَن تكملونها بخيالكم ومشاعركم. في النهاية فالكتابة والقراءة هما خطوة اثنينِ.

أشكر عائلتي التي تقاسمت معي المتاعب والأفراح، والحاضرة دائمًا، وأبدًا في قلبي.

عبر مصائر تتفاوت في شقائها، واستلهامًا لواقع كان سائدًا، تقف (إيلاريا توتي) أمام قضايا بالغة الحساسية في المجتمعات الأوروبية، أَسّستْ قبل ١٠٠ عام وأكثرٍ لقيم جديدةٍ... قضايا من بينها حقُّ المرأة في اختيار عملها وحياتها الاجتماعية، وحقِّها في ارتداء ملابس مريحة، والعيش باستقلالية.

تنسج، إيلاريا، عالمها بين مستشفىً عسكريٍّ يدرنه نساءٌ مجتهدات قاتلنَ (حَرفيًا) من أجل مكانتهنَّ في المجتمع، وجنودٍ على أرض واحدة من أشرس المعارك التي عرفتها البشرية، الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨)، وكيف تشتبكُ هذه الأرواح في رعبِ نهاية مهَّدت لخلقٍ جديدٍ فيما بعدُ.

ثمَّة أمومةٌ في رواية (مثل ريح طُرِّزت بالأرض)، أمومةٌ تتلقَّت خشية أنياب التقاليد والفقد. وصداقة تُختبَرُ غير مرَّةٍ فلا تذبل أمام التحديات الكبرى. وأسئلة على قدر ذاتيتها فهي كونية: متى سيناضل المرء ومتى سيقول بمنتهى البساطة "لا! هذا يكفي". هل ترجمان الرجولة سلاح المعركة؟ وهل تنتهي الحياة مع موت حبٍّ أو بتر ساقٍ أو خسارة عائلة؟

إنَّه عمل ملحمي في الحرب وما تخلِّفه على جدران الرُّوح من ذاكرة مشوّومة. وفي الحبِّ الذي ينمو بين أعمدة الدخان وقذائف المدافع والأبخرة السامَّة. عملٌ حقيقي، لا تنقصه الفكاهة ولا يعوزه الخيال، على قدر المشاعر التي تجيش فيه.

الناشر

مكتبة
t.me/soramnqraa

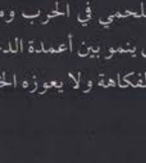

إيلاريا توتي

مثلُ ريحٍ طُرِّزَتْ بالأرضِ

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

9 789921 775754

www.takweenkw.com | takween.publishing@gmail.com